

الدَّارُ الْعَرَبِيَّةُ وَنَادِيُّ الْمُجَاهِدِينَ

١٩

عِصْرُ الْمَالِكِ وَالْعِثَمَانِيَّينَ وَالْعِصْرُ الْحَدِيثِ

بقلم

مُحَمَّدُ رُزْقُ سَلِيم

الأساد المساعد في كلية اللغة العربية

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م

كل نسخة ليس عليها اسمه المؤلف تعتبر مزورة

مطبوع دار الكتاب العربي بجبل  
مؤسسة مصرية للطاعة الحديثة



الدَّارُ الْعَرَبِيَّةُ وَرَادِنْهَا

١٩

عِصْرُ الْمَالِكِ وَالْعِثَانِيَّينَ وَالْعِصْرُ الْحَدِيثُ

بِقِيمِ

مُحَمَّدُ زَرْقُ سَلِيمٍ

الأساذ المساعد في كلية اللغة العربية

١٣٧٧ - ١٩٥٧ م

كل نسخة ليس لها علىها امتياز المؤلف تقتصر مزورة

مطبوع دار الكتاب العربي  
مذكرة مصبرية للطباعة الحديثة

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين .  
وبعد فهذه بمحاجات وجذرة تعرض الأدب العربي وتاريخه في عصر  
المهاليك والعثمانيين وعصر النهضة الحديثة في مصر والشام .

وهي مع إيجازها واضحه دقیقة مركزة ، أردت بها معاونة طلاب  
الأدب على استيعاب موضوعاته في العصور المذكورة في سهولة ويسر  
وسرعة ، مع الإشارة إلى مشاكله وفتح الطريق أمامهم للبحث عنها  
واستكمال دراستها . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

المؤلف

## التعريف بعصر المماليك

حكم المماليك البلاد المصرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ . وقد أقاموا دولتهم على أنقاض الأيوبيين ، واستمرروا في الحكم إلى أن فتح العثمانيون هذه البلاد .

وقد كانت أسواق الرقيق نافقة في العصور الوسطى بين بلاد أواسط آسيا وغربها ، بسبب ما انانياها من ألوان الزراع وضروب الفتن والدمار ، وما شب فيها من حروب الصليبيين والتتار والعثمانيين وغيرهم .

وكانت أمواج هذه الحروب تطغى ذهاباً وإلياباً في البلاد المذكورة ، فاستحر القتل وزاد الترمل واليتم ، وضاعت معالم أسر ، وتقوضت دعائم أخلاق .

تعاون كل هذا على رواج أسواق الرقيق من أجناس شتى ، وبخاصة الجنس الترك والجزركسي وما إليهما ، فاشتد فيهم الجلب والبيع والشراء .

وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي — من أواخر سلاطين الدولة الأيوبية في مصر — قد رأى أن يبتاع لنفسه عدداً من هؤلاء الإلرقاء ، فاستكثر من شرائهم ونشأ لهم تنشئة عسكرية وأسكنهم جزيرة الروضة فسموا «المماليك البحريية » .

وانتخذ منهم الملك الصالح خاصة جنده ، ورقى أكبادهم إلى مناصب الإمارة — قيادة الجندي — فصار ذلك نظاماً متبعاً من بعده .

واشتهر منهم فارس الدين أقطاي ، وعز الدين بن أبيك الجاشنكير ، وركن الدين يبرس ، وسيف الدين قلاوون . وارتقي بعض هؤلاء فيما بعد ، إلى مرتبة السلطة .

وقد عاون هؤلاء المماليك وأمراؤهم في حروب مصر وفي قتال الصليبيين ، معاونة كبرى ودفعوهم عن الديار المصرية .

وبعد وفاة الملك الصالح ، جلس على عرشه ابنه المعظم توران شاه .  
ولكن وقع بينه وبين ماليك أبيه خلاف شديد أدى إلى قتله وإلى إقامة زوجة  
أبيه « شجرة الدر » ملكة على البلاد مكانه .

وبعد قليل تزوجت « شجرة الدر » أحد كبار المالكين وهو الأمير « عز الدين  
ابن أبيك الجاشنكير » وتنازلت له عن السلطة ، فاستبد بها وأصبح ملكاً على  
البلاد وذلك عام ٦٤٨ هـ ، وبهذا انتقل حكم مصر من الأيوبيين إلى مالكينهم .  
وخللت سلطنة مصر في يد هؤلاء المالكين ، حتى فتحها الأتراك العثمانيون  
عام ٩٢٣ هـ — كما أشرنا — وكانوا كلما خلا عرش البلاد من سلطانها استور  
كتار الأمراء واختاروا من بينهم أميراً ولولاية السلطة ، وقد يكون هذا ابناً  
للسلطان السابق .

وبرز منهم في السلطة ملوك أعلام اشتهروا في ميدان الحرب أو السياسة  
أو الإصلاح ، مثل بيرس وقلاؤون والناصر محمد وبرقوق وقايبي .

ويقسم المؤرخون هذه الدولة دولتين: البحريه والجركسيه، وتبدأ الجركسيه  
من عصر الظاهر برقوق عام ٧٨٤ هـ . ولا أرى داعياً إلى هذا التقسيم سوى  
الاختلاف في الجنس ، فإن أكثر سلاطين الدولة الأولى من الأتراك ، وأكثر  
سلاطين الدولة الثانية من الجركس ، وفيما عدا ذلك تتشابهان إلى حد كبير في  
نظام الملك ووظائف الدولة والإدارة و اختصاصاتها وطرق القضاء والتعليم  
وتكون الجيش وفرض الإقطاع ، إلى غير ذلك .

وظل المالكين يتجددون ويستكثرون عن طريق الشراء من الخارج ، كما كان  
الشأن في أول نشأتهم . وأخذ سلاطينهم وأمراؤهم يستكثرون من شراء  
المجند وربونهم تربية عسكرية خاصة توهلم للجندية والمحروب والحكم .

وعاشوا جميعاً في غالب أمرهم ، طبقة حاكمة مستبدة مترفة عن الشعب . وشاب  
حكمهم مساوىً كثيرة منها كثرة الفتن والمحروب الداخلية ، والإسراف في مال  
الشعب وإهراقه بالضرائب الفادحة ، وأمتلاك أرضه الزراعية دون أبنائه وفرض

نظام الإقطاع وتحريم الجنديه على الشعب وحرمانه الإصلاحات الحيوية  
الضروريه له ، إلى غير ذلك .

إلا أن لهم بجانب ذلك ، حسنات يذكرها لهم التاريخ ، فهم في جملتهم كانوا  
ذوى حماسة للإسلام ذاده عن المسلمين وعن بلادهم ضد العتدين عليهم من التيار  
والصلبيين ، كما أنهم غزوا باسم مصر وملكوا البلاد المجاورة لها ورفعوا علىها  
فوق ربعها ، حتى كانت سلطنة مصر في عهدهم إمبراطورية واسعة الأرجاء  
عظيمة الشأن ، مهيبة ، ضمت البلاد الشامية والخلبية والمحجازية وغيرها .  
وكذلك من محسنهم أنهم تركوا مناصب القضاء في منازعات الشعب لقضائه  
الشرع غالباً ، وفتحوا كثيراً من المساجد للعبادة والتعليم ، وعاونوا على بعث  
علوم الدين ، ورحبوا بالوافدين إلى مصر من أبناء الأمم الإسلامية للعلم  
أو التجارة أو غير ذلك — وسنشير إلى ذلك بشيء من التفصيل . كما كان  
كثير منهم سخى اليد برأسيناً على نواب المعروف .

ونحاول أن نتوه فيما يلى بما كان في مصر خلال حكمهم من نشاط  
على وأدبى .

## بَيْنِ بَغْدَادِ وَالقَاهِرَةِ

اتخذ بنو العباس مدينة بغداد عاصمة لملوكهم العظيم فصارت مركزاً للعلوم والآداب الإسلامية ، واتجهت إليها العيون في شتى ممالك المسلمين ، ونشط فيها العلماء والأدباء وأهل الفن والصناعة والترجمون والمؤلفون ، حتى أصبحت دارة العلم وهالة الأدب ولملتقى الثقافات ، ولونت حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى بألوانها إلى حد كبير .

وظل ذلك زمناً طويلاً حتى ضعف بنو العباس ، وانشق عن سلطان بغداد كثير من عواصم الأوطان التابعة ، وأخذت تتعدد مراكز الآداب الإسلامية ، وأنشئت مدينة القاهرة في عهد الفاطميين ، فاحتلت مراكزها عاصمة بين عواصم المسلمين ، وبدت مراكزاً جديداً هاماً من مراكز هذه الآداب .

ولبثت بغداد مع هذا ، أحد هذه المراكز الكبرى ، حتى قضى عليها التار وأزالوا دولة العباسين جلة عام ٦٥٦ .

قبل ذلك ببعض سنوات ، كانت سلطنة مصر قد انتقلت إلى أمراء المماليك — كما نوهنا — فزعزع المماليك العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد وزوال العباسين ، ومن ثم أصبحت القاهرة أهم مراكز العلوم والآداب الإسلامية على الإطلاق ، وزاد نشاطها وصار لها في عهد المماليك من الأهمية العالمية ما كان لبغداد في عهد العباسين ، وأخذت تلون بألوان حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى ، ولو إلى حد ، وشاركتها في ذلك جلة من العواصم المصرية كالإسكندرية ودمياط وأسيوط وقوص .

## أسباب النشاط العلمي

نشطت الحركة العلمية في القاهرة وعمت المدن المصرية الأخرى ، وامتدت حتى شملت كثيراً من المواصم الإسلامية كدمشق وحلب ، وفيما يلي أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك :

### ١ - وقوع كثير من البلاد الإسلامية في يد التتار :

الttar من الجنس المغولي الذي يسكن الأطراف الشمالية لبلاد الصين . وقد كان التتار بدأة جهلاً وثنيّن ، وكانوا متفرقين في صحراوات الصين حتى وتحدهم ملوكهم جنكيز خان وزحف بهم منذ عام ٦٠٦ هـ على أواسط آسيا وغربها ، فقتلوا مالا يحصى من المسلمين . وما زال سيلهم طاغياً بعد جنكيز خان حتى احتلوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ بقيادة ملوكهم هولاكو . فقتلوا آلافاً من أهلها وأعianها وأزالوا خلافتها ، فضاعت بذلك شوكة العرب والمسلمين ، ففطعوا إلى حماة جدد يدافعون عنهم ويذرون أعداءهم بعيداً عن ديارهم ، فلم يكن هناك أقوى من سلاطين مصر والهالك . الذين نصبو أنفسهم ذادة عن الدين وحمة المسلمين ، شاعرين أن القدر حملهم أمانة الدفاع عن تراث الإسلام .

### ٢ - قتل العلماء والأدباء وإتلاف الكتب :

تتبع التتار — فيها تتبعوا — علماء بغداد قتلاً ، وكتب حضارتها إبادة وإنطلاقاً ، وذلك أثناء الفتح . ولقد قيل إن هولاكو قتل علماء بغداد ومنهم محبي الدين بن الجوزي وأولاده ، وأمر بالقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة ، فأضاع بذلك على الدين واللغة ذخائر لاتعوض . فكان لهذه الكوارث آثارها في نقوس علماء الأمة ، ورد فعل شديد دعاهم إلى التهوض لإحياء هذا التراث العلمي الجيد وتجديده .

### ٣ — هجرة العلماء :

ولما اشتد عبث التتار في العراق وبغداد وغيرهما فرَّ كثير من العلماء من وجههم، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدرًا ، فوفدوا إليهم ، فوجدوا فيما ترحيباً وأهلاً بأهل ، سواداً كان ذلك من الحاكين أم من أبناء الشعب . وقد أغري ذلك كثيراً من العلماء في الأصقاع الأخرى ، فوفدوا هم كذلك إلى مصر والشام حيث الأمان والسكنية والكنف الرحب . فاشتغلوا بالقضاء أو الإمامة أو الكتابة أو التعليم أو نحو ذلك . وعاونوا هم والموطنون من العلماء على تعليم الناشئة وإنضاجها وتحميلها أمانة العلم من بعد .

واطرد وفود العلماء إلى مصر والشام طول عصر المماليك ، وأصبح الترحب بهم سنة متّعة بداعي الأخوة الإسلامية الصادقة .

ومن وفد إلى مصر : ابن خلkan الإبريل المؤرخ صاحب وفيات الأعيان وابن مالك النحوي الأندلسي صاحب الألفية والتسهيل ، وابن خلدون المغربي صاحب كتاب العبر ومقدمته الشهيرة ، وابن تيمية الحراني الإمام المجتهد صاحب الفتاوى ، وابن منظور الإفرنجي صاحب لسان العرب .

### ٤ — إحياء الخلافة :

ولما استتب أمر السلطة للظاهر بيبرس ، رأى أن يقيم خلافة عباسية ثانية بالديار المصرية فاستقدم أحد أمراء بنى العباس وأثبت نسبه وبايده بالخلافة ومعه قضاة الشرع وأمراء الدولة في حفل عظيم . ومن ثم استمد هو منه السلطة .

واستمرت الخلافة قائمـة بمصر موروثة في البيت العباسي حتى عام ٩٢٣ هـ إذ زالت على يد العثمانيين الذين أرغموا آخر الخلفاء على التنازل عنها لسلطانهم سليم الأول ، ونقلوها إلى عاصمة ملوكهم .

والخلافة العباسية الثانية ، وإن كانت هزيلة ضئيلة الجاه بجانب سلطان البلاد ، تعتبر كسباً أديباً كبيراً لمصر ، ورزاً روحاً قوية اتجهت إليه قلوب المسلمين

شرقاً وغرباً، وذلك مما عاون على جعل القاهرة قلباً للعالم الإسلامي، ومركزاً للعلوم والأداب الإسلامية، كما كان دافعاً لحكام مصر على تشجيع علماء الدين.

#### ٥- الغيرة الدينية عند الحكام وتعظيمهم العلامة:

وقد كان حكام البلاد، في جملتهم، شديدي العصبية لدينهم، عظيمى الغيرة على مصالح المسلمين. ولذلك كانوا الصليبيين وهزموا هم مراراً، وكافروا التار وصدوا تيارهم عن البلاد.

ودفعتهم غيرتهم أيضاً إلى تعظيم العلامة ورعايته، واستشارتهم في أمورهم العليا، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما.

على أن سطوة علماء الدين حينذاك كانت واسعة، وطم جاه عند العامة عريض، لما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب وإيمان شديد، وزهادة في الدنيا، وتعصب للحق، وجرأة على الباطل. فلعل هذه السطوة كانت أحد الأسباب التي دعت الحكام إلى تعظيمهم. ولقد كان السلطان الظاهر بيبرس يخشى الشيخ عن الدين عبد السلام، فلما مات الشيخ قال الظاهر: «ما استقر ملوك إلا الآن».

ولا يخفى ما لهذا التعظيم وهذه العناية من أثر كبير في شحذهم العلامة ودفعهم إلى النشاط العلمي النافع للاحتفاظ بكتابتهم وجاههم.

#### ٦- شعور العلامة بواجههم:

وقد شعر العلامة بواجههم وبالآلامنة الثقيلة الملقاة على كاهلهم لآخر سقوط بغداد وكارثة الدين والعلم بها، ولآخر ما أصيّبته دول المسلمين شرقاً وغرباً على يد الفرنجة. فأغدووا السير، بل وتنافسوا في ميدان التعليم والتأليف، فقاموا بذلك، بحركة إحياء علمية جليلة الشأن. وازدادن كثير منهم بالعلم الغزير، والزهد في الدنيا، والغضب للحق، والغيرة على مصالح الأمة، وبهذا اكتسبوا مكانة ملحوظة بين أبنائهما، وتفوذاً ضخماً بين طبقاتها.

وبلغ بعضهم حد الاجتهد والقدرة على التجديد والابتكار في ميدانه،

ونذكر منهم العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد القشيري ، وتقى الدين السبكي ،  
وابن تيمية الحراني ، وابن حجر العسقلاني ، والجلال السيوطي ، وزكريا  
الأنصاري .

#### ٧ — إنشاء دور التعليم ورصد الأوقاف عليها :

لا شك أن إنشاء دور التعليم سبب أساسى وعامل جوهري لنشر العلم  
والأدب بين طبقات الأمة . وهى البيئة الطبيعية الأولى للمشتغلين بالعلوم  
والأداب طلابا وأساتذة .

وقد بدأ عصر المماليك ، وفي مصر عدد لا يأس به من هذه الدور ، منها  
جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله ، ومدارس  
أخرى عدة أسسها الأيوبيون في مدينة القاهرة كالمدرسة الصلاحية ، والمدرسة  
الناصرية . وكلها كانت عامرة بالدراسات المختلفة .

وقد شير سلطان المماليك وأمراؤهم وبعض أهل الفضل عن ساعد الجد ،  
على مدى العصر ، وأنشوا عدداً ضخماً من دور التعليم في القاهرة وغيرها من  
المدن المصرية والشامية . وبلغ ما أنشئوه في القاهرة وحدها نحواً من أربعين  
مدرسة ، وأوقفوا عليها الأوقاف الدارة التي تهيي لها أسباب الحياة والاستمرار  
في أداء رسالتها .

وقد تباروا في إنشاء هذه المدارس تقريراً إلى الله ورعايته للشعب أو مظهراً  
من مظاهر الفخر أو وسيلة لاستبقاء بعض أموالهم في يد ذراريهم عن طريق  
الوقف على هذه المدارس واحتياط النظر لنرتديهم .

واعتقدوا أن يفتحوا هذه المدارس بخلافات شائقة تلقى فيها الخطب  
والقصائد وتمد الأطعمة أو تفرق الأشربة ، أو نحو ذلك ، ويختارون للتدرس  
فيها أربع العلماء وأفضل الشيوخ .

ومن هذه المدارس : المدرسة الظاهرية التي أسسها الملك الظاهر بيبرس  
بالقاهرة عام ٦٦٢ هـ ، والمدرسة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون .

والناصرية التي أنشأها العادل كتبغا وأكملها الناصر محمد بن قلاوون . ومدرسة السلطان حسن ، والمؤيدية « جامع المؤيد » . وغير ذلك مما يراه المتجلو في أرجاء القاهرة .

ومن أهم هذه الدور التعليمية الجديدة : المارستان المنصوري ، وهو بناء ضخم فسيح ، بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ بخط بين القصرين . ويحتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب . ويعتبر من أعظم الأعمال التي خالدت ذكر قلاوون . وندر أن يوجد له نظير في تلك العصور الخالية . وكان ينقسم عدة أقسام : فيه قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال . وقد جهز بصيدلية عظيمة تحتوى على أنواع الأدوية والعلاج ، وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين ، وهىئت به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب ، وضمت إليه خزانة كتب جليلة الشأن . وكان العلاج والتعليم فيه بالمجان ، كما كان الشأن في جميع دور التعليم الأخرى .

وبهذه المناسبة نذكر أنه لم تكن هناك سياسة تعليمية عليا مرسومة تشرف عليها الحكومات وتقوم بتنفيذها متكاملة — كما هو الشأن في العصر الحديث — ولهذا كانت الأوقاف هي الوسيلة الوحيدة أو الأساسية لضمان استمرار دور التعليم مفتوحة الأبواب عامرة بطلابها وشيوخها . وكثيراً ما كانوا يغانون في هذه الأوقاف ويبالغون في بذلها ، كما كانوا يبذلون بين وقت وآخر ألواناً من الهبات والعطایا والصدقات للطلاب والشيوخ .

#### ٨ - إنشاء دور الكتب :

وقد عنوا عنابة ملحوظة بإنشاء دور الكتب وتزويد دور التعليم بها وحشد المؤلفات التقيسية فيها ، رغبة منهم في معاونة علمائها وطلابها في جهادهم العلمي التبليغ ، وقل أن تجد مؤسسة تعليمية حينذاك خالية من مكتبة زاخرة . وإذا لاحظت أن الكتب — لهذا العهد — كانت خطيرة ونادرة وقليلة النسخ ومتفرقة في شتى البوادي وغالبة الثن ، قدرت ما كانوا يبذلونه في سبيل جمعها من جهود مال .

ومن أشهر خزائن الكتب : خزانة جامع الحاكم بأمر الله زوده بها السلطان العادل يبرس عام ٧٠٣ هـ ، وخرانة جامع المؤيد زوده بها منشىُ الجامع وهو الملك المؤيد شيخ عام ٨١٩ هـ، وخرانة القبة المنصورية وأنشأها المنصور قلاوون .

هذا عدا ما كان يقتنيه بعض كرام الأمراء والعلماء من مكتبات خاصة ، فقد روى ابن إيس في كتابه « بداع الزهور » بين حوادث عام ٨٨٨ هـ أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي ، كان عالماً فاضلاً ، ولما مات في العام المذكور وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة .

#### ٩ — اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية :

وهذا من أهم الأسباب التي استبانت اللغة العربية حية متداولة ، بل نابضة نامية تؤدي حاجة الدولة وحاجة الناس في شتى الميادين .

وقد كان حكام البلاد أعمام عن العربية ، فهم بفطرنهم لا يغارون عليها ولا يعطفون على أهلها ولا يشجعون علومها وأدابها . ولكن الظروف القاهرة التي كانت تحبط بهم دفعتهم إلى العناية بها وتشجيع أهلها ، ذلك لأن يقظهم التركية كانت إلى ذلك الحين فاصرة عاجزة عن أن تؤدي حاجة الدولة ودوافئها المختلفة ، وتقوم بشئون القضاء والفتوى والتعليم وما إلى ذلك . بينما كانت العربية مطوعة غرنة على ذلك منذ أمد بعيد ، هذا فضلاً عن أنهم كانوا يحكمون شعوباً عربية ولا يمكن أن يتم التفاهم بينهم إلا بلغتهم ، لهذا اتخذوا العربية لغة رسمية في دواوين الدولة ، واستخدموها في هذه الدواوين عدداً من « المتعلمين » متخرجى المساجد لزاولة المكاتبات العربية التي تحتاج إليها الدولة . وكان ألمع دواوينها حينذاك « ديوان الإنماء » الذي اختص بالمكاتبات الديوانية العليا ، وكان يختار للعمل فيه أربع أهل اللغة والأدب والكتابة .

وقد كان ذلك كله سبباً في رواج العربية ، وفي رواج الفصحى داخل الدواوين ، وبخاصة في كتابة المراسلات والوثائق العليا ، وسيما في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء .

## نتائج هذا النشاط

من أهم نتائج هذا النشاط العلمي ثلاثة أمور :

### أولاً : اتساع حركة التعليم :

كان تأسيس المدارس ورصد الأوقاف عليها والعناية باختيار شيوخها ، وبذل المعونات لطلابها وإجراء الأرزاق عليهم ، سبباً قوياً في اتساع حركة التعليم وإقبال الشيوخ والطلاب على العيل بهمة ونشاط . فراجت سوق التعليم ووفد الطلاب إلى المساجد زمراً من كل فج من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية — كما هو شأن في وقتنا الحاضر — حتى صافت بعض دور التعليم بطلابها .

وقد روى المقريزى عن الجامع الأزهر : « أنه حتى عام ٨١٨ هـ كان به عدد كبير من الفقراء المقطعين لطلب العلم يبلغ عددهم ٧٥٠ رجلاً ، وهم ما بين عجم وزبالة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم . وأنه كان عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومحاسن الوعظ وحلق الذكر . وأن الداخل إليه يهدى من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يهدى في غيره ، وأن أرباب الأموال صاروا يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانته للسجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز ، والحلوات لا سيما في المواسم » .

هذا ، ومن المناسب هنا أن تتحدث قليلاً عن أنواع التعليم قد كان بالبلاد نوعان :

١ - التعليم العسكري : وقد كان مقصوراً على طائفة المالك بمصر ما على أبناء الشعب . وكان من عادة السلاطين أن يستوردوا المالك الجدد من أسواق الرقيق ، ويدفعوهم إلى طباق القلعة حيث يعلون تعليماً عسكرياً خاصاً يتوهلمهم

لخوض غمار المروء والمحافظة على الدولة . ومن ينبع منهم يعتق وينجح اقطاعاً وما لا يحلا وفاسداً ويعطى لقباً من ألقاب الأئمة . ثم قد يترقى صعداً — حسب كفائه وحيلته — في سلك الإمارة حتى يصير أميراً كبيراً وقد يدفع به حظه إلى مرتبة السلطة .

٢ — التعليم الشعبي : وهو مباح لطبقات الشعب بالجانب . ومكانه المساجد وهي دور التعليم في ذلك العهد وكان تعليها حرآ غير مقيد ، وكان الطالب توجهه رغبته الخاصة إلى تنظيم جدول دروسه واختيار شيوخه والتنتقل من مسجد إلى آخر طلباً للعلم .

والدراسة في المساجد تعتبر دراسة عالية ، تسبقها مرحلتان يمر بها الطالب عادة — والمرحلة الأولى مرحلة « الكتاتيب » وقد كانت منتشرة في أرجاء البلاد ، ويتعلم الصبيان فيها مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم — والمرحلة الثانية مرحلة حفظ الكتب . وفيها ينكب الطالب بنفسه على عدة كتب مختلفة في علوم شتى ، يحفظها عن ظهر قلب ، تمهيداً للمرحلة العالية . وفيها يبذل الطالب جهداً كبيراً في حفظ الكتب حفظاً جيداً ويهتم شيخه شيخه فيما بعد ، فيها حفظ ، وينتخر كل شيخ إجازة بنجاحه تسمى « إجازة العراضة » . وبعد ذلك يلتتحق بالمساجد ويحصل بكتاب الشيوخ وأخذ عنهم العلم ، وقد ينتقل من مكان إلى آخر ، بل من مصر إلى غيره طلباً للشيخ — وبخاصة شيخ الحديث — وقد يلازم شيئاً أو أكثر ، ملازمة الظل ، ليستوعب أكثر ما عنده من العلم . فإذا نضج الطالب من الناحية العلمية اختره أستاذه ، فإذا نجح منحه إجازة بالفتوى أو التدريس أو نحوها .

والدروس المقررة حينذاك ، المتعارف تدريسها في المساجد كانت — فيما عدا حفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة — طائفة غير محددة من كتب الفقه والأصول والحديث والتفسير والمنطق والقراءات واللغة ، تحفظ ويبحري شرحها في حلقات الدرس .

وكان كتب الدين ودروسه هي المفضلة عند المتعلمين بعامة ، ويليها كتب اللغة والأدب ودورسها ، ثم يلي ذلك كتب العلوم الأخرى ودورسها .

وكان ألم كتب الدين : كتب الفقه ومذاهب الأربعة ، وكتب الحديث ومصطلحه وتاريخ رجاله .

ومن أمثلة الكتب التي سعدت بالعناية والرواج في ذلك الحين ، حفظاً ودراسة : منهاج الأصل لحي الدين التوسي ، والشاطييان في القراءات ، وختصر القدوري في الفقه ، والعمدة للحافظ النسفي في الأصول ، والكافية لابن الحاجب في العربية ، وتلخيص المفتاح في البلاغة للفزوي ، والكتنز في فقه الخفية ، وألفية ابن مالك في النحو ، وفضيح ثعلب في اللغة ، وإيساغوجي في المنطق .

### ثانياً : كثرة العلماء والأدباء :

زخر العصر ، نتيجة لذلك ، بعد وافر من علماء المذاهب الأربعة ، وبخاصة المذهب الشافعي ، لا يقلون عن أسلافهم ذكاء وفطنة ، ولا إدراكاً لسائل المذهب وإحاطة بها ، ولا مقدرة على الفتيا . وكذلك زخر بحفظ الحديث ورجال التصوف والكلاميين والأصوليين والتحوليين واللغويين والأدباء والكتاب والشعراء ، والأطباء والمتجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم .

وتواترت طبقات هؤلاء الرجال الأفاضل ، طبقة بعد طبقة على مدى العصر وكان جيل الملك الناصر محمد بن قلاوون أملاً أجيال العصر بأفضل الرجال ، وهو النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، ويليه النصف الثاني . وأكثر هؤلاء الرجال تخرج في أكثر من علم وفن .

ومن الأئمة المجتهدين : ابن عبد السلام «٦٨٤هـ» ، وابن المنير الإسكندراني «٦٨٣هـ» ، وابن الرفعة «٧١٠هـ» ، وتقى الدين السبكي «٧٥٦هـ» والمجلال السيوطى «٩١١هـ» .

ومن حفاظ الحديث وشرائحة : الجمال الزيلعى «٧٦٢هـ» والعن بن جماعة «٧٦٧هـ»

وزين الدين العراقى « ٨٠٦ هـ »، وابن حجر العسقلانى « ٨٥٢ هـ »  
والقسطلاني « ٩٢٣ هـ ».

ومن رجال اللغة وال نحو : ابن مكرم الإفريقى « ٧١١ هـ »، وأنور الدين أبو حيان  
الأندلسى « ٧٤٥ هـ »، وابن هشام المصرى « ٧٦١ هـ » والمجلال القزوينى « ٧٣٩ هـ ».  
ومن رجال القراءات : الراشدى « ٦٨٥ هـ » والجزائرى « ٦٨٨ هـ »  
و سخنون « ٦٩٥ هـ »، وتقى الدين الصانع « ٦٧٢ هـ ».

ومن المؤرخين : ابن خلkan « ٦٨١ هـ »، والأدفوى « ٧٤٩ هـ »،  
والنويرى « ٧٣٣ هـ »، والصفدى « ٧٦٤ هـ »، وابن خلدون « ٨٠٨ هـ »، والمقرىزى  
« ٨٤٥ هـ »، وابن إياس المصرى « ٩٣٠ هـ ».

ومن النابحين في غير ما سلف : ابن التفيس الطيب « ٦٨٧ هـ »، والأصبهانى  
في المنطق والأصول، والباجى « ٦٨٨ هـ »، والمغربي رئيس أطباء القاهرة « ٧٧٦ هـ »،  
وجي الدين الكافيجى لمام المقولات « ٨٧٩ هـ ».

ومن الأدباء شعراء وكتابا : البوصيري، الشاب الظريف وابن عبد الظاهر  
وابن فضل الله العمري وابن باتة المصرى والقلقشندى وابن حجة الحموى —  
وستفيض في ذكر هؤلاء في مناسبات قادمة .

### ثالثاً: انتعاش حركة التأليف :

وهذه الحركة أبقت آثار النشاط العلمى ، وقد كانت الوصلة الصالحة بين الماضي  
والحاضر . وهى بما أنججت من مؤلفات ، حلقة ذهبية فريدة في سلسلة  
العلم والأدب .

في ذلك العصر ماجت البلاد بكثير من العلماء والأدباء الذين أقبلوا على  
التأليف بجمع أنفسهم وبشغف شديد ، وافقن بعضهم في اختيار موضوعاته  
وتلويعها وترتيبها ، وأكثر بعضهم من مؤلفاته حتى عدت بالشرفات بل بالمتاحف .  
ومن أكثر من التأليف : الجلال السيوطى وابن تيمية الحرانى وابن حجر  
العسقلانى وابن قيم الجوزية وتقى الدين السبكى وابنه تاج الدين صاحب  
طبقات الشافعية ، وصلاح الدين الصفى ، وتقى الدين المقرىزى وغيرهم  
كثيرون .

وقد كانت هناك عنابة ملحوظة بالتأليف في التاريخ والحديث ورجاله والفقه ومذاهبه والتصرف والقراءات ثم اللغة وفنونها.

وحقيقة كان كثير من هذه المؤلفات إما موسوعات جامعة ، وكثيرة فياضة ، حشدت فيها مسائل العلوم حشداً ، وقصاري هم مؤلفيها الجم والإختيار أو الشرح ، وإما اختصارات لكتب سابقة ، أو تدوين الفتوى أو تسجيل المناقشات .

غير أن هذا لا يدعنا نغضن من قيمة هذه المؤلفات ، فهن يعاني مشقة التأليف يشعر أن بعض ألوان التأليف المشتكى أيسراً مشقة وأخف متونة من بعض ألوان الجم والإختيار أو الشرح والاختصار .

على أنك تجد روح الابتكار والتتجدد بادية في كثير من مؤلفاتهم أيضاً ، ومنها كتب الفقه وفتواه وشرح الحديث وتفسير القرآن الكريم ، وتسجيل حوادث التاريخ والنقدات التي تتخللها والعطارات التي تستخرج منها . وحظي العصر بمجموعات رائعة من كتب التاريخ مختلفة الاتجاه ، فتها في التاريخ العام ، أو تاريخ الأعلام أو السير النبوية أو تاريخ المدن والأمسكار أو السير أو تاريخ مصر والقاهرة أو غير ذلك .

ومن أمثل المؤلفات في ذلك : كتاب الجموع لحيي الدين النووي في فقه الشافعية ، وهو شرح لجزء من مهذب الشيرازي ، وفتاوي ابن تيمية الحراني في فقه المحتابة . وفتح الباري لابن حجر العسقلاني وهو في شرح البخاري ، ووفيات الأعيان لابن خلkan وهي في التراث ، ومقدمة ابن خلدون وهي في فلسفة الاجتماع .

ولذلك طوائف من مؤلفات العصر :

- ١ — من كتب التاريخ : الوفيات لابن خلkan . الطالع السعيد الإدفوی .  
الواقی بالوفیات للصفدی . الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانی . النجوم  
الظاهرة لابن الحasan بن تغزی بردى . والخطط والسلوك كلاماً للقریزی .  
والضوء اللامع للسعداوی . وبدائع الزهور لابن ایاس المصری . وحسن المعاشرة  
في أحیان مصر والقاهرة للجلال للسيوطی .

- ٢ — ومن كتب الحديث : الإمام لقى الدين بن دقيق العيد . فتح البارى بشرح البخاري لابن حجر العسقلاني ، وعدة القارى في شرح البخاري لبدر الدين العيني ، وإرشاد السارى إلى شرح البخارى للقسطلاني .
- ٣ — ومن كتب الفقه : الروضة والمناج والمجموع وكلها للنووى في فقه الشافعى . وشرح متن الكفر لفخر الدين الزيلعى في فقه الحنفية . وشرح مختصر ابن الحاجب للزوادى في فقه المالكية . وفتاوى المصرية لابن تيمية الحرانى في فقه الخانبة .
- ٤ — ومن كتب التفسير : الإتقان في علوم القرآن ، ولباب التقول في أسباب النزول ، وكلام المجلال السيوطى . والتيسير في علم التفسير للكافىجى . وتفسير المعوذتين لابن تيمية الحرانى .
- ٥ — ومن كتب الصوفية : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .
- ٦ — ومن كتب القراءات : النشر في القراءات العشر لشمس الدين بن الجوزى الدمشقى . شرح الشاطبية للشهاب القسطلاني . شرح الجزرية لذكرى الأنصارى .
- ٧ — ومن كتب العربية : الألفية والتسهيل لابن مالك التحوى الأندلسى نزيل دمشق . شروح الألفية لكل من بهرام بن عبد الله ، وشمس الدين الصانع وحب الدين الحلبي وبهاء الدين بن عقيل وغيرهم — ومعنى الليب عن كتب الأعاريب بجمال الدين بن هشام المصرى ، وله أيضاً شذور الذهب . وشرح التسهيل لكل من المرادي وشهاب الدين الحلبي ، وناصر الدين بن عطاء الله الرizيدى وغيرهم . شفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين الحلبي . وخزانة الأدب في علوم الأدب والبلاغة لابن حجة الحوى ، وتلخيص المفتح للجلال الفزويى ، والمزهر في فقه اللغة للجلال السيوطى ، ولسان العرب وهو معجم لغوى عظيم لابن منظور الإفريقي .
- ٨ — ومن كتب العلوم الأخرى : المختار من الأعذية لعلاء الدين بن الفيس الطيب ، وهو في الطب والنبات ، زنج ابن الشاطر وهو لابن الشاطر الموقت ،

في علم النجوم ، حياة الحيوان الكبير لكمال الدين بن الدميري ، وهو في الحيوان واللغة والأدب والتاريخ — تحفة المجاهدين في العمل بالميادين للأمير لا جين الذهبي ، وهو في فنون الحرب — مقدمة ابن خلدون في علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ — تقويم البلدان لأبي الفداء ، وهو في الجغرافيا .

٩ — ومن الموسوعات التي ضمت علوماً وفنوناً عددة : مسالك الأنصار لابن فضل الله العمرى ، ونهاية الأرب لشهاب الدين التويى ، وصحب الأعشى لشهاب الدين القلقشندي ،

#### ملحوظة :

كثير من كتب هذا العصر لا يزال مخطوطاً قابعاً في دار الكتب المصرية ، أو في مكاتب الأستانة وعواصم أوروبا ، تسلل إليها عن طريق الغزو ، أو السلب والسرقة . وقليل من هذه الكتب طبع وحظى بالنشر . وواجب الشعب المصرى وحكومته العناية بهذه المؤلفات الثمينة علمية وأدبية ، والعمل على طبعها ونشرها وتيسير اقتناصها ودراستها ، فإنها جزء هام من شخصية مصر التاريخية ، ودراساتها تلقى — ولا ريب — ضوءاً على جوانب متعددة من تاريخ مصر ، وجهاد أبنائها في مجال العلم والأدب .

## أحوال اللغة العربية

أصبحت للشعوب العربية منذ زمن بعيد ، ومنذ أواسط العصر العباسي ، لغتان متميزتان : الأولى : اللغة الفصحى ، وهي لغة تسجيل العلم والأدب والشعر وكتابه الدوائيون والفن والصناعة . ومتنازع ببراءة نحوها وصرفها وذوقها البلاغي وطرق توليد مفرداتها ، والتائب على الدخيل لفظاً وتعبيرأ .

والثانية : اللغة العامية وهي لغة الشعب التي يتحدث بها جميع أبنائه في شتي أحوال معيشهم فيما عدا ما سبق . وهي محرقة عن الفصحى ، وتتمتع بحرية التطور والتحول حسب مقتضيات الأحوال ، ولهذا لا تكترث كثيراً ببراءة القواعد التي تلتزمها الفصحى ، ولا تتأبى على الدخيل .

ولإذا أردنا أن نعرف أحوال اللغة وما طرأ عليها في عصر المالكية فعلينا أن نتحدث عنها في كل ميدان من ميادين عملها على حدة . فإنها في كل ميدان سمات وخصائص . — فنقول :

### ١ — لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب في هذا العصر تركية أو جركسية في الأواسط الحاكمة لأنها لغاتهم الوطنية . أما في الينبات الشعبية فكانت اللغة العامية المحرقة عن العربية الفصحى ، والمروروثة عن الأجيال السابقة مع مزيد من الدخيل التركي والجركسي .

وليس لدينا نماذج واضحه مسجلة ولا نماذج صوتية لهذه اللغة حتى نستطيع دراستها دراسة مفصلة ونصف خصائصها . غير أنها زرها ما ثلة إلى حد في ثلاثة أشياء :

١ — الأزجال وهي أشعار العامية . وستتحدث عنها بشيء من التفصيل عند الكلام عن الشعر . ومن نماذجها يتبين لك أن العامية كانت على شيء من الرونق والقرب من الفصيحة ، وإن كانت مشوبة بضرر من التحريف الصوتي

ولبدال الحروف المشابهة وإشاعر الحركة ، فضلاً عن اللحن وترك الإعراب .  
وقد راجت الأزجال في هذا العصر رواجاً كبيراً لنفسى الآمية ولعجمة  
السلطين والأمراء .

٢ — الشعر الفصيح : فإن كثيراً من شعراء العصر ضمّنوا أبياتهم الألفاظ  
والأمثلة السوقية ، ومنها تعلم مبلغ ثراء اللغة العامية حينذاك في ألفاظها وأمثالها  
وتعبيراتها . وسنوضح ذلك عند الحديث عن الشعر .

٣ — أساليب بعض المؤلفين . فإن هذه الأساليب — وإن كانت في جملتها  
فصيحة معرفة — بها لوثة من العامية في كثير من سطورها . ومن ذلك ترى أنها  
كانت متمنكة من ألسنة العلماء فلم يستطعوا تجنبها في مؤلفاتهم . وكتب التاريخ  
أكثر التبادل بالألفاظ والأساليب العامية من غيرها ، ومن الأمثلة على ذلك :  
خطط المقرizi وبداع ابن مياس — وتشعر وأنت تتصفح المؤلفات بالتتابع  
من أول العصر إلى آخره ، أن العامية كان يشتهد خطرها وانتشارها كلما  
انحدرت إلى أواخر العصر .

من هذا وذاك ترى أن اللغة العامية كانت لها سيادة واسعة وسلطان كبير  
في هذا العصر ، فهي لغة الشعب اليومية التي تؤدي حاجته من التعبير عن شئونه  
المعاشية ، وهي اللغة التي لم يستطع العلماء والأدباء تجنبها في إنتاجهم .

## ٤ — الخطابة

تردّه الخطابة العربية إذا وجدت دواعيها ، ولكن العصر الذي نحن بصدده  
قللت فيه دواعي الخطابة بجملة أسباب منها : انطواء الشعب العربي تحت حكم  
الأعاجم وضياع حريته ، وزوال الحزبية السياسية بين طوائفه ، ولانتقال  
أموره السياسية إلى يد حكامه ، مع عجمة هؤلاء الحكام وجنودهم .

وقد كان المحاكون في مصر والشام ، سلطانين المماليك وأمراءهم — على  
نحو ما يبينا — فلم تكن هناك عوامل تسمح بنشاط الخطابة ، لضعف القدرة  
عليها وقلة المستجيب لها .

غير أننا — مع هذا — نرى أن بعض ألوان الخطابة العربية الفصيحة قد ازدهر وانتشر في هذا العصر ، ومن ذلك :

١ — الخطب الدينية المنبرية : وهي خطب الجموع والأعياد ، وقد نشطت هنا اللون الخطابي نشاطاً ملحوظاً في عصر المماليك بسبب الحياة الدينية والغيرة الإسلامية التي شهدتها الشعوب من حكامه ، وبسبب ما تخلل العصر من حروب مع التتار والفرنجية ، وهما أعداء الدين والملائكة . وبسبب عنانية السلاطين بإنشاء المساجد واختيار أفضل العلماء وأشهرهم لولاية الخطابة بها .

غير أن الملاحظ أن هذه الخطب كانت في جملتها عامة الموضوع لا تتناول أمور الدين تناولاً عميقاً مفصلاً رتيباً ، وقصاراًها النصح والإرشاد .

٢ — خطب المبايعة ونعني بها الخطب التي كانت تلقى في حلقات مبايعة المخلف أو السلاطين ، وقد كانت أيضاً كثيرة الرواج والذيع . وهي قريبة الشبه بال النوع السابق لتفصي التزعة الدينية فيها .

٣ — خطب الوفود ، وكانت تلقى في الاحتفال عند قدوم وفد من بلد آخر ، فقد روى أبو الحasan في كتابه « النجوم الزاهرة » أن التتار في عام ٦٩٨ هـ أرسلوا إلى الناصر محمد بن قلاوون ، كمال الدين بن بهاء الدين قاضي الموصل وخطيبها ، في وفد ، فاحتفل الناصر بقدومهم ووزن القصر ليلاً وأوقد فيه الشموع ، وقام القاضي كمال الدين وخطب خطبة بلغة موجزة ، وذكر آيات في معنى الصلح واتفاق الكلمة ، ثم إن الناصر أرسل معه وفداً على رأسه القاضي عmad الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم .

٤ — رسائل التقاليد والبشارات : والتقليل رسائل ديوانية تكتب لأحد كبار موظفي الدولة عند تقلده الوظيفة — والبشرارة رسالة ديوانية أيضاً تكتب لرف البري في أنحاء البلاد بقدوم السلطان أو انتصار الجيش أو وفاة النيل أو نحو ذلك .

وهذه الرسائل إنشائية من نوع الكتابة — ولكننا نذكرها هنا لسبب واحد وهو أن كثيراً منها كان يتلى على المنابر أو يلقى بين الجماهير كخطب سواء بسواء .

٥ - خطب الزواج : وقد كانت ذاته بحكم ضرورتها الدينية .

ولنا بعد ذلك جملة ملاحظات ، منها :

١ - أن الأساليب الخطابية كان جارية على النط البريدي الذي كان متبعاً في الكتابة والشعر حينذاك - وسنشير إلى ذلك بتفصيل - وأنها كانت على كثير من الرونق والتألق والجزالة على الرغم من تكلف الدبيع ، وأنها كانت أميل إلى الإطالة .

٢ - أن خطب المبايعة ورسائل التقاليد ، كانت تحتوى على جملة أغراض جزئية عدا غرضها الرئيسي وهو المبايعة مثلاً . ومن هذه الأغراض : بيان اختصاص الموظف ، والشأن المستطاب عليه ، وبيان أسباب اختياره لمنصبه ، ووصيته برعاية الأمانة في عمله ، ونحو ذلك .

٣ - أن ما يشبه الخطب حينذاك : النصائح والوصايا ، وكان يكتبهما بعض العلماء النبوين إلى السلاطين وأشباههم يدعونهم فيها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاية العدالة في معاملة الرعية . وقد كتب محي الدين التزوى إلى الملك الظاهر بيبرس أكثر من نصيحة .

٤ - أن ما يشبه الخطب أيضاً : المنازرات والجادلات المذهبية ، وقد انتشر هذا النوع بسبب المنازعات الدينية بين بعض أرباب المذاهب ، ومن الأمثلة على ذلك مدار ما بين ابن تيمية الحنفية وخصومه من الجدل والمناقشة كتابة وشفاها ، بسبب فتاواه الدينية .

٥ - أن خطب الوفود تعتبر ضرباً من الخطب السياسية ، ولكنها كانت نادرة الوجود .

٦ - أن خطب العصر على اختلاف أنواعها ، كانت في أكثر أمراها ، مكتوبة معدة ، فقدت عنصر الارتجال . تفهم ذلك من كلام المؤرخين الذين أرخوا لأعلام الرجال ، فكثيراً ما تراهم يقولون عن الرجل - في معرض

اللهم — إذا كان خطيباً : «إنه كان يخطب من إنشائه» . وهذا يدل على أنه بعد الخطبة قبل إلقائها . — على أن ذلك يدل أيضاً على أن بعض الخطباء كان يخطب من إنشاء غيره ، وهذا شر ما يتلي به الخطباء .

٧ - ومن المخطأء الذين اشتهروا لهذا العهد :

(١) عز الدين بن عبد السلام «٦٦١هـ» وكان خطيباً بالجامع الاموي ، قال عنه تلميذه أبو شامة : «كان أحق الناس بالخطابة والامامة .

(ب) تقي الدين بن بنت الأعز ٦٩٥هـ، ولي خطابة الجامع الأزهر.

(٢) تقي الدين بن دقيق العيد القشيري «٧٠٣هـ» كانت به نزعة خطابية مؤثرة، وهو واعظ عاطفي مثير. وذكر تاج الدين السبكي في طبقاته «أن له ديوان خطيب مفردًا معروفاً».

(٤) جلال الدين القزويني «٧٣٩هـ»، كان خطيب دمشق واشتهر بالخطابة حتى لقب بالخطيب.

وإليك نماذج من خطب هذا العصر :

١ - خطبة لل الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله «الأول». وهى خطبة منبرية خطبها يوم الجمعة غداة مبايعته بالخلافة ومباعدة السلطان الظاهر بيبرس بالسلطنة . و موضوعها وصف جرائم التتار ببغداد و حض الناس على قتالهم ، قال :

، الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنا وظهيرا . وجعل لهم من الدنه سلطانا  
نصيرا . أحمده على السراء والضراء وأستعينه على شكر ما أنسخ من النعيماء .  
وأستنصره على الأعداء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن  
محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتمام .  
وأنهمة الاقتداء ، .. الخ ، ثم قال :

«أيها الناس : اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام . والجهاد مختوم على جميع الأنام . ولا يقوم علم الجهاد إلا بجتماع كلة العباد . ولاسيت الحرم إلا باتهاك المحرم . ولاسفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أهل الإسلام ، حين دخل «التار» دار السلام . واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال . وهتكوا حرم الخلاة والحرير . وأذاقوا من استبقو العذاب الأليم . فارتقت الأصوات بالبكاء والعويل . وعلت الضجيجات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه . وكم من طفل بكى فلم يرسم لبكانه . — فشمروا ساق الاجتياح . في إحياء فرض الجهاد . «فانقووا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم» ، «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» .. اخ

٢ — خطبة زواج كتبها الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي ، في عقد أحد بن النصيبي على بنت عمه ، قال :

«الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شمساً مصونة للبهاء والضياء . وأبدع لشرف تاجه البديع درة مكونة في بحر الحياة . ومنحه عقد عقد زان به جيد الوجود . وجمع الشمس والقمر في سعود الطالع وطالع السعد» .. اخ

ثم قال بعد التحميد والصلة على النبي عليه السلام :

«وبعد ، فإن أولى ما يادر إليه أولو الأحلام . وتنافس فيه كرام الآباء وأبناء الكرام . ما كان لكثر الأمة متضمنا . ولفضيلة العاجل والأجل نافعاً نفعاً يتنا . وهي ستة النكاح التي عظمت بها الملة . وأتني عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة . وخصوصاً ببنات العلم التي أرشدت فضة البطل علىها السلام إليها . وحسن أن يتلى لها : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها» . فإن بنات العلم أجدى بالصحبة وأجدر . وأوفي بالموعد وأوفر . وأص比 إلى العهد وأصبر . سيما من حازت كرم الأوائل والأواخر . وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر . وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر» ...

### ٣ - الكتابة وأشهر الكتاب

نضرت الكتابة الإنسانية وأينت في عصر المماليك ، وامتدت حياتها موقعة كريمة على نسق ما كانت عليه في العصور السالفة ، وشاركت مشاركة جليلة في تأدية حاجة الدولة في التعبير عن شئونها الرسمية وما تتطلبه حاجة دواوينها ، كما أدت حاجة الشعب في شتى شئونه الحيوية ، فصارت بذلك سجلا حافلا وترجمانا صادقاً لحياة مصر لذلك العهد ، ويرجع الفضل في ذلك إلى :

١ - ما اتسمت به الكتابة العربية في سابق أيامها من سماحة وكرم ، ومن كفاية ومقدرة ، ومن مرانة ومرانة ، وطول مزاولة لأداء مثل هذه الحاجة في الدول الإسلامية المتعددة ، فكانت لسان المضاربة في الدولة العباسية وغيرها ، وكانت أداة العلم والأدب فيها .

٢ - ضعف الكتابة التركية - وهي لغة المحاكمين - عن أن تهض بهذه المستولبة الضخمة التي تتطلبها منها الدولة فضلاً عن الشعب .

٣ - أن الكتابة العربية كانت إذ ذلك الوسيلة الطبيعية والأداة الوحيدة التي بها يستطيع الحكام الآعجم أن يتفاهموا مع شعوبهم العربية والإسلامية ومع من حولهم ، ولهذا اتخذت اللغة الفصحى أداة للتعبير في شتى شئون الدولة ، فاتسع لها بذلك مجال العمل والظهور ، وقيض للكتابة حياة راقفة كريمة محبة ، على نحو ما أشرنا .

وقد كانت دواوين الدولة متعددة فنها ما هو للجيش وما هو للأموال ، وغير ذلك من متضيّفات الدولة والمضاربة ، وكان من بينها أيضاً « ديوان الإنشاء » .

وكانت الكتابة تؤدي حاجة هذه الدواوين ، ولكنها كانت فيها عدا ديوان الإنشاء ، بعيدة - في الجملة - عن السمت الأدبي والجزالة العربية قليلة الرونق والتألق . أما في ديوان الإنشاء فكان لها شأن آخر ، إذ بدت ناضرة الإهاب

غضنة العود مزدادة مثمرة كثيرة النتاج . وهي الكتابة الإنسانية التي أشرنا إليها فيما سلف . ومن الخير أن نحدثك قليلاً عن ديوان الإنشاء .

### ديوان الإنشاء :

أنشى هذا الديوان في مصر قبل عصر المماليك بزمن بعيد ، ويرجع ذلك إلى ما قبل الدولة الطولونية . ثم عن ابن طولون ببراسلاته فأنشأ لها ديواناً ، ولما جاتت الدولة الفاطمية عنيته كبيرة بهذا الديوان وكانت لكتابه تدبيج المراسلات الحامة ، وكذلك استمر الديوان على عهد الأيوبيين .

ولما ولى المماليك سلطنة مصر استبقوا ديوان الإنشاء ووسعوا اختصاص رئيسه ، حتى صار في بعض الأيام هو مدير الدولة ومستشار السلطان الخاص وصاحب الرأي الأول في السلطنة بعد السلطان ، وتقديم بذلك على مراتب الأمراء والوزراء ، وسيجيئ « كاتب السر » .

وأبرز اختصاص « كاتب السر » رئاسة الديوان وقراءة الرسائل الواردة إلى السلطان بمجلسه ، وتلقى إشارته للرد عليها وتوقيعه بما يراه فيها . ويكتب الرد بقلبه أو بقلم أحد موظفيه حسب أهمية الرسالة ، ويقوم بتسجيل المراسيم السلطانية وتصديرها ، ويجلس بدار العدل مع السلطان ليقرأ عليه الشكاوى المقدمة إليه ، ويستشيره السلطان في عليا المسائل ، إلى غير ذلك .

وأول من لقب بـ « كاتب السر القاضي فتح الدين بن محى الدين بن عبد الظاهر » ، لقبه بذلك الملك المنصور قلاوون . وقد حظى عنده فتح الدين وزاد اختصاصه وارتفعت منزلته ، ولبس في منصبه زهاء ثلاثين سنة بكفاية وجاه عظيمين ، وتوالى من بعده كثيرون على رئاسة الديوان منهم علاء الدين بن فضل الله العمري ، وعلاء الدين بن الأثير وغيرهما من أفالن الكتاب .

ويتعاون كاتب السر في عمله نوعان من موظفي الديوان هما :

كتاب الدست : وهم ، غالباً ، منشئون يؤلفون الرسائل ، كل منهم حسب اختصاصه وجهته ، ويجلسون عادة مع كاتب السر في مجلس السلطان ، ليعرف كل منهم ما يخصه من الرسائل وما ينبغي لها .

كتاب الدرج : وهم ، غالباً ، خطاطون يوكل إليهم كتابة الرسائل بخطهم  
بعد إنشائها .

وما يجدر ذكره أن كثيراً من العواصم كان فيها ديوان إنشاء على غرار  
ديوان القاهرة ، مثل دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانت تم التقللات بين موظفي  
هذه الدواوين ، على نمط ما نراه اليوم من تنقل الموظفين بين المدن المصرية .  
وقد بقى ديوان الإنشاء قائماً بالقاهرة حتى أغلقه العثمانيون فيها أقفلوا  
من دواوين .

وقد كان لديوان الإنشاء أثر جليل في شذوذهم الأدبي وحضرهم إلى إجادته  
صناعتهم وإتقان الكتابة لاتخاذ ذلك ذريعة للوصول إلى مناصب الديوان . فقد  
اعتاد السلاطين أن يعينوا في مناصبه — وخصوصاً في رياسته — من سمت همة  
وعرف فضله واشتهر عليه وأدبه واستقام خلقه وحسن رأيه من الكتاب والمشترين .

ولهذا سعدت البلاد برقية طبقات من بنها متواالية ، سواء كانوا داخل  
الديوان أم خارجه ، بلغوا — أو كانوا يبلغون — الذروة في جودة الكتابة  
وحسن الأدب ، لا يقلون في ذلك عن سبقهم من كرام الكتاب . وخلفوا  
من ورائهم ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بها ، وتزعموا حركة الأدب والكتابة  
ووضعوا لها القواعد والرسوم التي ظلت متبعة زمناً طويلاً .

ولا يمنع ذلك من أنه قد سلك في عداد كتاب الدواوين كثير من أدعية  
الكتابة والأدب ، وهو لاء لا يخلو منهم عصر دون آخر . وهو لاء وأمثالهم  
لайдخلون لنا في حساب ، ولا نقيم لهم وزنا عند الحديث عن الكتابة والأدب .

## أغراض السكتابة الإنسانية

نقصد بالكتابة الإنسانية ، الكتابة الأدبية التي تخرج المعانى والأفكار في صورة تعبيرية جليلة عاطفية مؤثرة مصوّحة على قواعد أسلوبية فنية ملزمة لها غايات معنوية عليا ، سواء كانت كتابة رسائل ديوانية ، أم كانت نوعا آخر خارج الديوان .

وقد كانت الرسائل الديوانية المثل العليا للإنساء في ذلك العصر . فهذا الكتاب خارج الديوان حذوهها في مناجتها الأسلوبية ، بل وفي بعض أغراضها ، فن هذه الأغراض بعامة .

### ١ — الرسائل الديوانية :

وهي الرسائل « الرسمية » التي يكتبها منشدو الديوان في الأمور العليا للدولة ، وهي متعددة حسب أغراضها فمن أشهرها :

(١) الرسائل الملكية : وهي التي تكتب على لسان السلطان إلى أحد الملوك أو الأمراء في أمر هام ، ردًا على رسالة ، أو ابتداء بها . وهذا النوع أيام رسائل الديوان وأوقيتها تعبيرًا عن السياسة العليا للدولة . فقد تكون عقداً ملودة ، أو تهديداً لغزو ، أو أمراً بزحف ، أو اتهاماً بحملة خصم ، أو إجابة لمعونة ، أو فضأً لمشكلة ، أو شكرًا على هدية ، أو نحو ذلك .

(ب) العهود : والعهد رسالة من خليفة أو سلطان ، إلى من اختاره لولاية منصبه من بعده .

(ج) المبايعات : والمبايعة رسالة على لسان السلطان إلى الخليفة يبأيه فيها بالخلافة ، أو على لسان الخليفة إلى السلطان يبأيه فيها بالسلطنة .

(د) التقاليد : والتقليد هو « أمر تعين » يصدر إلى أحد موظفي الدولة الكبار يسند إليه الوظيفة ، مثل رئيس ديوان الإنساء أو قاضي قضاة الشافعية .

و فيه تصنف عليه أثواب الثناء وبين سبب اختياره ويوضح له اختصاصه ويوصي بالعدل ، وقد يقرأ التقليد في مسجد أو بين جهور ، حسب أهميته .

وما يشبه التقليد : التواقيع والمناشير والمراسيم . ولكنها كلها — غالباً — تصدر إلى الموظفين الأصغر .

(ه) البشارات : والبشارات رسالة طلية شافية تبشر بمحى السلطان من رحلة أو غزو ، أو تبشر بانتصار الجيش أو وفاة النيل أو نحو ذلك . وقد تقرأ البشارات في المساجد كخطبة ، وقد ترسل إلى الآفاق لإعلانها أو قرامتها على المجاهير . هذا وترى في كتاب «السلوك» للقريري ، وكتاب «قهوة الإنشاء» لابن حجة الحموي ، نماذج كثيرة لرسائل ديوانية مختلفة .

### ٢ — الرسائل الإخوانية :

والرسالة الإخوانية يكتبها صديق إلى صديقه في مدح أو شكر أو تهنئة أو تعزية أو شوق أو عتاب أو شكوى أو مداعبة أو استدعاء أو مجنون ، أو اعتذار أو لغز أو سؤال على أو أدب أو نحو ذلك مما يكون بين الأصدقاء . وقد راج هذا الضرب من الكتابة الأدبية في هذا العصر رواجه في العصر العباسي . وكثيراً ما اتخذه بعض الأدباء وسيلة للتسلية وتمرين القراءة دون أن تكون هناك داعية إخوانية إلى ذلك . وقد صرخ بذلك الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي في خطبة ديوان شعره وشره ، وكذلك الأديب الكاتب شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه «حسن التوسل» . وفي الكتابين نماذج عده للإخوانيات .

ومن كتاب الإخوانيات كذلك الأديب البارع الشاعر برهان الدين القيراطي ، والشاعر الفحل جمال الدين بن نباتة المصري ، والأديب المؤرخ صلاح الدين الصدقى ، وللصفدى كتاب مخطوط طريف بدار الكتب المصرية اسمه «الحان السوائح» يحمل فيه مراحله الإخوانية وردود إخوانه عليها .

### ٣ — الاستجازات والإجازات :

معنى بالاستجازة طلب الإجازة وهي رسالة يكتبها أحد الأدباء إلى صديق

له أديب، يطلب إليه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية. ومن أشهر الاستجازات رسالة صلاح الدين الصنفى إلى ابن ناته المصرى — أما الإجازة فى رسالة يردها الأديب على من استجازه، ويصرح له فيها برواية آثاره الأدبية. وقد رد ابن ناته المصرى على الصنفى فكتب له إجازة طريفة.

وكلا النوعين يكتب برسالة إخوانية رقيقة تم عن أدب جم وطيب وفاء وتواضع كبير مع تقارب الثناء.

هذا وهناك نوع آخر من الإجازات وهو الإجازات العلمية. ويوجد منها ثلاثة أنواع تكتب بالأسلوب الأدبى وهي :

(أ) إجازة العراضة : وهى «شهادة» يمنحها أحد الشيوخ لأحد طلابه بعد أن يعرض عليه أحد الكتب العلمية ويتأكد من أنه حفظه جيداً.

(ب) إجازة الفتيا أو التدريس : وهى «شهادة» يمنحها أحد الشيوخ لأحد من طلابه بعد أن يختبره في مادته العلمية ويتأكد من أنه فهمها فهماً جيداً يؤهله للتصدى للإفتاء أو التعليم. وهى أعلى الإجازات الدراسية حينذاك. وكان كثير من الطلاب يحرصون على الإكتشاف منها، وذلك بالتزام عدد كبير من شيوخ العلم، لاستغراق ما عندهم من مسائله ومشاكله. وقد يسافر أحد هؤلاء من بلد إلى آخر أو من مصر إلى سواه للقاء الشيوخ والتعلم منهم واستئنافهم هذه الإجازات.

(ج) إجازة رواية الحديث : وهى إجازة يمنحها أحد شيوخ الحديث وحافظه لأحد من تلاميذه يحيزه فيها برواية ما أخذته عنه من الأحاديث النبوية شفاهها، ويحيزه أيضاً بأن يحيز غيره من يأخذون هذه الأحاديث عنه. وقد راج طلب الحديث في هذا العصر رواجاً عظيماً، وعنى الطلاب بحفظه وأخذه عن حفاظه الثقات، والترحال في سبيله، والغربة للقاء شيوخه. فلم يكن طلب الحديث حينذاك أقل شأناً من طلب الفقه.

#### ٤ - الرسائل والمقالات الوصفية :

وهي التي تتناول أداة أو منظراً أو حدثاً أو رحلة أو حيواناً أو أي شيء.

آخر ، وتصفه وتفصل نعوتها المختلفة بروح أدبية متعدة . وقد امتلأت كتب الأدب بهذا اللون الكتابي البارع ، وهو دليل على حسن امتزاج الأدباء بينهم وعمق إحساسهم بمحنوياتها وحوادثها ودقة ملاحظاتهم عليها وإحاطتهم بأجزائها ومنافعها وآثارها . ومن الكتب التي احتوت كثيراً من هذه الرسائل والمقالات : « ثرات الأوراق » لابن حجة الحموى ، وفيها وصف بعض الرحلات ، « و مجرى السواقي » لابن حجة أيضاً ، وبه وصف لأنواع الخيال ، و « نسيم الصبا » لدر الدين بن حبيب الحلبي ، وبه وصف بلحة أشياء منها السماء والشمس والقمر والسحاب ، ووصف حيوان وطيور وغير ذلك . و « ديوان ابن الوردي » وبه مقالات في وصف بعض الحوادث .

#### ٥ — الموازنات والمفاخرات :

الموازنة أو المفاخرة ، مقالة أو رسالة ، وصفية مزدوجة ، لأنها تصف شيئاً في آن واحد . ولكنها تفرق عن المقالة بعدة عناصر أدبية طريقة تجعلها أدخل منها في باب الأدب ، ومن هذه العناصر عنصر المفاخرة والمحاورة ، وهذا يستتبع تقسيم المقالة إلى مقاطع ، يتكلم في كل مقطع منها أحد الشيدين اللذين تتعقد بينهما الموازنة ، يتكلم عن نفسه فيصف محسنهما ، ويتكلّم عن زميله فيصف مساوئه ، فيرد عليه زميله في مقطع آخر ، وهكذا دواليك ، وكثيراً ما يدخل عنصر آخر ، وهو عنصر المغالطة ، فيقل كل منها محسن زميله « ساوي » ، ومساوئه هو محسن ، وهدف كل منها الظفر بزميله .

والموازنات لون أدبي طازى على هذه الديار من الأندرس فقد راج هناك شم وفد إلى المشرق . ومن أربع موازنات الأدباء المصريين : الموازنات بين السيف والقلم للكاتب والشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة المصري . وفي كتاب « نسيم الصبا » موازنات بين فصول العام . وللجلال السيوطي موازنة بين النار والتراب تجدها في كتابه « الكنز المدفون » ، غير أنها فقدت عنصر الحوار . وللقلقشندي موازنة بين السيف والقلم في كتابه صبح الأعشى ( ج ١٤ )

#### ٦ — القصص :

القصص فن من أهم الفنون الأدبية ، فقيه متعدة وفيه نصيحة ، وفيه تعلم ودراسة لأحوال الحياة وكشف لغواضها .

والأدب العربي — في جملته — فقير في هذا الفن بالقياس إلى النتاج القصصي في الأمم المعاصرة للعرب مثل اليونان والهند ، وإن كان للعرب في ميدانه جهود لا بأس بها ، وبخاصة في عصر بنى العباس — على أن هذا الفن قد نهض نحو ضا مليوسا في عصر النهضة الحدبية ، وسنشير إلى ذلك بتفصيل .

ولم يخل ميدان الأدب في عصر المماليك من أدب القصة . ونحن إذ نحكم على إحدى نواحي الأدب في عصر ، نعتمد على ما بين أيدينا من نصوصها الأدبية أو على ما سجلته كتب الأدب والتاريخ من أخبار هذه النصوص . وكثيراً ما اعثثت يد الصناع بهذه النصوص وأخبارها .

وأغلب الظن أن فن القصص كانت له سوق في عصر المماليك ، وذلك لضرورتها القصوى للشعب ليتلذhi بها في أوقات فراغه ، وليجد فيها مترجماً عن أحواله ، أو متৎساً عن آلامه ، في ذلك العصر الذي أرهقته فيه المظالم .

وإما بين أيدينا من قصص هذا العصر :

(أ) كتاب ألف ليلة وليلة : وهو مشهور ، وبه حكايات تصف أحوال الأمم العربية والإسلامية في عصور عدة ، ومنها مصر في عصر المماليك . وأسلوبه شعري غالباً ، وهو مشئور تتخلله الأشعار ، وبه كثير من الأخيلة البدعة والأساطير والمجده والهزل . وتترجم عباراته بين الجودة والرداة . وهو باختلاف أساليبه وتنوع البيئات التي اختارها لقصصه ، يدو من صنع عصور متعددة .

(ب) كتاب « فاكهة الخلفاء ومحاكمة الظرفاء » : مؤلفه شهاب الدين بن عربشاه المتوفى سنة ٨٥٤ هـ ، وبهذا الكتاب عشر قصص لطيفة رواها الكاتب على لسان الحيوان ، وكشف فيها عن غواصض الفنون وترجمها بين الخير والشر ، وساق فيها النصائح والأمثال ، على نمط كلية ودمة . غير أنه اتبع في كتابتها منهج المقامات الذي يقص فيه رجل عن آخر . فيجمع بذلك بين فن ابن المفع وابن الحريمي . ولذلك جعل القاصن فيه حكيمياً لا مستجددياً . وقد التزم السجع في جميع سطوره ، ومعه كثير من المحسنات البدعية الأخرى ، فكان هذا كلفاً في وجه كتابة القيم .

(ح) كتاب طيف الخيال : مؤلفه ابن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٥٧١٠ .  
وابن دانيال هذا شاعر مداعب لطيف خفيف الروح ، كان يشتغل كحالاً إلى  
جانب أدبه . أما كتابه «طيف الخيال» فيحتوى على ثلاثة تمثيليات أو «بابات»  
على حد قوله .

والتمثيلية الأولى : مسرحية كاملة يطرد فيها الحوار بين تسعة أبطال ،  
أهمهم «طيف الخيال» و«الأمير وصال» . ويدور حول قصة زواج طريفة  
ماجنة ينخدع فيها الزوج — «الأمير وصال» — فيتوب إلى الله ويعزم على  
الحج تكفيراً عن ذنبه وخطاياه .

وهذه التمثيلية محبوكة بالأطراف بارعة لا يكاد ينقصها شيء من فن المسرحية .  
وهي تصف المجتمع المصرى إذذاك فى بعض نواحيه ، وما فيه من عادات  
وتقاليد وزنوات ومكاييد . ويخلل أسلوبها التترى مقطعات وأبيات شعرية  
في مناسباتها . — وهى تدل دلالة قاطعة على أن التأليف المسرحي ثرآ وشرعاً  
قد طاف بأذهان أدباء العربية وأقلامهم منذ زمن بعيد . بل وفن التأثير على الخيال  
«السينيمائي» أيضاً . إذ أن هذه القصة وأمثالها كانت تمثل على شاشات يعرض  
ومضنه بالسمع وتسمى «خيال الظل» . ولها تاريخ قبل أيام ابن دانيال وبعده .  
والتمثيلية الثانية : استعراضات مسرحية سريعة ، يقوم فيها بعض المحواء  
والرياضيين ومرؤضى الوحش — كل منهم فى منظر واحد — بعرض ألعابهم  
أمام المشاهدين ثم استجدائهم . وقد كتبت بعبارات وجيزة مسجوعة ، ويستدل  
من هذه التمثيلية على أنواع الألعاب الشعبية المنتشرة حينذاك .

والتمثيلية الثالثة : مقامة ماجنة مسفة في الجون وقت حوارتها بين عاشق  
وجملة من مشوقيه واحداً بعد آخر . وهى من نوع الأدب المكشوف .

#### ٧ - المقامات :

المقامة قصة وجذرة حوارية لغوية مسجوعة ، كتبت بأسلوب بديعى ،  
وقد راجت هذه المقامات فى عصر بنى العباس رواجاً كبيراً ، وصارت أحد  
فنون الكتابة .

وفي خصر المماليك ظل لها هنا الرواج . ونشط لتدبيجها كثير من الأدباء

ومقامات ذلك العصر — وإن كانت قد التزمت السجع والأسلوب البديعي — أيسر عبارة وأخف تكلماً من المقامات العباسية . كما خرجمت عن منهج الاستجداء ، وتنوعت موضوعاتها وافتتاحاتها ، وذلك يدل — ولو إلى حد — على الشخصية المستقلة المبتكرة التي كان يتمتع بها بعض الأدباء .

وقد طرق الكتاب بها أبواب الغزل والعشق ووصف المخز ومجالس المندامة ، وأبواب الفكاهة والمداعبة والمجون ، وتسجيل الحوادث العامة وبيان خطرها ، ووصف أخلاق الناس وعاداتهم ، وتصوير مناظر البيئة ، وأبواب الشكوى وال مدح ، وأبواب النقد واللغة ، إلى غير ذلك من ألوان .

#### ومن كتاب المقامات :

الشاب الظريف ، وله مقامة عاطفية غزلية رقيقة .

ومنهم زين الدين بن الوردي وله مقامات عدّة ، منها : « صفو الرحيم في وصف الطريق » وهي في وصف حريق دمشق عام ٧٤٠ هـ و « المقامة الصوفية » ، و « صف أحوال الصوفية » . و « المقامة الأنطاكية » ، في وصف مدينة أنطاكية .

ومنهم صفي الدين الحلبي : وله « الرسالة التوسمية » وهي مقامة بين كل لفظين متباورين فيها جناس خطى ولا يفرق بينهما إلا النقط . و « رسالة الدار في محلورات الفار » وهي مقامة دعائية شاكية ، كتبها على لسان داره تشكو حالها إلى أحد الملوك .

ومنهم صلاح الدين الصندي ، وله « دمعة الباكى ولوحة الشاكي » ، وهي مقامة يصف فيها الكاتب رحلته إلى رياض آهلة ، ومعه أحد أصدقائه .

ومنهم شهاب الدين القلقشنسى : وله « الكواكب الدرية في المنافب الدرية » ، وهي مقامة في مدح بدر الدين محمد بن علي بن فضل الله العمزى

صاحب ديوان الإنشاء إذ ذاك — وقد وصف فيها القلقشندي ما ينبغي للمنشئ من الأخلاق والفضائل .

ومنهم جلال الدين السيوطي : وله عشرات المقامات . وقد تقلب السيوطي بمقاماته هذه بين موضوعات شتى ، ونوع في افتتاحاتها بما يناسب موضوعاتها ، ومنها : « المقامة الوردية » وهي مناظرة طريفة ومناقشة حامية بين الورد وغيره من الأزهار وكل منها يدعى أنه ملك الرياحين . و « المقامة الآسيوطية » وهي ملودة بالأستلة النحوية ..

## ٨ — النصائح والحكم :

وقد كتب كثير من أدباء عصر المماليك في النصائح والمواعظ والحكم والأمثال ، ولكنها - في الغالب - كانت تصدر من مدين واحد ، وهو الدين وتبيه الواقع النفسي وبيان محاسن الشريعة . ولعل من أسباب انتشار هذا اللون السكريبي كثرة ماحق بال المسلمين من كوارث ، وما اتصل بأيامهم من حروب مع الصليبيين والتتار ، وما كان يتصرف به بعض الحكام من استبداد وقسوة ، وما كان يتصرف به بعض شيوخ الدين من جرأة وصلابة . ومن كتب في هذا الغرض :

محبي الدين التوسي ، وقد كتب إلى الظاهر بيبرس أكثر من رسالة ينصحه فيها بالتزام العدالة . ومنهم تقى الدين بن تيمية الحراني وله « الرسالة القبرصية » في نحو أربعينات سطر ، كتبها إلى ملك جزيرة قبرص ، ينصحه فيها بحسن معاملة المسلمين من رعاياه ، وينبهه ويتوعده إذا لم يحسن معاملتهم . ومنهم جلال الدين السيوطي وله رسالة بعث بها إلى ملوك التكرور . وكانوا مسلمين . ينصحهم بالتزام أحكام الشريعة الفراء في تصريف رعاياهم . ومنهم تاج الدين بن عطاء الله السكتندي وله كتاب « تاج العروس » وكله عظات ونصائح . ولجلال السيوطي مقالة اسمها : « درر الكلم وغدر الحكم » وهي مكونة من حكم مزدوجة تتكون كل منها من جملتين مسجوعتين . إلى غير ذلك .

## ٩ — التقاريظ والأهاجي :

(ا) التقاريظ : ضرب من الرسائل الإخوانية ، يكتبها بعض الأصدقاء إلى البعض يمدحه ويثنى عليه الثناء المستطاب بمناسبة ما أصدره من نتاج قلمه وفكرة ، سواء كان ديواناً شعرياً أم كتاباً علمياً أو نحوهما ، وذلك كما كان متبعاً في العصر الحديث إلى وقت قريب .

وقد نشط هذا اللون من الكتابة الأدبية في عصر المماليك نشاطاً بالغًا وكان مظهراً جيلاً من مظاهر العلاقات الشخصية . وميدانًا يتنافس فيه كرام الكاتبين .

ومن الطريف المناسب أن تذكر أن الأديب جمال الدين بن نباتة المصري ألف كتابه « بجمع الفرائد » وهو بدمشق ، فأطلع عليه عدد من فضلاء الشام فقرظوه . فجمع ابن نباتة هذه التقاريظ في كتاب مستقل سماه « بجمع المطوق » وترجم فيه لمنشئ هذه التقاريظ وروى شيئاً من مراسلاتة إليهم ومداهمه فيهم . والكتاب مخطوط « بدار الكتب المصرية » .

(ب) الأهاجي : ضرب آخر من الرسائل ولكنها تدور حول هجاء المرسل إليه أو أحد الناس وذكر معایيه .

والآهاجي نادرة الوجود في أدب العصر المملوكي . ولزين الدين بن الوردي أبهى مقدمة في القاضي الرياحي الذي كان قاضي المالكية في حلب ، وأساسه فيها إلى كثير من الناس .

ومن أربع الآهاجي ما كتبه القاضي محى الدين بن عبد الظاهر المنشي البارع الشهور عام ٦٥٣ هـ إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكنائى المعروف بابن التقىب ، يهجو رجلاً كان قد عابه في مجلس ابن التقىب . وهي رسالة قوية الأسلوب نسجها على نمط من رسالاتي ابن زيدون الجدية والمزليه ، إذ حشد فيها كثيراً من الحكم والأمثال والأبيات السائرة والأقوال المشهورة ،

حشدًـاً مناسباً ، حتى بدت الرسالة كأنها من تأليفه هو ، لامن تأليف غيره ، ودللت على سعة اطلاعه وكثرة حفظه وقوته أدبه .

هذا ومن أطراف الأهاجى ما سبق مساق التقارير ، فكان تقريراً في ظاهر أمره ، وهجوا في حقيقته . فبدل بذلك على براعة أدية ودقة ذوقه بالغة .

ومن ذلك ما كتبه بدر الدين بن الدمامي يقرظ ابن ناهض الفقاعي . وكان قد كتب سيرة الملك المؤيد شيخ ، ولم يوفق في كتابتها . وطلب إلى الدمامي أن يقرظها ، فأحرجه بذلك . ثم تخلص الدمامي بأن كتب تقريرًا ممهماً استخدم فيه عنصر الإيهام ، وهو لون بديعي شبيه بالتورىة يجمع اللفظ فيه بين غرضين متضادين هما المدح والهجاء ، ويورى بأحد هما عن الآخر .

## ١٠ - النقد :

ومنه نقد الشعر والنشر ووضع المقاييس وتحرير القواعد النحوية لها . وقد شارك كثير من علماء العصر المملوكي وأدبائه في هذا الباب . غير أنهم نوعان :

(١) أهل النقد البلاغي : وهم الذين عنوا بتحرير القواعد والتعاريف  
عنابة أقرب إلى العلم منها إلى الأدب . ومنهم الخطيب جلال الدين الفزوني  
في كتابه « تلخيص المفتاح » .

(ب) أهل النقد الأدبي : وهم الذين كانوا أحراراً في نقدهم ، ولذوقهم عليهم سلطان حين يتحدثون عن القواعد والتعاريف ، وكان من مهمهم المولازنة بين معنى وآخر وبيان الفروق بينهما . ومن أمثلتهم شهاب الدين الحلبي في كتابه « حسن التوسل » وتقى الدين بن حجة في كتابه « خزانة الأدب » . وأساليبهم أكثر استرسالاً وأقل ملازمة للبديم .

ومن المناسب أن نذكر من بينهم تاج الدين السبكي فإن له صفحات في النقد الذوق في كتابه «طبقات الشافعية». وجمال الدين بن بناة الذي ألف كتاباً «خنز الشعير» نقداً لشعر صلاح الدين الصفدي ويبياناً لسر قاته منه.

## نماذج من الكتابة الإنسانية

### ١ — من الرسائل الملكية :

من رسالة وزدت على لسان هو لا كوما ملك النصارى وفاتح بغداد ، إلى ملك مصر المظفر قطز عام ٦٥٨ هـ يهدده ويدعوه إلى طاعته :

« يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل علّكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال . أنا نحن جند الله في أرضه . خلقنا من سخطه . وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتغذوا بغيركم وأسلوا إلينا أمركم . قبل أن يكتشف الغطاء . فتتدموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد . وظهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليناكم بالهرب وعليها الطلب . فأى أرض تأويكم . وأى طريق تنجيكم . وأى بلاد تحيمكم . فالكم من سيفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . نخليونا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعدتنا كالرمال . فالمحصون لدينا لا يمنع . والعساكر لقتالنا لا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يسمع ». فإنكم أكلتم المحرام . ولا تعفون عند الكلام . وختتم العهود والأيمان . وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالذلة والهوان . فالليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . . . . . الخ »

### ٢ — من التقاليد :

كتب القاضى حبى الدين بن عبد الظاهر على لسان السلطان الملك السعيد بن بيروس تقليداً صادراً إلى الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، يسند إليه وزارته . وكان من قبل ، وزيراً لأبيه الظاهر بيروس .

قال بعد خطبة التقليد التي حمد الله فيها ، يذكر فضل بهاء الدين على الدولة ،

ويشيد بصفاته وشخصيته : « كم لها في الوجود من كرم وذكرامة . وفي الوجوه من وسوم ووسامة . كم أحبت مهجا . وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجا . وكم وسعت أملا وكم تركت نصر الخزائن ضيقا حرجا . وكم استخدمت جيش تهجد في بطن الليل . وجيشه جهاد على ظهور الخيل . وكم أتفقت في وافق في قلب بين الصفوف والخروب . وفي وافق في صفوف المساجد من أصحاب القلوب . كم سهل يسرت ، وسعود كثرت . وكم مخاوف أدبرت حين دبرت . وكم آثار في البلاد والعباد أبتر وأثرت . وكم وافت ورفت ، وكم كفت وكفت . وكم أعفـت وعفـت . وكم بها موازين للأوليات ثقلـت ، وموازين للأعداء خفت . وكم أجرـت من وقوـف . وكم عـرفـت بمـعـرـفـة . وكم بـيـوـت عـبـادـة ، صاحـبـ هـذـهـ الـبـرـكـاتـ هوـ حـمـراـبـاـ .. وـسـمـاءـ جـوـدـ هوـ سـحـابـاـ . وـمـدـيـنـةـ عـلـمـ هوـ بـاـبـاـ .. . . . . الخـ

### ٣ — من البشارات :

وكتب تقي الدين بن جعجة بشارة بوفاة النيل ، وذلك في عام ٨١٩ هـ  
في عهد المؤيد شيخ ، قال منها :

« ونهى لعله ظهور آية النيل المبارك الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة . وأجراه لنا في طرق الرفاه على أجمل عادة . وخلق أصابعه ليزيل الإبهام ، فأعلن المسلمين بالشهادة . وكسر بسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبراً . وأتبغناه بنوروز ، وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسوراً . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرسفها ريقه الحلو فالت بأعطاف غصونها إليه .. وبشبب خيره في الصعيد بالقصب . ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب . فضرب الناصرية واتصل بأم دينار ، وقلنا إنه صبيح بقعة ، لما جاءه وعليه الاحرار . وأطال الله عمر زيادته فتردد الناس على الآثار .. . . . . الخـ

#### ٤ - رسالة إخوانية في الشوق :

كتب الأديب المنشي البارع شهاب الدين محمود الحلبي في إظهار  
الشوق فقال :

« ما ألم طفل قد فها الزمن العين . في بعض اليad . في أرض موحشة  
المسالك . قليلة السالك . قد لمع سرابها . وتوقدت هضابها . وصرخ بومها .  
ونقر ظليمها . وحضر سمومها . وغاب نسمتها . فلما خافت على ولدها من  
الظلماء الملائكة . أجلسته إلى جنب كثيـب هناك . ثم ذهبت في طلب الماء  
للغلام . ثلا يقضى عليه الأولم . فاتهـي بها السير إلى روضة وغدير  
وآثار مطى بوارك . تدل على أن الطريق هناك . فعادت إلى ولدها مسرعة .  
وكل أحصانها إليه عيون متطلعة . فلما شارت الكثـب . رأـت ولدها  
في فم الذـب .

بـأكـثر من حـسـرة وـتلـهـا وـأعـظـم من حـرـقة وـتـوجـها  
وـأـغـزـرـدـمـاًـعـنـدـمـاـقـيلـلـ:ـالـذـىـ كـلـفـتـبـهـأـخـحـىـعـلـىـبـعـدـمـزـمـعـاـ

#### ٥ - من الرسائل والمقالات الوصفية :

وكتب الكاتب النـلـقـ الـبـارـعـ القـاضـىـ عـلـامـ الدـىـنـ عـلـىـ بـنـ عـبـدـ الـظـاهـرـ  
رسالة طـولـيـةـ يـصـفـ فـيـهاـ مـوـقـعـةـ مـرـجـ الصـفـرـ عـامـ ٧٠٢ـ هـ بـيـنـ سـلـطـانـ مـصـرـ  
الـناـصـرـ مـحـمـدـ بـنـ قـلـاوـونـ وـلـيـخـانـ غـازـىـ سـلـطـانـ التـارـ.ـ وـكـانـ النـصـرـ فـيـهاـ حـلـيفـ  
مـصـرـ،ـ فـقـالـ مـنـهـ يـصـفـ اـسـتـعـادـ الجـنـدـ قـبـيلـ الـمـعرـكـةـ:

« هـذـاـ .ـ وـالـسـيـوـفـ قـدـ فـارـقـتـ الـأـخـمـادـ وـأـقـسـمـتـ أـنـهـاـ لـاـ تـقـرـ  
لـاـ فـيـ الرـمـوسـ .ـ وـالـأـسـنـةـ قـدـ أـشـرـعـتـ وـآـلـتـ أـنـهـاـ لـاـ يـرـوـيـ ظـمـوـهاـ لـاـ مـنـ  
دـمـاءـ النـفـوسـ .ـ وـالـسـهـامـ قـدـ التـزـمـتـ أـنـهـاـ لـاـ تـخـذـ كـنـانـهـاـ لـاـ مـنـ النـحـورـ .ـ  
وـلـاـ تـعـوـضـ عـنـ حـنـاياـ الـقـسـىـ لـاـ بـخـنـاياـ الـأـضـالـعـ ،ـ أـوـ لـرـقـيـهـاـ لـاـ تـحـلـ  
لـاـ فـيـ الصـدـورـ .ـ وـالـدـرـوعـ قـدـ لـزـمـتـ الـأـبـطـالـ قـائـمـةـ :ـ لـاـ أـفـارـقـ الـأـبـدـانـ حـتـىـ تـقـلـ

صور الفتح للبين . والجیاد حرم وطه الأرض وقالت لفرسانها : لا أطا  
إلا جثث القتل ورموس الملعدين . فلا ترى إلا بحراً من حديد . ولا تشاهد  
إلا ملح أسنة أو بروق سیوف تصيد الصید . والسلطان قد أرهف ظباء ليسع  
بها في قلوب العدی جمراً . وألى أنه لا يورد سیوفه الطلا يضاً إلا ويصدرها  
حراً . والإسلام كأنه بنیان مرصوص . ونبا النصر على مسامع أهل الإيمان  
مخصوص . والنفوس قد أرخصت في سبيل الله وإن كانت في الأمان غالیة .  
وأرواح المشركين قد أعد لها الدرک الأسفل من النار ، وأرواح المؤمنین  
في جنة عالیة . . . الخ .

٦ — ومنها أيضاً ما كتبه جمال الدين بن نباتة في وصف المصان  
الأشهب ، قال :

« ومن أشہب كأنه طلة نجح . أو قطعة صبح . أو غرة قر يضرب  
بأشعته أدبار جنح . وقد ترتبت منه الأوضاع . وانتقطعت دون غایته حتى  
الأطماع . واعتذر له الریح فصوب أذنيه للسماع . وأصبح لصاحبه نعم  
العون في يوم السبق ، والغوث في يوم القراءع . وكاد يكون من الملائكة فكم  
له من غبار السبق أجنحة مثني وثلاث ورباع . ما خفيت مصلحة إلا قبضها .  
ولأدھمت سحابة نفع إلا قام لها بنفسه ويضىها . وما حدث عن حسن  
إلا رواه . ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه سراه . يقرب الطلب  
بسفارقة عزائمه المسفرة . ويختال في الخل كالنهار فلا جرم أن آتیه مبصرة .  
كُم ثني عنانه كثیراً عن مسابقة الرياح وأعراض . وكم لعب عليه غارم حتى فاز  
منه بالعيش إلا أنه أيض .. . »

٧ — من الموازنات والمفاخرات :

وكتب جمال الدين بن نباتة المصرى أيضاً موازنة شائقة بين السيف والقلم ،  
فكان مما جاء على لسان القلم مخاطباً السيف :

«أتنا خرى وأنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا  
لصلح وأنت للضراب . وأنا للهارة وأنت للخراب . وأنا المعر وأنت  
المدمر . وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد . وأنت العايش وأنا المجدود ، ومن أولى  
من القلم بالتجويد . فما أقيح شبهك . وما أشئ يوماً ترى فيه العيون وجهك .  
أعلى مثل يشق القول . ويرفع الصوت والصول . وأنا ذو اللفظ المكين ،  
وأنت من دخل تحت قوله تعالى : «أو من ينشأ في الخلية وهو في الخصم غير  
مبين» . فقد تحدثت حذك . وطلبت ما لم تبلغ به جهلك . هيهات أنا المنتصب  
لصالح الدول وأنت في العمد طريح . والمتعب في تميدها وأنت غافل مستريح .  
والساهر وقد مهد لك في العمد مضجع . والجالس عن يمين الملك وأنت عن  
يساره فأى الحالتين أرفع . والسعى في تدبیر حال القوم . والمفني لفهمهم  
العمر إذا كان تفعك يوماً أو بعض يوم . فاقطع عنك أسباب المفاخرة .  
واستر أنيايك عند المكاشرة . فما يحسن بالصادم حماورة المقصح . والله يعلم  
المفسد من المصلح . . . . الخ :

٨ — من المقامات :

كتب زين الدين بن الوردي يصف حريق دمشق عام ٧٤٠ هـ من مقاماته  
«صفو الريق في وصف الحريق» ، قال : وحدث غيث بن سحاب عن مدي عن  
بحر قال : بينما أنا ذات ليلة من ستة أربعين . وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات  
قرار ومعين . وإذا بضجيج أهلها قد ملا الآفاق ، والنيران في أسفلها وأعلاها  
قد بلغت التخوم والطباقي . فبادرت إلى الجامع الأموي لامنه ويعنه . فوجدت  
العالم كأنهم قطعة لحم في صحنه . وقد أرسل على أحاسن دمشق شواطئ من نار  
ونحاس . وقربت النار من جامعها حتى كاد يحصل منه اليأس . وثارت النار لأنخذ  
النار مسرعة في كلها . وجاءت حالة الحطلب فتبعت يدا أبي لهبها :

جريدة ساطعة الدواب في الديجى ترى بكل شراهة سطراف

٩ — من التقاريظ :

كتب بدر الدين الدمامي المشهور العالم الأديب ، يقرؤه شمس الدين بن ناهض الفقاعي الذي ألف سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي . وتعرف السيرة بسيرة ابن ناهض . ولكنه لم يوفق في كتابتها وطلب إلى الدمامي تقريره . فكتب هذا التقرير له ثم يوجه به ، يجمع فيه بين فنيين أدبيين هما المدح والذم . وكلا الرجلين من أدباء عصر المؤيد المذكور . قال الدمامي من تقريره :

« وأما منشئ السيرة ، فما زلت أقول وقد رأيت الخطب جليلاً . وما زلت أصف وقد حملت العجز عبئاً ثقيلاً . هو كثير أناس . مزمل من البلاغة بتنوع وأجناسه . يأتى به المدادة كأنه علم . وتروم الأدباء المقايسة به فيقادون ولكن من شدة الألم . له في الأدب عزيمة وشهامة . وفراها تتجه إليه إلى المقامات الراقية فلا تعتريه سآمة . وما زلت بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك المهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ماتهم . طالما أظهر برغم أنوف الحسد في المجالس فضله . وصعبت الأدب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة . وعقل غرائب نكته عما سواه فلله ما أبدع عقله . كدر عيش الحال بما ابتدعه من العجائب ولا ينسكرا لمنه تكدير الصفي . وأكتفى في ميدان البراعة بمحواد فكره الذي حال وهو مكر مفر ، وهكذا يكون المكتفى . أتي في تاريخه بالفاظ لو رأها ابن الآثير لائز . وابن سعيد لتعثر . وابن بسام لا صيب منها بالقارعة فبعس وتولى . أو الحجازي لرمي منها بالداهية التي هدمت ما بناه ونقلت عليه حملاء . . . . إلخ . »

.. ملحوظة : من قرؤ ابن ناهض أيضاً تقريره مبهمأً تقى الدين بن حجة الحوى ومجدد الدين فضل الله بن مكائس . وكلاهما من أدباء عصر المؤيد شيخ الذي

### ١ - ومن النقد الأدبي .

روى تاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧٧ وفي كتابه « طبقات الشافعية »  
قال عن تاج الدين المراكشي :

دخلت عليه مرة وهو ينشد قول ابن تقي :

حتى إذا مالت به سنة الگرى زحرحه شيئاً وكان معانق  
أبعدته عن أضلع تشთاھ کي لا ينام على وساد خافق  
وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد فأضلعي هاك من وساد  
ونم على خفتها هدوءاً كالطفل في هزة المهد

وهو ومن عنده يقولون : إن قول الحكم أجدر بالصواب ، فإنه لا يناسب  
الحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدي — أمعن الله  
بيقائه — في ذلك ، ردًا على ابن تقي :

أبعدته من بعد ما زحرحه ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق  
إن شئت قل : أبعدت عنه أضالعى ليكون فعل المستهams الوامق  
أو قبل فبات على اضطراب جوانحى كالطفل مضطجعا بهد خافق

قلت : إن ابن تقي ، وإن ساء لفظا حيث قال « أبعدته » فقد أحسن معنى  
لأنه وصف أضالعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب  
النوم معه عليها ، فقدم مصلحته على مصلحته ، وترك ما يريد لما يريد . وأبعده  
عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضالعا تشته » ، لاحسن لفظا كما أحسن  
معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشهى  
اضطراب سرير الطفل وهكذا نقص .

فوق النزاع في ذلك . وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين بن فضل الله  
العمرى — رحمه الله — صورة سؤال عن الرجلين : ابن تقي والحكم ، أيهما  
المصيب . — فكتب :

قول ابن تقي عليه مأخذ ، لكنه قول المحب الصادق :

يكفيه في صدق الحبة قوله كي لا ينام على وساد حافق  
ما الحب إلا ما يهدله الحشا ويهد أيسره فواد العاشق

### أساليب الكتابة الإنسانية وخصائصها

قبل الحديث عن أسلوب الكتابة الإنسانية في عصر المالك وبيان خصائصه وميزاته ينبغي أن نعلم جملة حقائق وهي أن الأساليب الأدبية في عصر ما ، رجع ليتها ، تتأثر بمؤثراتها المتعددة ، طبيعية أم دينية ، أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو غير ذلك . وما دام لكل عصر مؤثراته الخاصة فله كذلك أساليبه الأدبية تفرضها هذه المؤثرات على أدبائه بعد أن تصبح أدواتهم بأصابعها ، وبذلك تصبح أساليبهم بما فيها من قواعد ذوقية ، تلبية واستجابة لمؤثرات البيئة . وعلى هذا فليس في مقدور أديب في جيل أن يشذ في جملته عن القواعد الذوقية العامة المرعية في جيله . ولو قدر لأديب أن يشذ في أسلوبه عن رجال حلبهة لا تضح لهم شذوذه ، ولعاش بينهم عيش الغرباء .

وي ينبغي بناء على هذا أننا إذا تعرضنا لوصف الأساليب الأدبية في عصر ما ونقدها وبيان عيوبها ، أن نجعل لمؤثرات البيئة فيه وزنا في مقاييسنا ، وأن لا نخضع لهذه الأساليب لخضاعا تماما لمقاييسنا الحديثة . فإن لكل عصر موازنه ومقاييسه وفقا لما استقر في ذوقه من اتجاهات فنية ولدتها مؤثرات البيئة .

وقد خضعت الأساليب الأدبية في عصر المالك لعاملين كان لهما أثر كبير فيما اتصف به من خصائص وعيوب .

العامل الأول هو طريقة القاضي الفاضل . وهو الكاتب المنشي ، المبتكر ، والشاعر الأديب « عبد الرحيم البisanî » المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، الذي كان كاتبا لآخر الفاطميين ووزيرا لصلاح الدين الأيوبي ورئيسا لديوان الإنشاء ببصر

وقد اشتهر بطريقة في الكتابة عرفت باسمه ، وهي تقوم على التزام السجع وإطالة فقراته واستخدام ألوان البديع كالطباق والمقابلة والتوجيه وحل النثر والشعر والتلبيح والتضمين من القرآن أو الحديث ، والإكثار من التشبيه وأنواع المجاز ، مع العناية بالتورية ، والميل إلى الإطالة ، والتزام المصطلحات الديوانية والألقاب .

وليس طريقة الفاضل بداعاً جديداً فالآداب العربية جافة بألوان البديع منذ القديم . غير أنها أخذت تتباين وتتنوع منذ أوائل عصر بن العباس حتى صارت لها من بعد ، سبادة واسعة وسلطان كبير في القرن الرابع الهجري ، واشتهر من أدبائها ابن العميد وابن عباد ثم الحريري وغيرهم .

ورث القاضي الفاضل عنهم هذه الطريقة وزاد عليها التزام السجع وإطالة الفقرات والعناية بالتورية وغير ذلك ، وراجت طريقة وقبض لها الديوع ، ونهج الكتاب من بعده نهجه ، حتى جاء عصر الماليك . وعصر الماليك في جملته إطراد للعصر الأيوبي وبخاصة في نظمه الإدارية ونظم الدواوين ومنها ديوان الإنشاء وما وضع لكتاباته من رسوم ومصطلحات . فاتبع أدباء العصر المذكور طريقة الفاضل وتعصبو لها ومشوا تحت رايته ، واعتبروا كبارهم زعماء لها ، من أمثال حبي الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب بن فضل الله العمري ، والجمال ابن نباتة المصري ، والتقى بن حجة الحموي ، الذي بنى كثيراً من فصول نقه الأدبي في « خزانة الأدب » على أساس من منهج الفاضل وأبن نباتة في الشعر والكتابة . ومن شذ من الأدباء عن هذا المنهج البديعي عد غريباً ، مثل ابن خلدون المؤرخ فإنه اصطنع الأسلوب المرسل ونوعي في مقدمته على أهل البديع من رجال عصره وعد أسلوبهم غير بلينغ لعدم مطابقته لمقتضى الحال ، ولكنه عاش غريباً بينهم باعترافه على نفسه .

العامل الثاني هو عامل البيئة ، فإن البيئة باختلاف مؤثراتها كانت تدعى إلى هندسة اللفظ وزخرفته ودهانه وتلبيح ألوانه . فقد كان الشعب يعيش

عيشة مرهقة تحت حكم طبقة ظالمة مستبدة غاشمة لا يملك معها من أمر نفسه شيئاً ، وهذا يدعوه إلى التحوي في اللفظ والتميق في الأسلوب بما يت肯فه مع مقتضيات الأحوال ، وأن يظهر في تعبيره شيئاً غير ما يقصد ، وأن يكثر من النكبة والإشارات الحقيقة ونحو ذلك . ولعل بروز التورية والاستخدام والإبهام والتلبيح ونحوها في هذا العصر دليل ساطع على ما نقول . لقد اشتهر المصريون بهذه الألوان وتزعم بعض أدبائها الدعوة إليها مثل ابن باتة المصري وأبن حجة الجموى ، ورجال حلئهما في مصر والشام .

على أنه فضلاً عن ذلك ، كان العصر عصر الخلية والزينة والألوان في كل شيء في المباني وهندستها ، والملابس وزخرفتها ، والرياش وألوانه ، والاحتفالات وتهاويلها . وهذا من أدباء أن ينضح على أساليب الأدباء استجابة لوحى البيئة إلى نفوسهم . وإن لم يقع منا - نحن أهل العصر الحديث - موقع القبول ، وبذا متكلفاً أو غناً .

وبعد فإليك أزهى خصائص الأسلوب الأدبي في عصر المماليك فنها :

١ - الإقليمية : وقد تقصد ياقليمية الأسلوب دلالة على بيته وعصره بأى ضرب من ضروب الدلالة ، وكلما اتسعت دلالته وتعددت ضروبها لمعت إقليمته وميزته عن غيره من أساليب اليهود والأمصار الأخرى .

وقد لمعت إقليمية الأسلوب الأدبي في عصر المماليك حتى صار من البسيط أن تميزه عن غيره . فقد ترددت فيه أسماء البيئة المصرية أو الشامية ، ومحتوياتها ، وسيحل حوادث أهلها في جدهم أو هزطهم ، وعبر عن أحلامهم وآلامهم . وامتلاً بأمثالهم وحكمهم . وأهم من هذا جميعه أنه بدت فيه نزعاتهم الخاصة في تصوير معانיהם ورسم عواطفهم . وأبرز هذه النزعات اصطناع التورية والاستخدام والإبهام والتلبيح والنطيل الأدبي والميل إلى الفكاهة والنكتة اللاذعة .

٢ - شروع الوصف : فقد تجلت النزعة الواصفة في مختلف إنتاج الأدباء ولو لم يكن الوصف هو الموضوع الرئيسي لهذا الإنتاج . تجلت في تصوير

المعانى الجزئية وحسن إخراجها ، ولو كانت في رسالة ديوانية أو نصيحة أو حكمة . وهذا دليل على توثب الخيال الشعري عند الأدباء ، ذلك الخيال الذى تدفعه العاطفة الصادقة وتشيره وتسمو به وتفسح أمامه مجال العمل والابتكار ، فيعمل ويستكر معتمدآ على دعائم عدة ، منها أنواع التشبيه والمجاز ، وإسناد أفعال العاقل إلى غيره ، كما في قصص الحيوانات ومحاورات الأزهار .

٢ - التزام السجع وإطالة فقراته ، مع إطالة الفقرة الثانية عن الأولى ، والثالثة عن الثانية ، وتساوي الأولى والثانية إذ كانت هناك سجعة ثلاثة .

٤ - استعمال أنواع البديع الأخرى وبخاصة الأزدواج والطباقي والمقابلة والتضمين وحل النثر والشعر والتوجيه . وقد استطاع بعض الكتاب أن يستعملوا أنواع البديع بكىاسة دون تكلف يجني على المعانى ، نصف أسلوبهم وصار مقبولا ، وأخفق البعض في ذلك وأنقل كاهل عباراته بها فصارت كلفا في وجهها شوها وأخفى معانها وأسقطها .

٥ - والجناس كان كثيرا منهم يمتنونه ويعتبرونه محسنا لفظياً لامعنويأ ، إلا إذا جاء دون تكلف أو أخرج مخرج التورية . ومنهم ابن باتة وابن حجة . ومن تعصب للجناس وجن به في شعره وثيره صلاح الدين الصفعى حتى إنه ألف فيه كتاباً ولد به شواهد من تأليفه واسمه « جنان الجناس » وقد حمل عليه بعض الأدباء نوعاً عليه جنونه بالجناس .

٦ - براعة الاستهلال . وافتتاح الرسائل بالتحميدات . وافتتاح المقامات بما يناسب موضوعاتها .

٧ - مراعاة مصطلحات ديوان الإنشاء وبخاصة في رسائله ، سواء أكان ذلك في الافتتاح أو الاختتام ، وترتيب عناصر الرسالة . وترديد ألفاظ معينة مثل : يقبل الأرض . الملوك يخدمون بسلام . وكتبه الملوك . - ويكثر ذلك في الإخوانيات . وإدخال بعض الدخيل التركى مثل : أتابك وسنجرق .

٨ - التزام الأدعية والألقاب ، والإكثار منها وتحويل اللقب إلى وزن أفعل عند الرغبة في المبالغة فيه وكذلك زيادة ياء كياء النسب عليه فيقال مثلاً في: **الكريم ، الأكرم أو الكريمي أو الأكرمي** ، — وقد خصصوا لكل صنف من الناس ألقاباً ومنها ما هو عربي مثل : « الديوان العزيز » للخليفة ، و « الجانب الشريف » لولي عهده ، و « المقام العالى » للسلطان . والمجاس العالى للأمير . وكذلك المقر . — ومنها ما هو غير عربي مثل : الأستadar والدوادار . ونشير بهذه المناسبة إلى أن كل رجل كان لابد له من أن يتخذ لنفسه اسماً وكنية ولقباً معاً ، واللقب مضاف دائماً إلى لفظ « الدين » فيقال مثلاً : شهاب الدين أبو الفضل « أحمد »

٩ - الميل إلى الإطالة . وهذه ظاهرة واضحة في الأساليب الأدبية تعتمد على طول الوصف وكثرة الترداد وتفصيل الجزئيات وتنوع الأغراض غير الرئيسية في الرسالة ، إلى غير ذلك . وقد بدت هذه الظاهرة في أساليب المؤلفين أدباء وعلماء معاً حتى تحول كثير من مؤلفاتهم إلى موسوعات جامحة . ومن أفضلها مسالك الأ بصار لابن فضل الله العمري ، ونهاية الأرب التويري وصبح الأعشى للقلقشندى .

ملحوظة : لشهاب الدين بن فضل الله العمري كتاب اسمه « التعريف بالمصطلح الشريف » تكلم فيه عن المصطلحات الديوانية في عصر المماليك وطرق استعمالها موضعاً وأورد نماذج لها كثيرة من إنشائه .

هذا ولديك فيما سجلناه من النصوص نماذج تعينك على فهم خصائص الكتابة . وإليك نماذج أخرى وجيزة :

١ - من رسالة الشهاب محمود الحلبي إلى مقدم سرية كشف . قال في مطلعها يدعو له ، وهو دعاء ملوك بالوصف مع السجعات الحقيقة . والجنسات المقبولة : « لازال أخف في مقاصده من وطأة ضيف . وأخف في مطالبه من زورة طيف . وأسرع في تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى في تطلعه من سلة سيف . حتى يتعجب عدو الدين في الإطلاع على عوارته من أين دهى وكيف »

٢ - ومن رسالة للقلقشندى فى مدح المقر فتح الدين أبي المعالى صاحب دواوين الإنشاء ، ويتجلى فيها الخيال الشعري معتمداً على التشبيهات الضمنية وإسناد الصفات الإنسانية إلى مالا يعقل ، قال :

« فرأيه السيف لا ماصنع الهند . وعقله الصارم لا ما استودع الغمد » .  
وقال منها .

« أفلامه تزري بالصوارم وتهزا بالأسل ، وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل »

وقال : « فنكارمه تغنى عن الإيملاق ، وبواكره بالإسعادة تبادر الغدو بالإشراق ، وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق »  
ونلاحظ في الشجعات الأخيرة طول الثانية عن الأولى ، وطول الثالثة  
عن الثانية

٣ - ومن حكم ابن حبيب الحلبي ومواعظه ، وترى فيها السجع الح悱يف مع الجناس اللطيف ، والتشبيهات ، قال : « التقوى أفضل حلة . والمرءومة أجل خلة . الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطاف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس » .

٤ - ووصف الشهاب بن فضل الله الخنزير فأجاد في استعمال المجاز وإسناد الصفات الإنسانية لما لا يعقل فأكسبه حياة وأجرى فيه روحانا نابضة . قال :  
« سعى الساق بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض منها طينة ختم كانت طابعا لشمسها . ودواه مما يخامر العقول من مسها . وراضاها بالمزاج ولو لاه بمحبت . ولا ينها ب بلاطفته حتى جنحت . وافتض منها بكر الم تعنس . وقدح منها ناراً لو رأها عابدها لازرم ، والعيسوى لقدس » .

٥ - ومن سبع ابن نباتة المصرى ، وجناسه وتوريته قوله واصفا :  
« كتبها الملوك . ودمع الغيث قد رقا ، ووجه الأرض قد راق . وقد دود الأبغضان قد راست أهواه القلوب بالأوراق . وقيان حماها قد ترمت

وَجَذَبَتِ الْقُلُوبُ بِالْأَطْوَاقِ . وَالْوَرْدُ قَدْ أَحْمَرَ خَدَهُ الْوَسِيمُ . وَفَكَتْ أَزْرَارَهُ  
مِنْ أَجْيَادِ الْقَضْبِ أَنَامِلَ النَّسِيمِ . وَخَرَجَتْ أَكْفَهُ مِنْ أَكَامَهُ لَا يَنْذِدُ الْبَيْعَةَ عَلَى  
الْأَزْهَارِ بِالْتَّقْدِيمِ .

وَتَرَى فِي : دَمْعَ الْغَيْثِ وَوَجْهَ الْأَرْضِ وَقَدْوَدَ الْأَغْصَانِ وَأَجْيَادَ الْقَضْبِ  
وَأَنَامِلَ النَّسِيمِ ، مَرَاعَةً نَظِيرٍ وَتَشِيهَاتٍ بَلِيقَةً أَوْ اسْتِعْلَامَاتٍ مَكْنِيَّةً .

وَتَرَى فِي : رَقَّا وَالْأَورَاقِ وَجَذَبَتِ وَأَكَامَهُ ، تَوْرِيَاتٍ لَطِيفَةً .

وَتَرَى فِي كُلَّهُ : رَقًا جَنَاسَ التَّوْرِيَّةِ . بِاعتِبَارِهِ رَقًا يَرْقًا أَوْ رَقًا يَرْقِي .

## أشهر الكتاب

اشتهر في هذا العصر كثير من الأدباء المنشئين من رأسوا دواوين الإنشاء  
أو اشغلوها بالإنشاء فيها أو اشتغلوا بالكتابة خارجها، ومنهم الشاب الظريف  
ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين بن فضل الله العمري، وأخوه  
علامة الدين بن فضل الله العمري . وفتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر،  
وعلام الدين بن الأثير، وأبو الثناء محمود الحلبي، وجمال الدين بن نباتة المصري  
وبرهان الدين القيراطي، وتقى الدين بن حجة الحموي، وناصر الدين بن البارزى،  
وشهاب الدين القلفشندى، وصلاح الدين الصبى وغيرهم من كرام الكاتبين.  
وما منهم إلا من كان شاعراً ومنتجاً في رياض الأدب . ونكتفي بالتعزيز  
بعضهم :

### ١ - القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر :

هو الكاتب الشاعر الأديب المؤلف ولد سنة ٦٢٠ هـ وجمع في ثقافته بين  
الأدب والعلم ونفع في الكتابة ونظم الشعر، وتزعم حركة الأدب في زمانه ،  
ونجح فيه نهج القاضي الفاضل . وخدم في ديوان الإنشاء بمصر نحو عشرين  
سنة حتى كان رئيساً له ، وعظم جاهه حتى صار ينملقه الكتاب ويقترب إليه  
الشعراء . وكتب للظاهر بيبرس « المنصور قلاوون ، والأشraf خليل بن

فلا دون . ووضع لدواوينهم كثيراً من المصطلحات وألقاب التفحيم والأدعية .  
وله أشعار ورسائل مبعثرة في كتب الأدب . ومن مؤلفاته كتاب «الروضة  
البيهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة» ، في التاريخ والتقويم والأدب ، وهو  
سفر قيم ولكنه مفقود . وقد استعان به المقريزي في تأليف خططه المشهورة  
ونقل عنه كثيراً . وقد توفي عام ٦٩٢ هـ وله أسرة جليلة الشأن خدم أفرادها الدولة  
خدمات جلية ، ومنهم ابنه القاضي فتح الدين رئيس ديوان الإنشاء ببصر ، وأول  
من لقب بكاتب السر .

### ٢ - القاضي شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي :

هو الأديب العلامة الشاعر المنشي البارع المشار إليه في عصره . ولد  
عام ٦٤٤ هـ ودرس علوم الدين وأقبل على دراسة العربية وفنونها وتتلمذ بجمال  
الدين بن مالك التحوي وما زال حتى امتاز على أقرانه واستفاضت شهرته  
الأدبية فقربه للسلطرين ورفعوا منزلته واستكتبوا في ديوان الإنشاء بدمشق  
 وبالقاهرة . وقيل ولـ رئـاسـة الـديـوـان بـدمـشـق نـحو ثـمـانـى سـنـوات . وـتـوفـى  
عام ٧٢٥ هـ .

وجرى في إنشائه على طريقة الفاضل وابن عبد الظاهر ، وكذلك كان في  
شعره . إلا أن أسلوبه البديعى حين مقبول لا ينحوه تكلف ولا تتفله قيود  
الصناعة . وهو كاتب ذو ذوق خاص يكره السجعات الطويلة والجناسات  
المتكلفة ، وهو من قنوا لصناعة الكتابة ووضعوا لها مقاييسها ، ويبدو ذلك  
جلياً في كتابه «حسن التوصل إلى صناعة الترسل» . وهو متأثر في ذلك بمن قبله  
من البلاغيين الأدباء ولا سيما تاج الدين بن الأنثير صاحب كتاب «المثل السائر» .  
غير أنه بالرغم من ذلك كان ذواقة وذا آراء خاصة معاللة في مناهج الإنشاء . ولـه  
رسائل كثيرة وأشعار متفرقة طريفة في المدح والغزل والوصف والمديح النبوى  
ووصف الحروب والفخر والمحاسنة ، والإخوانيات وغيرها .

### ٣ - القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري :

هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب رئيس أهل الأدب

فِي زَمَانَهُ . وَلَدَ بِدمَشْقَ عَامَ ٧٠٠ هـ وَتَفَقَّهَ وَدَرَسَ عِلْمَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى خَيْرِ أَسَاذَةِ جِيلِهِ ، وَأَقْبَلَ بِجَمِيعِ نَفْسِهِ عَلَى نَظَمِ الشِّعْرِ الرَّقِيقِ وَكِتَابَةِ الرِّسَالَاتِ الْجَيْدَةِ حَتَّى اسْتَخْدَمَهُ السَّلَاطِينُ لِعَهْدِهِ فِي دُوَوِينِ إِنْشَائِهِمْ وَتَنَقَّلَ بَيْنَ دِمْشَقَ وَالْقَاهِرَةِ . وَزَادَ نَفْوَهُ حَتَّى صَارَ مَدِيرَ الْمُلْكَةِ وَمُشَيرَ السَّلَطَانِ النَّاصِرِ بْنِ قَلَوْنَ . وَعَلَانِيمُهُ فِي الْكِتَابَةِ الْدِيوَانِيَّةِ حَتَّى صَارَ قَدوَةً لِلكِتَابِ ، وَوُضِعَ لَهُ كَثِيرًا مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ وَنَمَادِيجُ الْمَرَاسِلَاتِ . فَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا دُسْتُورًا لِالْدِيوَانِ الْإِنْشَاءِ بِمَصْرٍ وَغَيْرِهَا أَتَى زَمَانًا طَوِيلًا . وَجَرِيَ فِي إِنْشَائِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْفَاضِلِيَّةِ أَيْضًا مَعَ خَلَافَاتِ ذُوقَةِ عَدَةٍ . وَيُفَضِّلُهُ بَعْضُ الْمُؤْرِخِينَ عَلَى الْقَاضِيِّ الْفَاضِلِ . وَكَانَ شَهَابُ الدِّينِ سَخِيُّ الْبَدْ كَرِيمُ الْمَجْلِسِ يَنْفَقُ عَنْ سَعَةِ كَثِيرٍ بِالْبَرِّ بِشِعْرِهِ زَمَانَهُ وَأَدْبَارِهِ ، وَعِنْ وَفَدِهِ عَلَيْهِ وَمَدْحَهُ شَاعِرُ مَصْرٍ فِي زَمَانَهُ جَمَالُ الدِّينِ بْنُ نَيَّاتَهُ . وَانْفَرَدَ هُوَ وَأَسْرَتَهُ — وَمِنْهَا أَخُوهُ عَلَاءُ الدِّينِ — بِدُوَوِينِ الْإِنْشَاءِ فِي مَصْرٍ وَالشَّامِ زَمَانًا ، حَتَّى كَانُوا فِي الْوَاقِعِ وَزَرَاءِ الدُّولَةِ بِلِ حَكَامُهَا . وَاسْتَمْرَرَ ذَلِكُ فِي أَسْرَتِهِمَا زَمَانًا طَوِيلًا . وَتَوَفَّ شَهَابُ الدِّينِ عَامَ ٧٤٩ هـ .

وَقَدْ أَلْفَ كَثِيرًا مِنَ الْكِتَبِ الْمُتَعَدِّدَةِ مِنْهَا : مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ فِي عَشْرِينِ مجلَدًا . وَهُوَ مُوسَوِّعَةٌ جَامِعَةٌ ضَخِيمَةٌ فِي التَّقْوِيمِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَدْبَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِلْمَ . وَمِنْهَا التَّعْرِيفُ بِالْمَصْطَلِحِ الشَّرِيفِ وَهُوَ دُسْتُورُ الْمَصْطَلَحَاتِ لِالْدِيوَانِ الْإِنْشَاءِ . وَفَوَاضِلُ الْسَّمَرِ فِي فَضَائِلِ آلِ عَمْرٍ فِي أَرْبَعِ مجلَدَاتٍ . وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ . وَنَظَمَ كَثِيرًا جَدًّا مِنَ الشِّعْرِ وَمَقْطَعَاتِهِ وَأَرَاجِيزِهِ . وَأَنْشَأَ مِنَاتٍ مِنَ الْمَرَاسِلَاتِ الْدِيوَانِيَّةِ ، وَكُلُّ ذَلِكُ مُبَعِّثٌ مُتَفَرِّقٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَجْمِعُهُ وَيَهْتَمُ بِنَشْرِهِ خَدْمَةً لِلْوَطَنِ وَالْأَدْبَرِ وَالتَّارِيخِ .

#### ٤ — شَهَابُ الدِّينِ الْقَلْقَشِنِيُّ :

هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَلَى . وَلَدَ بِقَلْقَشِنَةِ مِنْ قَرَى قَلْيُوبِ بِمَصْرِ عَامَ ٥٧٥٦ هـ . وَتَلَقَّ الْعِلْمَ الْعَرَبِيَّةَ وَالشَّرِعِيَّةَ بِالجَامِعِ الْأَزْهَرِ . وَعُرِفَ بِالذَّكَرِ وَالْجَدِيدِ فِي التَّحْصِيلِ ، وَشَغَفَ بِالْكِتَابَةِ وَنَسَخَ فِيهَا وَعَدَهَا أَشْرَفُ الصَّنَاعَاتِ . وَوُظِفَ فِي دِيوَانِ الْإِنْشَاءِ بِمَصْرِ عَامَ ٧٩١ هـ وَلِبَثَ بِهِ زَمَانًا فِي عَهْدِ بِرْ قَوْقَ وَابْنِهِ فَرجَ .

وصار من أبرز كتابه . فكتب الرسائل الملكية والتوصيات وغير ذلك .  
وأتصل بكثير من رؤساء الدولة ، ومات في القاهرة عام ٨٢١ .

ونهج في كتابته الأدبية منهج الفاضل وابن عبد الظاهر وابن فضل الله وابن  
نباتة ، غير أنه كان أكثر تكالفاً والتزاماً وألف كتابه الشهير « صبح الأعشى »  
فبند فيه الأسلوب الأدبي ، وترسل دون قيود . وكتابه المذكور يقع في أكثر  
من عشرين مجلداً وهو مفخرة من مفاخر التأليف المصري . وقد تحدث فيه  
عن صناعة الكتابة في دواوين الإنماء وذكر تاريخها ورسومها وخطوطها  
ونمادجها وما ينبع عن لها ، وذلك في كثير من الأمم الإسلامية ، وهو عاشر  
بالنصوص الأدبية النادرة . وقد اعتمد في تأليفه على كتاب « التعريف »  
لابن فضل الله ، وكتاب « تتفيف التعريف » للقرن التقوى بن ناظر الجيش ،  
وكلاهما في صناعة الإنماء . ولكن صبح الأعشى شاهما في هذا المضمار  
بأشواط واسعة جداً .

وله مؤلفات أخرى منها : « ضوء الصبح المسفر » وهو مختصر صبح الأعشى .  
و« نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » . و« قلائد الجمان في التعريف بقبائل  
عرب الزمان » . و« حلية الفضل وزينة الكرم » وهي موازنة بين السيف والقلم .

#### ٥ - تقى الدين بن حجة المحوى :

هو الكاتب القيدير والشاعر الكبير والناقد الذواقة . ولد في حماة عام ٧٦٧ هـ  
وطلب العلم في بلده وطالع كتب الأدب وأولع بالنظم والنشر ومارسهما حتى برع  
فيهما وعد من الأعلام ، وقال عنه ابن حجر العسقلاني إنه أديب عصره .  
واشتغل منشأً في دواوين الإنماء ببلاد الشام وحسن اتصال بالملك المؤيد شيخ  
قبل سلطنته ، فلما صار سلطاناً على مصر عام ٨١٦ هـ استقدم إليه ابن حجة  
وجعله منشأً في ديوان القاهرة فاشتغل مع صديقه ناصر الدين بن البارزى  
الذى كان رئيساً لديوان الإنماء حينذاك . ولبث بالقاهرة زمناً طويلاً حتى  
ذهبت دولة المؤيد فعاد إلى بلده حماة وتوفي بها عام ٨٣٧ هـ .

وابن حجة أديب مكثار سواه أكان في شعره أم ثره أو مؤلفاته ، وينبع  
في أسلوبه الأدبي منهج الفاضل وابن بناة ، وهو مفتون بابن بناة وأدبه إلى  
حد بعيد ويعتبره زعيم جيله في ميدان الأدب ، وبخاصة في باب التورية  
والاستخدام . وكان ابن حجة حركة دائمة متجدة ، أنشأ الرسائل الديوانية ،  
والإخوانية والمقامات والمقالات الأدبية . وله أشعار كثيرة في أغراض كثيرة  
كمدح والوصف والتشوّق إلى بلده حماة ، وله كتب أدبية عدّة منها خزانة  
الأدب وقد شرح فيها بدعيته ووازن بينها وبين بدعيّة صفي الدين الحلبي  
وعز الدين الموصلي ، وبين تفوقها عليهما . وامتلاك كتابه بالكلام عن الآلوان  
البلاغية وأصاغ البديع وهو من المتعصبين له . ويعتبر كتابه هذا أبرز كتب  
النقد الأدبي والبلاغي في عصر المماليك وعباراته فيه سلسلة هيئة غير مسجوعة  
ولا مقيدة بالبديع ، ونقداته في كثير من الأحيان ثاقبة صائبة . وقد جمع كتابه  
هذا بين أطرا فأدبية وتاريخية نادرة ، وبه نصوص أدبية كثيرة لا توجد  
في سواه .

ومن كتبه أيضاً : ثمرات الأوراق وهو قصص ومحاضرات ومقالات  
أدبية قيمة — ومنها : كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، تكلم فيه  
عن هذين النوعين وساق لها الشواهد الكثيرة — ومنها تأهيل الغريب وهو  
مجموعه ضخمة من الشعر المختار في فنون أدبية عدّة ، وبه نصوص نادرة ،  
وأحق به بعض المختارات النثرية ، ويعتبر أضخم كتب المختارات في ذلك  
العصر — ولا يزال هذا الكتاب القيم مخطوطاً .

### الكتاب العلية

نعني بها كتابة المؤلفات غير الأدبية ، مثل كتب الفقه والحديث والأصول  
والمنطق والتاريخ وغير ذلك ، مما أشرنا إليه عند الحديث عن الحركة العلية .  
والكتاب العلية تهم بذكر الحقائق والعلوم العلية وصواب عرضها  
على القاريء ل تستقر في ذهنه على نسق خاص : ولذا لا تلقى بالا إلى الإطار

اللفظى والتعبيرى الذى تزفها فيه ، ولا تكترث بجمال الإخراج ، ولهذا لا ترتج  
لديها بضائع البديع ولا سلع التشيه والمجاز ولا طرائف المبالغات والتهاويل ،  
بل لأن هذه تفسد ما تعرضه من حقائق ومعلومات ، وتشغل بالقارئ عن  
أهدافها الأصلية .

وللأساليب العلية تاريخ حافل طويلاً ، ونكتفى هنا بذكر خصائصها  
وميزاتها العامة في عصر المماليك على سبيل الملاحظات فن ذلك أنه :

١ - يغلب على الأساليب العلية ، الترسل وعدم التقييد بقيود البديع  
إلا ما سمح عرضا دون تكلف . كذلك يغلب عليها الوضوح والسهولة .  
والثالث بعضها بلوته من العافية لفظاً وعبارة ، وتزداد هذه الظاهرة كلما سرنا  
إلى أواخر العصر .

٢ - وعلم التاريخ ، يعد في كثير من مظاهره فنا من فنون الأدب . ولهذا  
بدت هناف كتبه النزعات الأدبية أكثر من بدوها في كتب أخرى . بل تتراءى  
لك فيها بين الفينة والفنية العبارات الأدبية بما فيها من زخارف بدعيه وبخاصة  
السجع والجناس والطباقي . ويكثر هذا عند كتابة تراجم الأعلام . ترى هذا  
واخحاً في « الدرر الكامنة » لابن حجر العسقلاني . و « الضوء اللامع » للسخاوي  
و « حسن المحاضرة » لسيوطى . ولكن الأسلوب الغالب في كتب التاريخ ،  
الأسلوب المرسل غير المقيد . وهي إلى هذا أكثر التبادل بالعامية من غيرها  
من المؤلفات .

غير أنه يحدُّر بنا أن نشير إلى كتاب « عجائب المقدور في نوائب تيمور »  
لشہاب الدین بن عربشاه . وهو في تاريخ تيمور لتنك التترى وحروبه ودولته .  
وكله مسجوع بتتكلف ، محسوس بألوان البديع دون ضرورة ، ملء بالبالغات ،  
ولهذا ضلت فيه معالم التاريخ .

٣ - ويغلب عليها نزعة الجمجمة وحشد المعلومات وذكر الآراء والروايات  
أو شرح المتون والختصرات . أو اختصار الكتب والشرح . ومن الأمثلة :

كتاب المجموع للنورى فهو شرح لكتاب «المذهب» للشيرازى فى فقه الشافعية ، وفيه جمع لأراء أهل المذهب . وكتاب «فتح البارى» لابن حجر العسقلانى وهو مجلدات كثيرة فى شرح البخارى . وتلخيص المفتاح «للجلال الفزويني» ، وهو تلخيص مفتاح السكاكى فى علوم البلاغة .

٤ - وفيما عدا المختصرات ترى ميلاً شديداً إلى الإطالة ، حتى تحولت بعض المؤلفات إلى موسوعات جامعة أو دواوين معارف ، ترى ذلك واضحاً فى النجوم الظاهرة وسلوك المقريزى وبدائع ابن لياس والضوء اللامع للسعادوى وغيرها من كتب التاريخ . وفي كتاب المجموع للنورى ، والتكميلة للتقى السبكى ، والكافية لابن الرفة وهو عشرون مجلداً - وكلها فى فقه الشافعية . وفي كتاب «فتح البارى» لابن حجر ، و«عدمة القارى» للبدر العينى ، و«إرشاد السارى» للقطسطانى ، وكل منها فى مجلدات عدة ، وهى فى شرح البخارى - وهلم جرا  
وإليك نموذجين مختلفين .

١ - قال المقريزى في خططه يصف قصر بكتمر الساق :

«فليا تمت عمارة سكنه الأمير بكتمر الساق . وكان له في اصطبله هذا مائة سطبل نحاس ملائمة سائيس كل سائيس على ستة أرؤس خيل سوى ما كان له في الحشارات والنواحي من الخيول . وكان من المغرب يغلق بباب اصطبله فلا يصير لأحد به حس ، ولما تزوج أنوئك بن السلطان الملك الناصر محمد<sup>٦</sup> بن قلاوون بابتهالأمير بكتمر الساق في سنة ٧٣٢ هـ خرج شوارها من هذا القصر . وكان خلدة المحالين ثمانمائة حمال . المساند الزركش على أربعين حمالاً عدتها عشر مساند ، والمدورات ستة عشر حمالاً ، والكراسي اثنا عشر حمالاً ، الخ .

٢ - قال السيوطي في حسن المحاضرة عن شيخه الشمنى :

«قدوة عين الزمان وإنسانها . وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفريسانها . وشجرة المعارف التي طلب أصلها فزكت فروعها وأعصابها .

ورياض الأدب التي فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها . إنأخذ في التفسير كل عنده الكشاف واختنق . أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مزيل المخفا . أو الفقه عد للعهان شقيقا . أو التحو كان للخليل رفيقا الخ .

## ٤ - الشعر وأشهر الشعراء

### مقدمة :

اتجه النشاط في عصر المماليك إلى إحياء العلوم أكثر من اتجاهه إلى إحياء الآداب ، وذلك لحاجة العصر إلى العلم قبل الأدب ، ولأن دواعي الاستغلال بالعلم كانت كثيرة على نحو ما فصلنا ، وأول ما يصاب من مظاهر الأدب ، الشعر لأنه أدقها وأكثرها إحساساً وتاثراً .

إذن انصرفت العناية عن الشعر والاستماع إليه والإئتاب عليه . فيها هو ذلك الشعب — وهو البيئة التي نبت منها الشعراء — جاهل غامض العاطفة ، غلبت عليه ع Amitie ، وشغلته السعي إلى الرزق ، وهذا هي ذى حياته ملأى بالحيرة والاضطراب والحوادث العنيفة المفاجئة المتالية . فلا معين على قول الشعر أو ساعده . وهام أولاء ، ملوكه وأمراؤه جند والجنديّة أقرب إلى العمل منها إلى القول . فلا تجد الروح الأدبية سبيلها معبدة مذلة إلى نفوس أهلها . وهم أعمام عن العربية ، فليسوا إذن على استعداد فطري للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم ، وتوجيه الدعوة إليهم ليكرروا بين يديهم ما سبق لهم تذكراته في عصور منصرمة ، من تصاوير ملقة ، وتهاويل موهوم ، وعواطف مفتولة ، ومعانٍ يختربها الوهم والخيال . وليس من ورائهم جدوى ولا طائل عمل . ولأنهم لا يقدرون حق قدره ، ما يورده الشعراء من مجازات طريفة واستعارات وتشبيهات رائعة ، ومعانٍ مولدة مبتكرة . فكل هذا يفهمه العربي العريق الملم بأسرار اللغة وطرق تراكيبها ، فيهتز للمعنى الراهن يساق في المفظ الجزل .

إذن لم يجد الشعراء مجال القول الفشيح ، ولا بدر المال ولا صرر الدنانيير ولا العيش الناعم الرغد ، مما ألهه أسلافهم في غابر الأيام .

وإليك ابن نباتة المصري ، أمير الشعراء في عصره ، أخذ يذرع الأرض  
من مصر إلى الشام طلباً للرزق شاكباً باكيماً بؤسه وشظف عيشه ، قال :

لا عار في أدبي إن لم يل رتبنا      وإنما العار في دهرى وفي بلدى  
هذا كلامي وهذا حظى فيها عجباً      من لثوة لفظ وافتقار يد

ويبدو أن عدداً من شعراء ذلك العصر لم يستقبلوا الأمر بالخذر الواجب ،  
فلم يعنوا بفنون أخرى عبر الشعر ينبعون فيها ويعيشون منها ويرتزقون  
من ورائها ، فساد طالع بعضهم كابن نباتة ، وأضطر البعض إلى الاحتراف بحرف  
دنيا سداً للحاجة وحفظاً للرمق وستراً للحياة . وحقاً منهم من تخرج في الفقه  
فذلف إلى القضاء كابن دقيق العيد وابن حجر العسقلاني ، ومنهم من اصططع  
الكتابة فسلك في دواوين الإنسا ، كابن حجة والقلقشندى . ولكن منهم أيضاً من  
احترف المجزارة كأبي الحسين الجزار ، والوراقه كسراج الدين الوراق ، وصناعة  
الكمحل كابن دانبال الموصلى ، والشهر على الحمامات كنصر الدين الحمami .

والطريف أن من الصنف الأخير من اتخذ من صناعته منبعاً للحكمة الشعرية  
أو الفكاهة أو الفخر . فقد أنشد أبو الحسين الجزار قوله :

كيف لا أشكر المجزارة ما عشت حفاظاً وأرفض الآدابا  
وبها صارت الكلاب ترجيـنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا  
.

ويقول أيضاً :

لا تعنى بصنعة القصاب      في أذكي من عبر الآداب  
كان فضلي على الكلاب فذ صر      ت أديأ رجوت فضل الكلاب

وكان ضغيناً على إبالة ذلك الميل الذى بدا من الشعب والماليك إلى الرجل  
وحب سماعه وتشجيع نظميه ، لأنه ، وهو الشعر العامى ، أقرب إلى لسانهم  
وأدلى إلى فهمهم من الشعر الفصيح الجزل ، فراج وتفتح سوقه . ومن هذا وذاك  
ترى أن الشعر لم تقيض له من وسائل التشجيع والإنهاض ما قيض للكتابة .

ومن ثم هانت على كثير من الشعراء صناعة الشعر ، فرك أسلوبه وضاقت أغراضه وتفاهت معانيه . وأقبل بعضهم على نظم الرجل ، أو الاكتفاء بالمقطوعات والتواشيح السهلة . وسولت هذه الحالة للكثير من المنشاعرين والعوام أن يندسوا بين أكابر الشعراء ، ولذلك كثُر السخيف من الشعر فكان كافاً في وجه الجيد منه .

تداءيت إذن عوامل الانحطاط على الشعراء ، فلهم العذر إذا هم لم يتمموا بصناعتهم أو يجودوا إنتاجهم . وما يفعلون أمام ظروف قاهرة لم يجدوا معها بدأً من أن ينظموا الشعر أحياناً لا استجابة حاجة تقسيمة أو تصويراً لشعور عام أو دفعاً إلى هدف نبيل ، بل تبريناً للقريحة فحسب ؟ ... وهذا هو زين الدين بن الوردي أحد الشعراء الجيدين يقول في مقدمة ديوانه .

« وقد يقف الناظر في جموعي هذا ، على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعتردفه وقده ، وشكوى عشقه وصده ، ودم الشيء وحده ، ومدح الشخص لرفده ، وجزر القول ومده . فيظن لذلك بي الظنو غافلاً عن قوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . وإن إنما قلت ذلك على وجده امتحان القرىحة » .

#### عوامل النشاط :

ولكن مع هذا ، إذا تصفحت جموع ما خلفه شعراء العصر ، يروتك من بينه كثيراً جيد جزل العبارة مليح الإشارة جديد المعنى مبتكر التعبير دقيق الدلالة على العاطفة ، صادق التصوير لما في الضمير ، يتوثب فيه نشاط «شعراء توثباً» .

ونرى أن العصر لم يخل من أسباب النشاط ، ومن ذلك :

١ - الفنية الشاعرة : ونعني بها مواهب الشعراء الفطرية التي تدفعهم إلى نظم الشعر ، والتي تكمن في نفوسيهم كون العطر في الزهر . وقد تجردت في هذا العصر من الاتصال بالرؤساء والحكام ومن الغايات الشخصية كحب المال

والجاه . لذلك اندرقت حرة طلقة تعبير بصدق عن أحاسيس أهلها ، وتسجل حوادث العصر ، وتنقدموا اطن الصحف في المجتمع ، وكأنها أصبحت هادفة إلى غاية ، وساعية إلى نهاية . — وقد ظهرت روح النقد الاجتماعي في هذا العصر ظهوراً جلياً لم تظهره في الشعر من قبل . وأقبل الشعراء على تسجيل حوادث عصرهم بدافع فطري ، كما وصفوا أحواهم الشخصية و مجالس مجنونهم أو شكوا حرمانهم و شظف عيشهم بدافع نفسي . ولهذا كان شعرهم أقرب إلى الصدق ، وأدلى إلى التعبير عن الحق .

٢ — العلاقات الشخصية : ونعني بها علاقات المودة والصداقه بين الأنداد .  
فإن كانوا من الشعراء اخذوا هذه العلاقات وسيلة إلى قرض الشعر في الإخوانيات . وقد انعقدت رابطة المودة بين كثير من أدباء العصر ، ففتحت أمامهم أبواباً مختلفة وهبنت لهم أغراضاً متعددة ، ومنها التهنئة والتعزية ، أو التشوّق والحنين أو تبادل الملح والعتاب ، أو الاستدعاء والاستهداه أو الشكر والشكوى . هذا إلى المطارحات والمناقضات الشعرية ، والماكبات ، أو الملاغزة والمحاجة .

ومن ذلك ما كان بين أبي الحسين الجزار والسراج الوراق . فكثيراً ما كانوا يتطارحان الشعر : وما كان بين ابن حجر العسقلاني والبدر العيني اللذين تبادلاً الفسحة والторبة ، وبين صفي الدين الحلبي وجال الدين بن نباتة اللذين تقارضاً الثناء . وبين الناصر بن البارزى وتقى الدين بدر حجة ، والأول دفع الثاني إلى نظم بديعيته .

٣ — المنافسة الأدبية : وتذكيرها الفنية الشاعرة أيضاً ، والغيرة والرغبة في الظهور ، وحب السبق ، وقطع الفراغ في الكسب الأدبي . وقد حمى وطيس هذه المنافسة بين شعراء عصر المماليك ، حتى دفعهم ذلك إلى المطارحات والمناقضات الشعرية ، ودفعهم إلى نظم اللغز أو جوابه . بل دفعهم أحياً إلى الملاحة وتبادل الأهاجى . وقد وقع ذلك بين شعراء مصر والشام ، أو بين بعض أحد الشعراء والآخر .

وقد وقع بين ابن بناة والصفدي من المنافسة ما اشتهر خبره . وكان الصفدي يسطو على بعض الجديد من شعر ابن بناة . فإذا نظم ابن بناة أبياتاً تلقها الصفدي وغيره في بعض لفظها أو معناها ونظمها لنفسه ، وبسبب ذلك تبادل الاثنين المجادل ، ثم ألف ابن بناة كتابه « خبر الشعير » الذي أشرنا إليه وبين فيه سرقات الصفدي .

وروى ابن حجر في الدرر : أن حسن بن محمد الأصفوني الشاعر المتوفى بعد سنة ٧٢٠هـ ، كانت ينته وين معاصره نبيه الدين عبد المنعم ، محاورات ومراجعات حتى إن أهل عصرهما يشبهونهما بالجبار والوراق .

٤ - الولوع بالبديع : كان هذا العصر - على نحو ماينا - عصر الولوع بالبديع حتى إنه أصبح هو البلاغة في نظر الأدباء . فكان له أثره البالغ في إذكاء الروح الشعرية والمنافسة الأدبية معاً ، إذ كان هم كثير من الشعراء أن يقع خاطرهم على لفظ أو تركيب ينبعق منه معنى جديد ، مع المجانسة أو المطابقة أو المقابلة أو التوربة أو نحو ذلك . ولهذا راج نظم البيتين والثلاثة والمقطوعة ، التي تتضمن أحد المعانى المتكررة العابرة الجزئية ، والتي تحتوى على ضرب أو أكثر من ضروب البديع . وهذا ، وإن كان لوناً من ألوان الفكر أو النعيين ، كان فيه صارف عن الفكرة العامة المكتملة التي تحتاج إلى تفصيل ، وعن الفكرة الهدافة النبيلة التي تشير إلى غاية . ومهما يكن من شيء فقد كان هذا العامل من أسباب حفرهم إلى قدم الشعر .

٥ - تشجيع بعض السلاطين والأمراء والوزراء وبصر بعضهم بالشعر : ونذكر هذا العامل أخيراً لأنه لم يكن أبرز الأسباب المحفزة إلى نظم الشعر : ولكننا نسجله هنا معتبرين أن حوارته كانت فردية ، ولم تكن سياسة عامة ، كما كان شأن فيما مضى . وكانت مظاهر التشجيع : سماع الشعر والإثابة عليه ورفع منازل الشعراء .

ومن أبرز الحوادث في هذا الباب مالقيه ابن بناة وضفي الدين الحلى من الملك المؤيد إسماعيل صاحب حمة المعروف بأبي القداء ، من عناية ورعاية ،

ورفع منزلة وهدايا ومرتبات . فقد كان هذا الملك — وهو من بقايا الأيوبيين — مشغوفاً بالأدب العربي مختفياً برجاته حريراً على تقريب الشعراء والعلماء فكانت حاشيته خاصة بهم . ومن وفد عليه وأقام لديه مدة ، هذان الشاعران الكبيران خلا عصرهما ، فأغدق عليهما . ولذا انطلق لسانهما بشكره وذكره وتخليل أثره . وفي ديوان ابن نباتة قصائد لا عدد لها في مدح المؤيد وابنه الملك الأفضل ، وهي من أجود الشعر ، ومن أجود ما نظم ابن نباتة .

وروى أن ملك مصر الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون كان أيضاً يحب أهل الأدب والشعر ، وقد قرب إليه الشاعر شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، فدحه الشاعر المذكور وألف بإشارته عدة كتب منها ديوان الصباية ، ومن مدحه قوله .

هو الناصر المنصور والعادل الذى يساطنه ما جاز فى الملك ظاهره  
له فى سبيل الله خير ذخيرة وحسن الننا بين الملوك ذخائره  
جزى الله عنه مصر ما هو أهل فكم أمنت فى قطرها من يجاوره  
وقرب إليه أيضاً الشاعر ابن نباتة واستكتبه ديوان شعره . فقال  
ابن نباتة :

يأيها الناصر السلطان لا غضبت عين لها عن سنا مرآك سلوان  
كم في ملوك الورى فضل ومعرفة كانوا ، ومثلك في ذا التحوما كانوا  
إن يغض كسرى فكم ليوان معدلة لديك قد زانه يمن وإيمان  
أمرت شعرى يا خير الملوك على أشعار قوم فلى أمر وديوان  
ولابن نباتة هذا خبر طويل مع أبناء فضل الله العمرى وزراء الشام وكتاب  
سره ، فقد لجأ إليهم من بوشه واستجوار بهم من ليالي أحزانه ، فأجاروه  
وأنابوه ن geld ذكرهم بمداعع باقية بقاء الدهر . واشتهر الملك المؤيد شيخ سلطان  
مصر بحب الشعر ونظمه ورفع منزلة أهله وقد قرب إليه الشاعر الأديب تقى  
الدين بن حجة الجوى ، فدحه ابن حجة وسيجي بعض حوادثه .

وكذلك كان السلطان الغوري يفهم الشعر العربي ويحب سماع الغناء وقراءة

دواوين الأشعار . وروى أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون كان أيضاً يفهم الشعر وينقده ، ولما قطع عكا عام ٦٩٠هـ وعاد إلى مصر فزيت له القاهرة وأحتفى به الناس وأجتمعوا له بالقبة المنصورية ، قام نجم الدين بن العنبر الراواعظ — وكان شاعراً — فقصد مثبراً لينشد قصيدة في مدح الملك وذكر جهاده فكان في مطلعها قوله :

زد والديك وقف على قبرهما فكأني بك قد قلت إليهما  
فتغیر الأشرف من هذا البيت ونهض واقفاً وانصرف .

هذه الحوادث وأشباهها أثارت في تنشيط الشعراء وحضر قرائهم ودفعهم إلى تجويد أشعارهم .

### أغراض الشعر

اتسع نطاق الشعر في هذا العصر اتساعاً كبيراً وتناول الشعراء منه أغراضاً عددة ، بل ما تركوا باباً منه إلا طرقوه ولا سبلاً إلا مشوا فيه ، وإليك أشهر هذه الأغراض ونماذج منها :-

#### ١ - المدح :

إنما يطرأ على الشاعر ويهز خاطره لل مدح إذا وجد من عظمه زمانه ما يستأهل ذلك ، وربطته بهم صلة مودة وتقدير ، وابروا في غير ضن يفيضون عليه بالعظاء وحسن الجراء . وقد أشرنا من قبل إلى عجمة حكام ذلك الزمان وأن قليلاً منهم من يقدر الشعر العربي قدره ، ومن يسنى عنده منازل الشعراء .

ولكن على الرغم من ذلك ، ظهر فن المدح بداع من العوامل الفردية والصلات الشخصية . وقد نوهنا بمنزلة ابن بناة لدى المؤيد صاحب حماة ، ولدى أبناء فضل الله العمري وزرقاء الشام ، ولدى الناصر حسن ملك مصر ، ونوهنا بمنزلة صفي الدين الخلendi المؤيد المذكور أيضاً . وقد من صفي الدين بصر آنا فاحتفل به علاء الدين بن الأثير كاتب السر إذ ذاك في عهد الناصر

محمد بن قلاوون ، واحتق به الناصر المذكور . فكانت هذه الظواهر أثرها الطيب في بروز فن المدح في شعر هذين الشاعرين الكبيرين . ومن شعراء المدح كذلك ، الشاب الظريف فقد مدح القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، والتقى به حجة فقد مدح المؤيد شيخاً ومدح ناصر الدين بن البارزى كاتب سره .

وكانوا إذا مدحوا الملوك أو الأمراء وصفوهم بالكرم والبذل ، وبالشجاعة والفروسية ، وبالنصر على الأعداء وبحسن التدبير وثقوب الرأى . وإذا مدحوا الوزراء والكتاب وجدوا سعة من القول وفسحة من التشبيه في ذكر الأقلام والطروس وثار الأفكار وصواب الآراء ، وربما أتوا في هذا الميدان بما لم يأت به الأوائل . وكثيراً ما قدموا المدح بالغزل أو وصف الخرز ترويحاً للنفس ، أو خلطوه بالحماسة .

ومن ذلك قصيدة للشاب الظريف يمدح القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء . قال في مطلعها متغزاً :

أَرْحَ يَمِينُكَ مَا أَنْتَ مُعْقَلٌ أَمْضِيَ الْأَسْنَةَ مَا مُولَادُهُ الْكَحْلُ  
يَا مَنْ يَرِينِيَ الْمَنَابِيَا وَاسْهَا نَظَرَ مِنَ السَّيُوفِ الْمَوَانِيِّيَا وَاسْهَا مَقْلُ  
مَا بَالْ أَحَاظِكَ الْمَرْضِيَّ تَجَاهِنِيَ كَأَنَّمَا كُلَّ لَحْظَةِ فَارِسٍ بَطْلُ

ومنها في المدح :

أَغْرِيَ مَا أَبْدَتِ السَّحْبُ الْحَيَا لِسْوِي  
يَدُهَا كَمْ يَدُهَا سَبَقَتْ  
سُحْرُ الْبَيَانِ وَمِنْ أَفْلَامِ الرَّسُلِ  
سُمْرُ تَرْوِيقَكَ رَأَى الْعَيْنُ عَارِيَةَ  
مِنَ الْأَسْنَةِ فِي أَطْرَافِهَا سَنَةَ  
مِنْ كُلِّ مُعْتَدَلٍ كَمَلِيلٍ إِنْ رَمَدَتْ  
فَلَلْعَدَادَةِ لَدِيهِ كُلَّ مَا حَسَنُوا

ومدح تقي الدين بن حجة الحموي المقر الأشرف السيفي الأمير تمرغا الأفضل  
قال من قصيدة طويلة :

إن أبرقت في سما الميجا صوارمه رأيت حيث دما الأبطال قد مطرا  
فن رأى منهم برقا يلوح له يظنه سيفه الماضي قد اشترا  
له مطالعة في الحرب حين يرى  
دم العدى فوق طرس الأرض قد سطرا  
إن راسل القوم أنشأ في رسائله سبعات ضرب بها الهمامات قد ثرا

٢ - الوصف :

انصرف أكثر شعراء العصر إلى الوصف . فلم يتركوا شيئاً ما وقع تحت حسهم في البيئة المصرية أو الشامية إلا وصفوه . فوصفو أمراض الأرض ومناظر السماء وحدائق مصر وبساتين الشام وما تحتوى عليه من جداول ونواعير وأزهار وغار وأطيار ، ووصفو النيل وفيضاته ووفاته وخليجاته وكسره وزوارقه ، ووصفو أسلحة الحرب وأدواتها من خيول وسهام وسيوف ورماح ووصفو الكتابة وما يتصل بها من أقلام أو بلاغة ووصفو العادات والتقاليد وحوادث الأيام ، والشيب وبياضه والأنس وبجالسه ، والمنازل ورياشتها وأوانيتها ، إلى غير ذلك . ومن وصف الطبيعة ومناظر الربيع خلا هذا العصر : الجمال بن بناة والصنف الحلى ، وكذا نفر الدين بن مكانس الذي وصف « سرحة النيل » وصفا حسيا ونفسيا بارعا .

ومن الوصف قول الصفدي في روضة :

ف روضة علم أغصانها أهل الموى العذري كيف العناق  
هبت بها ريح الصبا سحرة فالفت الأغصان ساقا ساقا  
ولبلدر الدين الذهبي يصف حامة :  
وتنبهت ذات الجناح بسحرة بالوادين فنبهت أشواق .

ورقاء قد أخذت فتون الحزن عن  
يعقوب والألحان عن اسحق  
قامت تطارحني الغرام جهالة  
من دون صحي بالجى ورفاقى  
أنى تباريني جوى وصباية وكابة وأسى وفيض ماق  
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تعلى من الأوراق  
**ولصنف الدين الخل يصف الزنبق والورد :**

قد نشر الزنبق أعلامه وقال كل الزهر فى خدمتى  
لولم أكن فى الحسن سلطانه ما رفعت من دونه رايتها  
ففهمه الورد به ساحراً وقال : ماتختبر من سطوى  
وقال للسوسن : مادا الذى يقوله الأشيب فى حضرتى  
فامتعض الزنبق من قوله وقال للأزهار يارفقتنى  
يكون هذا الجيش بى محدقاً ويضحك الورد على شيتى ؟

ولابن باته المصرى قصيدة طويلة جداً تسمى «صاد الشوارد» فى وصف  
رياض حماة وغاباتها وخروجه مع الملائكة الأفضل للصيد ، ووصف غلستان الصيد  
وجوارحه وأدوانه وطبيوره إلى غير ذلك .

### ٣ — المدحى النبوى :

راج هذا الغرض الشعري في عصر المماليك رواجاً ملحوظاً ، ولعل ذلك  
يرجع إلى جملة عوامل منها أن العصر كان عصر تعصب إسلامي وغيره دينية  
واسعة بسبب حروب الصليبيين والتار وطبعهم في أملاك المسلمين والقضاء  
عليهم وعلى دينهم . ومنها أن العصر كان عصر ظلم وإرهاق واستبداد من  
الحكام ، فلاذ الشعب بيت آلامه وبالتوسلات إلى الله سبحانه أن يكشف  
عنه الغمة ، وأشرف ألوان التوسلات ذكر النبي الكريم والتشفع به إلى الله .  
وهنالك عامل آخر وهو إعجاب الشعراء ببردة اليوصى إلى وجهت المدحى

النبوى وجِهَةٌ جديدة لم تكن له من قبل ، فعارضوها بقصائد ضمنها ألواناً من البديع وسموها « البديعيات » . والوجهة التي أشرنا إليها هي استخلاص المدح النبوى من النزاعات السياسية ، وقصره على إظهار الحب للنبي عليه السلام ولو اطنه ، وعلى الحديث عن سيرته الشريفة ، ثم التقرب به إلى الله .

ومن رجال المدح النبوى — عدا البوصيري — الشاب الظريف وابن نباتة المصري ، وابن حجر العسقلانى ، وأصحاب البديعيات ومنهم صفى الدين الخلائقى ينسب البعض إليه ابتكار البديعيات ، وعز الدين الموصلى وتقى الدين ابن حجة الخواى .

ومن بردية البوصيري :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم  
أم هبت الربيع من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلام من إضم

ومنها في المدح :

أن اشتكت قدماء الضر من ورم ظلت ستة من أحيا الظلام إلى  
تحت المجمار كشحامترف الأدم وشد من سغب أحشامه وطوى  
وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شم .. الخ

ومن مدح الشاب الظريف :

أرض الأحبة من سفح ومن كثب سقاك منها الأنواء من كتب ولا عدت أهلاًك الناثرين من نفس الصبا تحية عان القلب مكتب قوم هم العرب المحمى جارهم فلا رعى الله إلا أوجه العرب أعز عندى من سمعى ومن بصرى ومن فوادى ومن أهلى ومن نسي

ومنها :

يا ساكنى طيبة الفيحاء هل زمن يدنى الحب لنيل السحب والأرب

ضمت أعظم من يدعى بأعظم من يسعى إليه أخو صدق فلم ينجب  
وحزت أفعى من يهدى وأوضح من يدى وأرجح من يعزى إلى نسب ... الخ

#### ٤ — الفخر والحماسة :

نفر الشعراه في ذلك العصر ، بشعرهم وسريرياتهم ، ودفعتهم الحروب  
المشبوهة بين الماليك وأعداء بلادهم وما حازوا من انتصارات ، إلى وصف هذه  
الحروب وتسجيل ما دار فيها منحوادث والواقع ، ووصف ما استعمل فيها  
من سلاح ، وما كان فيها من نصر مصر ، وهزيمة أعدائها . وخلط بعضهم  
الحماسة بالغزل فكان غزا محسماً طريفاً على نسق غزل عنترة . ومن الطريف  
أن الظاهر بيبرس لما انتصر على التتار بضفاف الفرات وهزمهم شر هزيمة  
تبارى كثير من الشعراه في وصف هذه الواقعه ، منهم محيي الدين بن عبد الظاهر ،  
وبدر الدين يوسف بن المهنadar . وناصر الدين حسن بن القيب والشهاب  
محمود الحلبي ، وموفق الدين الوزان وغيرهم . هذا ومن فرسان الحماسة أيضاً  
صف الدين الحلبي .

ومن شعر محيي الدين بن عبد الظاهر في حرب التتار :

تجمع جيش الشرك من كل فرقه وظنوا بأننا لا نطيق لهم غالباً  
وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا بأن جياد الخيل تقطعها وثبا  
وجاءت جنود الله في العدد التي تميس لها الأبطال يوم الوعى عجباً  
فعمنا بسد من حديد سباحة لأيمهم فما اسطاع العدو له تقباً

ومن شعر الشهاب الحلبي في هذه الموقعة يمدح بيبرس مدحه محسماً قوله :  
لما تراقصت الرموس وحركت الأوتار  
من مطربات قسيك الأوتار  
هوج الصبا من نعله الآثار  
خضت الفرات بساجن أقصى مني  
حملتك أمواج الفرات ومن رأى  
بحراً سواك نقله الأمطار  
وتققطعت فرقاً ولم يك طودها  
إذا ذاك إلا جيشك الجرار

### هـ — الغزل :

خاض الشعراء في ميدان الغزل وأكثروا من نظمه ، إما في مفتاح قصائد  
المدح أو في قصائد مستقلة ومقطوعات قصيرة . وقد دفعهم إلى ذلك ، حياة الالهو  
وحب التسلل والرغبة في التعبير عما في النفس ، أو تقليل القدمة ، وإذا بدا لنا  
أن غزل بعضهم كان صادراً عن عاطفة صادقة كالشاب الظريف والفارس  
ابن مكانس ، فإن غزل البعض كان تقليداً ومحاكاً ، أو تمريناً للريحمة كزین الدين  
ابن الوردي وابن حجر العسقلاني الفقيه الحافظ .

ومن أربع شعراء الغزل الشاب الظريف وجمال الدين بن نباتة ، والصفى  
الخل . والسراج الوراق . وندر أن ترى شاعرآ ليس له في الغزل باع .  
ولو ينظم فيه البيت والبيتين يضمنهما لوناً منألوان البديع .

وتناولوا في غزلهم الأوصاف الحسية والنفسية معاً ، وخلطوا الغزل أحياناً  
بوصف المخز ، فكان غزواً خمراً ، وتنزلاً في المؤثر والذكر على حد سواء .

ومن غزل العلامة الأديب فتح الدين محمد بن سيد الناس :

قضى ولم يقض من أحبابه أربا  
صب إذا من خفاف النسيم صبا  
راض بما صنعت أيدي الغرام به  
خشبة الحب ما أعطى وما سلبا  
شرع الموى عاش للإخلاص منتسبا  
لاتحسين قتيل الحب مات فني  
في جنة من معانى حسن قاتله  
لا يشتكى نصباً فيها ولا صبا

ومن غزل الشاب الظريف :

لي من هو إلك بعيده وقريءه  
ولك الجمال بدعيه وغريه  
يامن أعيد جماله بحمله  
حدراً عليه من العيون تصيه  
إن لم تكن عيني فإنك نورها  
أو لم تكن قلبي فأنت حبيه  
هل حرمة أو رحمة لم يتم  
قد قل فيك نصيري ونصيه

ومن غزل ابن نباتة يعارض المتنبي في قصيدةه التي مطلعها :  
 أرق على أرق ومثل يارق وجوى يزيد وعبرة تررق  
 قال ابن نباتة :

ما بت فيك بدمع عيني أشرق إلا وأنت من الغزالة أشرق  
 أنفقت عيني في البكاء وحينا عين على مرأى جمالك تنفق  
 وتكاثرت في الجفن أنجم أدمعي فكان غرب المحن مني مشرق  
 وأخافي فيك العذول وما درى أني لجورك في الهوى أتشوق .. الخ  
 وقد فضل ابن حجة هذه الآيات على آيات المتنبي .

#### ٦ - الخزيات :

شأنها شأن الغزل ، تقدم آيات المدح ، أو تنظم في قصائد أو مقطوعات مستقلة ، ويدفع إلى نظمها حب اللهو والتسلية . وقد كان شرب الخمر متفشياً إذ ذاك ، واندست في المنازل والأديرة ، حتى اضطر بعض السلاطين كييرس إلى محاربتها . وقد وصفها الشعراء فأبدعوا في وصفها هي وما يتصل بها من كنوس ومجالس وغليمان وندائي وقيان .

وقد قال ابن نباتة فأجاد :

من غذيري من الطلي والأغانى ولبس مرت على حلوان  
 ذهبت بالذى ملكت من الما ل كأنى سليكة فى الفنانى  
 ونديم يسعى بكأسيه مسعى قر التم حوله الفرقدان  
 أهيف قسمت لواحظه الود زكاة الغنى على الغزلان  
 يثنى وحليمه يتغنى هل سمعت الحام فى الأغصان  
 وغوان تغنى عن الطيب والحلسى لهذا تسمى الملاح غوانى  
 ضاربات الدفوف فى جيش لهو طاعنات المموم بالعيدان

يأندي في المدام فداء لكا في المدام العاذلان  
خلقاً البيت بالكتوس سروراً واشرياها صفراء كالوعران  
واسقيني فإن تشكيت داء فاسقيني إن شتها تشفياني

٧ — الرثاء:

هذا الشعراه فيه حنو أسلفهم ، ورثوا من مات من الملوك والعلماء  
والأدباء ، وذكروا مناقبهم وتقجعوا لموتهم ، وأخر ما كان رثاؤهم إذا حركته  
عاطفة أو وشيعة صدقة ومودة . وكثيراً ما خططوا القبور واستمطروا عليها  
الغيث وصيّب الرحمة واستوصوها خيراً بسكنها .

ومن مراثي ابن نباته الموجعة قوله في ابن له صغير :

الله يبارك إن دمعي جاري يا موحش الأوطان والأوطار  
لما سكنت من التراب حديقة فاضت عليك العين بالأنهار  
شنان ما حالى وحالك أنت في غرف الجنان ومهجتي في النار  
خف النجا بك يابني إلى السرى فسقنتي وثقلت بالأوزار . . . . .  
ولبرهان الدين القيراطى يرى بهاء الدين أبو حامد السبكي العالم الفاضل  
الأديب . قال من قصيده :

مضيت فما وجه الصباح بسفر	وبنت فما ثغر الأقاحى بفتر
وزلت فما ودق النوال بهاطل	وغيت فما برق اللى باسم التغر
وأوحش روض العلم منك وأنقه	فذاك بلا زهر وهذا بلا زهر
تكلامت أوصافاً وفضلاً وسؤداً	ولابد من نقص فكان من العمر . . . . .

٨ — القد الاجتماعي:

وهذا الغرض من محسن شعراه العصر ، وهو دليل جرأتهم ، على رغم  
ما كان يحيق بهم وبالشعب . ودليل على ما كانوا يعانون من آلام ، وبرهان على

ثقوب بصرهم وسعة إدراكهم . وكانت وجهة الناقدين المصلحة العامة ،  
ولم يخشوا في سيلها أن يتناولوا حاكماً أو عالماً أو قاضياً أو فرداً أو طائفه .  
ومزجو نقدم بشيئين هنا : تسجيل الواقع والمجاهد . ويعين هذا التقد  
على فهم حقيقة المجتمع المصري حينذاك .

ومن النقد الاجتماعي قول شهاب الدين الأعرج في الآذراك والأقباط  
واستئثارهم بالرزق :

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل      ومن دونه الآذراك بالسيف والترس  
وقد جمعنه القبط من      كل وجهة لأنفسهم بالربع والتن وحسن  
فللترك والسلطان ثلث خراجها      والقطط نصف والخلافات في السادس

ولناصر الدين بن النقيب في بعض أهل الرياسة :

قالوا : فلان ناظر ، فأجبتهم ما ناظر إلا إلى أعطاوه  
لم يدر مسح الأرض قلت أزيديكم أخرى ولا مسح على أطرافه  
ولشهاب الدين أحمد الانصارى ينقد الشعراء :

مال أرى الشعراء تكسب عارا      بهجاتهم وتحملوا الأوزارا  
مدحوا الأنساء اللئام فضيعوا الأشعار لما أرخصوا الأشعارا

وللبوصيري ينقد كتاب الدواوين ويدرك عبئهم في أعمالهم :  
نقدت طوائف المستخدمينا      فلم أر فيهم رجالاً أمنا  
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم      مع التجريب من عمرى سنينا  
فكتاب الشهال هم جيعاً      فلا صحبت شاهلاً بينا  
فكتم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم      فكانهم سرقوا العيونا

ومن آلم ألوان النقد وأذعها ، قصيدة نظمها الشاعر الأديب جمال الدين  
السلمونى أحد شعراء عصر الأشرف الغورى ، وقد بها قافية قضاة الخففة

حينذاك عبد البر بن الشجنة . وفاسى الشاعر بسيبها محنأدة ، قال في مطلعها :  
فشا الزور في مصر وفي جنباتها ولم لا عبد البر قاضى قضاتها  
أينكر في الأحكام زور وباطل وأحكامه فيها بمخالفاتها  
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتها  
أجاز أمورا لاتخل بصلة بحل وبرم مظهرها منكراتها ... الخ

والحق أن أغراض الشعر في عصر المماليك تعدد وتنوعت إلى حد بعيد  
ويضيق المجال هنا عن أن نوفيها نصيحتها من الحديث والتثليل . ونكتفي بأن نقول  
إن من بينها مائلي :

النهضة والتعزية ، والألغاز والأحادي ، والخنزين والسوق والعتاب والشكوى  
والفكاهة والمجون والاستدعاء ونظم العلوم والفنون ، والاستجازة والإجازة  
والزهد والتضوف ، والنصيحة والمثل والحكمة . والقصص والتثليل . ولكل  
غرض منها حديث طويل ، ونجزئي هنا بذكر أمثلة لبعضها فن ذلك :

١ - من القصائد التي جمعت بين النهضة والتعزية ، قصيدة ابن نباتة يهنىء  
الملك الأفضل صاحب حماة باعتلاءه عرش أبيه ، ويعزيه بهوت أبيه . قال  
في مطلعها :

هناه حما ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما  
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو السبق منها  
نرد بخاري الدمع والبشر واضح كوابيل غيث في ضحا الشمس قد همى .. الخ

٢ - ومن أبيات ابن الوردي في شکوى الزمان وأهله وحسدهم :

ما للزمان عن المروءة عاري ما عنده في منكر من عار  
أشکو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار  
لا غرو إن حسدت بنوه مناتي كل على مجرى أبيه جاري  
وارجتنا للحاسدين فنارهم قد سرت ، بعداً لها من نار  
وإذا جرى ذكرى تقاد قلوبهم تنشق أو تفتاني بشار

كَرْهُوا عَطَاءَ اللَّهِ لِي يَا وَحْيَهُمْ لَشَقَاهُمْ كَرْهُوا صَنْعَ الْبَارِي... الخ  
 ٣ — ومن قصيدة لتقى الدين بن حجة المخوى ، ينشوق ، وهو في مصر  
 إلى بلده حماة مخاطباً نسيم الصبا :

عَرَجَ عَلَى وَادِي حَمَةَ بَسْرَةَ  
 مِتَمِّهَا مِنْهُ صَعِيدَا طَبِيَا  
 فَبَغَيرِ ذَاكِ الطَّيِّبِ لَنْ أَنْطَيَا  
 وَاسْرَعَ إِلَى وَدَأْوَى مَصْرَبَهُ  
 قَلْبَا عَلَى نَارِ الْبَعَادِ مَقْلِبَا  
 مَا زَالَ الرُّوضَ الْأَنْسَ فِيهِ مَخْصِبَا  
 اللَّهُ ذَاكِ السُّفَحِ وَالْوَادِي الَّذِي

٤ — ومن حكم ابن الوردي الساخرة ، يتحدث عن الحظ ، قال :

لَا تَحْرَصْنَ عَلَى فَضْلٍ وَلَا أَدْبَرْ  
 فَقَدْ يَضِرُ الغَنِيُّ عِلْمَ وَتَحْقِيقِ  
 وَلَا تَعْدُ مِنْ الْعَقَالِ يَلِنْهُمْ  
 وَالْحَظْ أَفْعَنْ مِنْ خَطْ تَزْوِيقِ  
 وَالْعِلْمُ يَحْسَبُ مِنْ رَزْقِ الْفَقِيْهِ وَلِهِ  
 أَهْلُ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ قَدْ كَسَدُوا  
 وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مِنْ سَارَتْ فَضَائِلَهُ وَإِنْ تَعْقَنْ  
 قَالُوا عَنْهُ زَنْدِيقَ

### ألفاظ الشعر وأساليبه

إِذَا كَانَ الشِّعْرُ صَنْوُ النَّثْرِ ، فَلَا غَرَابةً أَنْ سَارَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي سَارَ فِيهِ ،  
 مِنْ تَوْخِي الْبَدِيعِ وَالْعَنْيَةِ بِأَنْوَاعِهِ ، وَخَضَعَ فِي جَمِيلِهِ لِلْمِنْجِ الْفَاضِلِ وَقِيُودِهِ ،  
 وَعَلِمَ لَدِيهِ مِنْزَلَةُ التَّوْرِيَةِ . غَيْرُ أَنَّ الشِّعْرَ كَانَ يَنْعَمُ بِجُرْيَةِ لَمْ تَنْعَمْ بِهَا الْكِتَابَةُ ،  
 فَقَدْ تَقْيَدَتِ الْكِتَابَةُ بِرَسُومِ دِيَوَانِ الإِلَانْشَاءِ وَمِنْجِ أَهْلِهِ فِي أَسَالِيهِ وَمَصْطَلِحَاتِهِ  
 فَانْسَاقُوا إِلَى هَنْدَسَتِهِ لِيَجْعَلُوهُ مِنْهُ فَنًا صَنَاعِيًّا مَعْجِبًا لَهُ أَهْمِيَّتِهِ عَنْ الرُّؤْسَاءِ  
 وَالْحَكَامِ . وَالشِّعْرُ كَانَ بِهِنْايَ عنِ ذَلِكَ ، وَلَهُنَا خَلَصَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْقَادِهِ  
 وَالْتَّكَافِ الْبَادِيَنِ كَالْكَلْفِ فِي وَجْهِ الْكِتَابَةِ . وَنَجَّمَ لَكَ الظُّواهِرُ الْغَالِبَهُ  
 الْمُتَفَشِّيهُ فِي أَلْفَاظِ الشِّعْرِ وَأَسَالِيهِ ، فَهُنَا :

١ — السهولة : ونفي بها البعد عن المستوى الجزل ، واستخدام أيسير الألهااظ والأساليب التي لا تتأبى على فهم العامة ، وتجافي الغريب والمعقد منها ، فأصبحت معانها سافرة لاغموضة فيها ، بل أصبح بعضها مرقضاً مطرياً . وبهذه السهولة وبهذا الوضوح صار الشعراء أقرب إلى تمثيل أجيالهم . والشعب المصرى مفظور على هذه الدعائم في تعبيره .

وهذا لا يمنعنا القول من أن بعض الشعراء سهل أسلوبه إلى حد الضعف ، وأن بعضهم جزل أسلوبه إلى حد العودة إلى أساليب الفحول . وقد رأيت كثيراً من نماذجه . وإليك أمثلة أخرى :

فن رقيق شعر ابن باتنة قوله متغزلاً :

لا وخسر باليئة في ثياباً لوثوية  
لا رق سفح دموعي في هوى تلك الثنية  
ربع سلوانى خراب وشجونى عامرية  
حربي من ذات حسن باسم تبكي البرية  
غادة يروى لماها عن صالح جوهرية  
من بيوت الترك ترمى عن قسى عربية ... الخ

ومن الشعر الجزل ذى اللفظ الغريب قول صفي الدين الحلى في وصف الخيل :

لمن الشواذب كالنعمان الجفل كسيت جلالاً من غبار القدس  
يبرزن في حل العجاج عوابسا يحملن كل مدرع ومسربيل  
شبه العوانس تختلي فكأنها في الخدر من ذيل العجاج المسبيل  
فعل الصوايح في كرات الجندي .. الخ

٢ — اصطناع البديع : كان العصر عصر الزخرف والتويه . ففضح ذلك على أساليب الشعر ، وأصحت الألوان البدعية من أهم دعائمه ، استجابة لروح

العصر وتأثراً بظروفه وملابساته . وأصبح هم كثير من الشعراء إظهار تورية أو طباق أو مقابلة أو استخدام أو جناس أو براعة استهلال أو تضمين والاقتباس والاكتفاء أو نحو ذلك من الألوان . وأبدع بعضهم في هذا الباب لإبداعاً مقطوع النظير . وأحص ما عنوا به التورية والاستخدام ، وقد قال ابن حجة الحوى عن التورية في خزانته : « هذا النوع — أعني التورية — ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب . ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب التورية . فإن التورية من أغلى فنون الأدب ، وأعلاها رتبة . وسرها ينفتح في القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول . ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرین غير الفحول » .

ونظم كثيراً من شعراء التورية والبديع إذا حكنا على شعرهم بأنه صناعة لفظية فحسب ، دون رعاية للمعاني ، فإن ذلك يحتاج منا أولاً إلى دراسة واسعة دقيقة . حتى نرى أكانوا يعنون في صناعتهم بالمعنى أم كانوا منصرفين إلى اللفظ فحسب . نقول ذلك لأن أغلبهم تجافي عن المحسنات اللفظية وبخاصة الجناس . ومذهب ابن باتة وابن حجة فيه ، هما ومن مشى تحت رايتهما ، أنه محسن لفظي ولا يخرجه عن عقادته إلا مزجه بالتورية . أما صلاح الدين الصدفى فقد أغرم بالجناس وملاً به شعره وشره ، على نحو ما نوهنا عند الحديث عن النثر . كما أن لصف الدين الخل جناسات كثيرة غير موقفة ، ولكن يعزى هذا لا إلى ولو عه بالجناس ، بل برغبته في تكلفه — وإليك بعض الآيات البديعية :

(١) فمن براعة الاستهلال قول ابن باتة :

في الريق سكر وفي الأصداغ تجعيد هدى المدام وهاتيك العنايد

ولعلاء الدين الوداعي :

بدر إذا ما بدا حميه أقول : ربى وربك الله

والصنف الحالي .

قُنْ وَدَعْنَا قَبْلَ وَشَكِ التَّفْرِقِ فَأَنَا مَنْ يَحْيَا إِلَى حِينَ تَلْتَقِي  
(ب) وَمِنْ الْجَنَاسِ الْخَفِيفِ قَوْلُ الشَّابِ الظَّرِيفِ :  
يَحْكُمُ الْفَزَالَ نَظَرَةً وَلَفْتَةً مِنْذَا رَأَهُ مَرَّةً وَلَا افْتَنَ  
أَحْسَنَ خَلْقَ اللَّهِ وَجْهًا وَفَمًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحْقَ بِالْمُحْسَنِ فَنَّ  
وَقَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ السَّبِكيِّ :

كَنْ كَيْفَ شَتَّتَ عَنِ الْمُوْيِّ لَا أَتَهِيْ حَتَّى تَعُودَ لِلْحَيَاةِ وَأَنْتَ هِيْ  
(ح) وَمِنْ التَّوْرِيْةِ قَوْلُ ابْنِ نَبَاتَةِ مَعَ التَّضْمِينِ :

وَضَعَتْ سَلاَحَ الصَّبْرِ عَنْهُ فَالَّهُ يَقْاتِلُ بِالْأَلْحَاظِ مَنْ لَا يَقْاتِلُهُ  
وَسَالَ عَذَارَ حَوْلِ خَدِيْهِ جَائِرٌ عَلَى مَهْجَتِيْ فَلَيْقَ اللَّهُ سَائِلُهُ  
وَلِحَيِيْ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ :

يَا سَيِّدِيْ إِنْ جَرَى مِنْ مَدْمُوعِي وَدِيْ  
لَا تَخَشَّ مِنْ قُوَّدِ يَقْتَصِيْ مِنْكَ بِهِ فَالْعَيْنُ جَارِيَةُ وَالْقَلْبُ عَلَوْكُ  
وَمِنْ جَنَاسِ التَّوْرِيْةِ قَوْلُ بَدْرِ الدِّينِ الدَّمَامِيِّ يَمْدُحُ ابْنَ حَجَرَ :  
حَىْ ابْنَ عَلِيْ حَوْزَةَ الْجَدِّ وَالْعَلَا وَمِنْ رَامَ أَشْتَاتَ الْمَعَالِي وَحَازَهَا  
وَكُمْ مَشَكَلَاتُ فِي الْبَيَانِ بِفَهْمِهِ تَبَيَّنَهَا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَمَا زَاهَا

(ء) وَمِنَ التَّضْمِينِ ، وَقَدْ كَانَتْ لَهُ حِينَذَاكَ دُولَةً وَصُولَةً ، قَوْلُ الشَّابِ الظَّرِيفِ :  
وَأَهِيفَ فَاقَ الْوَرْدَ حَسَنًا بِوْجَنَّةِ أَنْزَهَ طَرْفِيْ فِي رِيَاضِ جَنَانِهَا  
كَانَ بِهَا مِنْ حَوْلِ خَالِيَهِ جَرَّةٌ « تَشَبَّهُ الْمَقْرُورُونَ يَصْطَلِيَّانِهَا »

(ه) وَمِنَ الْاِقْتِبَاسِ قَوْلُ حَيِيِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ :  
إِنْ كَانَتِ الْعَشَاقُ مِنْ أَشْوَاقِهِمْ جَعَلُوا النَّسِيمَ إِلَى الْحَيْبِ رَسُولاً  
فَأَنَا الَّذِي أَتَلَوْ لَهُمْ : يَا لَيْتَنِي كَنْتُ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّوْسَوْلِ سِيلَاً

(و) ومن الاستخدام قول ابن باتة :

سق الله أكناف الغضا سائل الحياة وإن كنت أستقي أدمعاً تتحدر  
وعيشاً نضا عنه الزمان يياضه وحلقه في الرأس يزهو ويزهر

هذه الألوان البديعة وغيرها امتلأت بها جماع الشعراء، وصارت ميداناً  
لتتساقفهم ومقياساً لبراعتهم ومميزاً في يد النقاد يزورونهم به، وترى ذلك ماثلاً في  
تقدات ابن حجة في خزانة أدبه.

وكانت عناياتهم بالبديع في مقدمة الأسباب التي دفعتهم إلى الإكثار من  
المقطوعات والموشحات، وإلى المطارحات والمعارضات، بل وإلى السرقات  
بعضهم من البعض. وقد بسط ابن حجة كثيراً من أخبار هذه السرقات في  
خزانة أدبه، وروى عن سرقات ابن باتة من العلامة الوداعي، وعن سرقات  
الصفدي من الجمال بن باتة.

ومن أهم فنون الشعر الجديدة في هذا العصر، التي تعتبر وليدة العناية  
بالبديع : فن البديعيات.

والقصيدة البديعية يتضمن كل بيت منها لوناً من البديع على الأقل،  
ويتضمن أحاناً اسم هذا اللون، والغالب أن موضوع القصيدة هو مدح  
النبي. وقد كانت بردة البوصيري المشهورة مصدراً من مصادر الوحي  
لشعراء البديعيات، وعارضها بعضهم وزناً وقافية. ولم يعرف بالضبط أيهم  
ابتكر هذا الفن الجديد فهو ابن جابر الاندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ أم صفي الدين  
الخلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ. على أن كلاً من الرجلين فتح الباب على مصراعيه فولج له  
من بعده كثير من الشعراء، حتى صار لفن البديعيات دولة تكاد تكون مستقلة.  
ومن رجالها عز الدين الموصلى وتقى الدين بن حجة وعائشة الباعونية. ومطلع  
بديعية الصفي الخلي :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم

وقر السلام على عرب بذى سلم

ومطلع بديعية ابن حجة :

ل في ابتدأ مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

### ٣ - الميل إلى الفسقافة والنكتة :

بدا هذا الميل واضحًا في أساليب الشعراء، واتخذوا أحياناً التورية والتلبيس والتوجيه والجناس وغيره، وسيلة إلى ذلك. وبدت فسقافتهم ونكتتهم في جملة أغراض شعرية منها: الشكوى والنقد الاجتماعي والألغاز وغيرها. وإذا عرفنا أن الفسقافة والنكتة من أهم دعائم الأسلوب الشعبي في مصر والشام، رأينا إلى أي حد كان تجاوب شعراء العصر مع بنى وطنهم، وإلى أي مدى كانوا متأثرين بهم حتى في دعائهم الأسلوبية. وهذه مفخرة لهم يسعى إليها الشعراء في العصر الحديث فهل يبلغونها؟ ومن فسقافاتهم :

قول أبي الحسين الجزار في زوجة أبيه وقد مات عنها :

أذابت كل الشinx تلك العجوز وأردها أنسابها المردية  
وقد كان أوصى لها بالصدق فما في مصيبيته تعزية  
لأنني ماتت أن القتيل يوصى لقتاله بالدية

وقول شمس الدين بن دانيال الموصلي يصف فرسه :

قد كمل الله برذوني بمنقصة وشانه بعد ما أعماه بالعرج  
أسير مثل أسير وهو يعرج بي كأنه - ماشيا - ينحط من درج  
فإن رماي على فيه من عرج فاعليه - إذا مامت - من حرج

### ٤ - استعمال الكلمات العامية والدخيلة والعيارات والأمثال السوقية :

كثر هذا في أساليب الشعراء حتى عد أحد عيوبهم، واستدل بعض المؤرخين به على ضعف ثقافة الشعراء وقلة حظهم من الفصاحة وآدابها. والحق أن بعض شعراء العصر كانوا أميين فوقعوا في هذا العيب بداعف أميتهם. ومع هذا

لم يسلم منه فحول الشعراه الذين يعتبر الطعن في ثقافتهم جرأة على الحق والواقع، من أمثال الصنف الحلى وابنالحال بن نباته والبرهان القيراطي والصلاح الصنفى. فلعل من الإنصال أن نعمل لهذه الظاهرة باندماج الشعراه في الأوساط الشعبية وتأثراهم بها فكأنوا، بمثل هذا العيب، ترجمانألهذه الأوساط ومرآة لها، وأن نعمل لها أيضاً بجنوحهم نحو التطرف باستعمالاللفظ الشائع. — ومن أمثلة ذلك قول البوصيري يشكو حالة أسرته إلى أحد الوزراء.

إليك نشكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عصرا  
في قلة نحن ولكن لنا عائلة في غاية الكثرة  
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة  
وقال ابن نباته يشكو :

قل عونى على الزمان فأصبحت صبوراً على مراد الزمان  
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى

ونحن حينما نحكم على بعض العبارات والأمثال بأنها عامية سوقية في ذلك العصر البعيد ، نستعين في ذلك بعامية زماننا وما دار فيها وابتذر من الأساليب .

وعلى ضوء ما يحمل الشعر الفصيح من ألفاظ العامة وأساليبهم نستطيع الحكم على اللغة العامية المنتشرة حينذاك ، وهي لغة تخاطب المجاهير .

#### ٥ - الضرورات الشعرية والخروج عن اللغة :

الضرورات الشعرية كصرف مالا ينصرف واستعمال ظروف الزمان والمكان من غير ذرع وقصر المددود ومد المقصور، والقسم في غير حاجة ونحو ذلك ، مبادحة للشعراء وليس في ذلك عيب كبير . وإنما العيب في الإكثار منها، وهو دليل على ضعف الشاعر عن امتلاك زمام الفصاحة وقصوره عن تصريف الشعر فيما ينبغي . وقد كثرت ضرورات الشعراء في عصر المماليك بالنسبة إلى

من سبّهم . ومنهم من خرج عن اللغة فأخل بموازين الصرف أو قوائين النحو ،  
وعد ذلك في جملة عيوب الشعراء . واعتقدنا أن الشعراء انساقوا إلى ذلك  
لما بداعم الأمية ، أو شدة اتصالهم بأوساط العامة ، كما عالما في البند السابق .  
ومن لطيف ما نظمه جمال الدين بن نباتة من هذه الأخطاء قوله من  
أبيات جيدة :

ساقِيَ الراح بادكار لقاء لا عدمنا ذاك اللقا وسقااته  
هاتِ كأسى وإن لحت من السكر فلا تلحني إذا قلت هاته  
فتح تاء « هاته » . ومن ضروراتهم قول نور الدين الإسحardi من  
قصيدة خيرية :

فدع رأى قوم كالدواب ولا تذر سوى درة كالكوكب المتقد  
ومن أخطائهم اللغوية قول الصفي الحل من أبيات ينقض بها قصيدة  
لابن المعتر في ذم الأمويين والعلويين :

وكيف يخصوك يوماً بها ولم تتأدب بآدابها  
حذف نون الرفع . وقول ناصر الدين بن القيب :  
ولما حلت الثغر زاد حلاوة وخليته أغلى من الشذر والدر  
استعمل كلمة « خليته » بمعنى جعلته وصيّرته .

### معانٰيُ الشعْر وَأَخْيَلٰتِه

إذا اعتبرنا الشعر مرآة لأهله ورجعاً لبيته وصدى لعصره ، وعرفنا  
لون الثقافة التي كانت منتشرة في العصر ، وما اكتشه من أحوال سياسية  
واجتماعية ، استطعنا إلى حد كبير أن نستبط ما لمعانٰيُ الشعر وأخياله من  
شخصيات . وقد تبين لنا فيما سبق أن ثقافة العصر في جملتها كانت دينية أديمة ،  
تدور أكثر ما تدور حول بعث القديم وإحياء الدايم ، ولم تتجه نحو الاشتغال  
بالفلسفة ، والتعمق وراء الفكرة ، ولأنّه العلوم المضاربة الأخرى كالطب

والفلك والهندسة . وحقاً كان هناك اشتغال بهذه العلوم ، ولكنه بجانب الأدينيات والأدبيات لا يعد شيئاً مذكوراً ، وكان الاشتغال بالكيمياء يعتبر ضرباً من السحر أو الشعوذة ، يتقول الناس عليه . على أن الميل إلى الأدبيات إحدى طبائع الشعب المصري من زمن بعيد ، وهذا غلب على معانى الشعر وأخيله أمور وشخصيات تحملها فيما يلى :

١ — قرب المعانى ووضوحها وسطحيتها ، والبعد بها عن الاتجاهات الفلسفية والتعمق إلا ما ندر .

٢ — سعة الخيال الشعري المصور الواصف للبيئة المصرية والشامية ومحتوياها ، حسية وعقلية ، معتمداً على ألوان البيان من تشبيه ومجاز .

٣ — ترتيب المعانى الجزئية في القصيدة الواحدة ترتيباً طبيعياً ، وإن لم يخرج في جملته عن الأوضاع المأثورة .

٤ — تكرار المعانى القديمة ، وندرة الخروج عنها ولا سيما في بابي المدح والغزل والخزيات . غير أن منهم من تصرف فيها بعض التصرف كتحويلها من الغزل إلى الهجاء مثلاً ، ويكثر ذلك في المعارضات والتضمينات .

وهذا كله لا يمنع وجود المعانى والأخيلة الجديدة المبكرة ، ويكثر ذلك في مقطوعاتهم البدوية .

٥ — الميل إلى السرقات من القديم والمعاصر ، وقد نو هنا سرقات ابن باته من الوداعى وسرقات الصدقى من ابن باته .

٦ — الميل إلى التعمية والإيهام أحياناً ، ويكثر ذلك في الألغاز والاحاجى .

هذا ، ولئن فيما من نماذج .

## الشعراء

كثُر عدد الشعراء في ذلك العصر كثرة واحضة . وقد أحصيت منهم نحو مائتين ، ظهروا بالتتابع على مدى العصر ، وروت لهم كتب الأدب والتاريخ نصوصاً ، وذكرت من اشتهر له منهم ديوان أو أكثر . ودار الكتب المصرية عامرة بعض هذه الدواوين ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً .

وكثيراً ما كان يتعارض اثنان منهم ، أو جماعة في حقبة من الزمن ، يبرزان أو يبرزون معاً في الأدب والشعر ويكون بينهم من الغيرة والتنافس والتسابق والإنتاج ، ما بين الفرسان في الميدان . وكما أقرن — مثلاً — اسم شوقى وحافظ ، في العصر الحديث . أقرن اسم الجزار والوراق . ثم الصنف الحالى وأبن باته . وهكذا ، ومن الطريف أنه اجتمع في جيل واحد سبعة شعراء ، كل منهم يلقب بشهاب الدين ، سطعوا جميعاً في سماء القاهرة حتى أطلق عليهم القاهريون « السبعة الشعب » ، ومنهم شهاب الدين الحجازى المتوفى عام ٥٨٧٥ . ولم يخل ميدان الشعر في أية سنة من سنى العصر على وجه التقريب ، من شاعر . ونستطيع القول إن العصر شهد ست حلبات من الشعراء ، وعلى رأس كل حلبة ، زعيم أو أكثر . وأن كل نصف قرن فيه شهد حلبة منها . وهى على التقرير :

١ — حلبة الجزار والوراق والبوصيري وأبن عبد الظاهر والشاب الظريف وبجير الدين بن تيم وبدر الدين الذهبي .

٢ — ثم حلبة الوداعى وأبن دانيال الموصلى ونصر الدين الحامى والشهاب الحلى ، ثم الصنف الحالى وابن جمال بن باته والصلاح الصدقى وزين الدين ابن الوردى .

٣ — ثم حلبة القيراطى وأبن أبي حجلة المغربي وعمر الدين الموصلى ونفر الدين ابن مكานس ، وشهاب الدين بن العطار .

٤ - ثم حلبة تقي الدين بن حجة الحموي ، وشمس الدين بن ككيل ، والتواجي ، وأبن مباركشاه وأبن حجر العسقلاني ، ومجد الدين ابن مكانس .

٥ - ثم حلبة الشهاب الحجازى والشهاب المنصورى وشهاب الدين بن أبي السعود ، وشهاب الدين بن صالح ، - وفي هذه الحلبة والتي سبقتها عاش السبعة الشهاب .

٦ - ثم حلبة آخر العصر ومن رجالها شمس الدين القادرى وجمال الدين السلوانى وعبد الباسط خليل المخنى ، والماصرى محمد بن قونصوه وعبد القادر الدماهى وبدر الدين الزيتونى الشاعر الزجال .

### خاتمة .

#### الخاتمة الأولى : في الزجل :

الزجل هو شعر العامة ، ينظمه شعراً وله باللغة العامية ، ويعتبر الإعراب فيه من أشد عيوبه ...

وقد راج الزجل في عصر المماليك رواجاً كبيراً وذلك بجملة أسباب منها :  
تجمة الملوك والأمراء ، وهم إلى فهم شعر العامة أقرب منهم إلى فهم الشعر الفصيح ، ولذلك شجع بعضهم الرجالين ورفعوا منزلتهم وأثابوه عليه مثل آل قلاوون وبرقوق . ومنها انتشار الأمية بين طبقات الشعب فكانت إلى سماع شعرها العامي أشوق وأنشط منها إلى سماع الشعر الفصيح .

وليس الزجل وليد الحياة الأدبية في مصر بما يكتنفها من عوامل ، ولكنه ولد قبل ذلك ببلاد الأندلس وسرت عدواه إلى المشرق في عصر المماليك ووجد سوقاً نافقة ، وزاد تفاقه في أواخر العصر في مصر ، ولهذا نشط الرجالون نشاطاً ملحوظاً وزاحموا الشعراء في شتى أغراض الشعر الفصيح ، فنظموا الزجل في الغزل والمحنريات ووصف المناظر الطبيعية والنقد الاجتماعي وسجلوا

الحوادث العامة والمحروب الناشبة ، و قالوه في الفخر والحماسة ورثوا به الدول الذاهبة ، وأودعوا فيه فكاهاتهم ومجونهم إلى غير ذلك .

ومن أشهر رجال مصر حينذاك قيم الزجل الكبير « خلف الغباري » وتوفي في أوائل القرن التاسع الهجري وكان حاذقا في نظم الزجل وأدخل عليه سمات الشعر الفصيح في التصوير والتعبير ووجل به أبواباً عدداً . وكان متصلاً ببرقوق ومنهم « علام الدين علي بن مقاتل الحوى » وكان معاصرًا للحلبي وأبن نباتة ، ومن يفند على الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة وينشد بحضورته وينال عطاءه .

ومنهم بدر الدين الزيتونى الذى شهد عهد قايتباى والغورى ومات عام ٩٢٤هـ .

وقد اصطبغ الرجالون الأساليب البديعية كالشعراء سواء بسواء ونوعوا في توافيه ما شاء لهم التتويج . وسموا أنواعه أسماء مختلفة فهنا الموشح والمواليا والدوبيت وكان وكان والقوما .

وللزجل أهمية أدبية وتاريخية جليلة، فنه نقف — ولو إلى حد — على حال اللغة العامية وصور تعبيراتها وما كانت تحتوى عليه من ألفاظ وأساليب وأمثال . ومنه نقف — ولو إلى حد أيضاً — على الصور النفسية للشعب وعلى نبضاته في مختلف وقائع حياته ، وربما كشف عما لم يكشف عنه الشعر الفصيح .

وإليك بعض الأمثلة :

١ - نظم الغبارى زجلية طويلة في الغزل قال في مطلعها موريأ أو موجها :

جار حبيبي قلت دا الحجاج حايچور أو يزيد  
لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد

٢ — ورد الغبارى الأشرف شعبان سلطان مصر فكان مما قاله، وفيه  
تشبيهات عده :

ضم الأشرف قبر ليت شعري هو لقنديل نور ضياء جامع  
أو صدف فيه خالص الجواهر أو فلك فيه غاب قر طالع  
أو نقول غاب فيه أسد ضارى أو حفيir جواه حسام قاطع  
أو كناس فيه أحسن الفزان أو حى فيه أفسس الفرسان  
أو جسد فيه روح من الأرواح أو سواد مقلة وفيه إنسان  
الخاتمة الثانية : في الأدب فيما وراء الشام ومصر .

لما دخل التتار بغداد وثلوا عرش الدولة العباسية زحفوا على بلاد الشام ،  
ومن ثم أرادوا الزحف على مصر فأوقف الملك سليمان المارد فانكسر إلى  
بلاد العراق وما والاها إلى الشرق .

وكان التتار قد خربوا ديار المسلمين وأبادوا كثيراً من ذخائرهم العلمية وذلك  
بدافع من جهلهم ووثنيتهم . ولما انكسر تيارهم عن الشام ومصر أنشروا لهم  
دولـاً عـدة في العـراق والـجزـيرـة وفارـس وأـواسـط آسـيا ، وكان يـزـجـهمـ فـيـهاـ أمرـاءـ  
من الفـرسـ أو قـادـةـ منـ التـرـكـ وـالـأـكـرـادـ ، وـمـازـ الـواـحـىـ قـضـىـ العـثـانـيـونـ عـلـيـهـمـ  
جـمـيعـاـ حـوـالـىـ سـنـةـ ٩٢١ـ .

وظل ملوكـهمـ يـكـيدـونـ لـالـمـسـلـيـنـ وـآـدـاـبـهـمـ زـمـنـاـ ،ـ ثـمـ دـخـلـ كـثـيرـهـمـ فـيـ  
الـإـسـلـامـ وـشـرـعـواـ مـنـ ذـلـكـ الـحـيـنـ يـشـجـعـونـ عـلـيـهـ الـدـينـ وـيـخـاصـةـ الشـيـعـيـونـ مـنـهـمـ  
وـحـاـلـوـاـ إـصـلـاحـ مـاـ أـفـسـدـتـهـ يـدـ أـسـلـافـهـمـ ،ـ فـظـهـرـ حـيـنـذـاكـ بـعـضـ الـعـلـيـاءـ الـذـينـ لـمـ  
يـمـجـدـواـ بـدـاـ مـنـ اـخـذـ الـعـرـيـةـ لـسـانـهـمـ إـذـ لـمـ تـكـنـ الـغـوـلـيـةـ صـالـحةـ لـلـعـلـمـ أـوـ أـدـبـ .ـ  
وـيـخـاصـةـ فـيـ عـلـوـمـ الـدـينـ ،ـ فـاستـفـادـتـ الـعـرـيـةـ مـنـ ذـلـكـ فـائـدـةـ تـذـكـرـ ،ـ وـبـقـيـتـ لـغـةـ  
الـأـلـيـفـ وـالـتـصـنـيفـ ،ـ وـإـنـ صـارـ أـسـلـوبـهـاـ عـلـيـهـاـ جـاـفـاـ وـمـنـطـقـيـاـ مـضـنـيـاـ .ـ وـمـوـضـوـعـهـ  
الـمـنـطـقـ أـوـ السـكـلـامـ أـوـ الـبـلـاغـةـ أـوـ الـفـقـهـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ .ـ وـشـجـعـ بـعـضـهـمـ الـفـلـاسـفـةـ  
وـالـحـكـيـاءـ وـعـلـيـاءـ الـرـيـاضـةـ وـالـفـلـكـ .ـ

ويق في تلك البلاد من يكتب أو ينظم بالعربية. ولكن ذلك لا يوزن بشيء إزاء ما كان بصر والشام . وغشت الأساليب الأدية ونصلت منها أصياغ البديع وحالات أو ائتها إلا أقلام بعض المجيدين . ولم يبق من الخطب إلا الدين المنبرى . وحلت لغات الحاكمين — فارسية أو تركية أو مغولية أو كردية — محل العربية في التخاطب ، وراجت أسواق الزجل .

ومن علماء هذه النواحي : نصير الدين الطوسي « ٦٧٣ » ، وكان مقربياً من هولاكو ، وهو فيلسوف ورياضي وفلكي . وأبو عبد الله بن آجروم « ٦٧٢٣ » ، وهو مشهور في النحو . وسعد الدين التفتازاني « ٦٧٩١ » ، كان عالماً في المنطق والكلام والبلاغة . والسيد الشريف الجرجاني « ٨١٦ » ، وله معجم يحدد فيه المعانى الاصطلاحية للألفاظ العربية . ومجد الدين الفيروزابادى « ٨١٧ » ، صاحب معجم « القاموس المحيط » .

ومن الأدباء والشعراء : شهاب الدين التلعفرى « ٦٧٥ » ، ويعتبره بعضهم من شعراء الشام لإقامةه في حلب زمناً . وعلام الدين الماردىنى ، و نظام الدين الأصفهانى ، وصفى الدين الخل « ٦٧٥٠ » ، وهو أربع شعراء العراق ، وقد أضفناه من قبل إلى شعراء مصر والشام لكثرت تجواله بين ربوعهما .

---

## العصر العثماني

٥٩٢٣ - ١٢١٣

### العثمانيون وفتح مصر :

ينما كانت مصر في أواخر عصر المماليك ترزح تحت نير الظلم والإرهاق والفتن ، إذ كان الأتراك العثمانيون قد أسسوا لأنفسهم بناءً مشيداً وملكاً وطيناً في شبه جزيرة الأناضول ، وامتدت يدهم إلى جزء كبير من أوروبا ، وفتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ ، واتخذوها مقرًا لملكهم . وما زالت أطماعهم تنثار ، وشجاعتهم تفسح المجال أمامها حتى فتحوا بلاد الفرس . ثم داهم أن يفتحوا مصر ، وكان ذلك في عهد السلطان سليم الأول . وقد تم لهم فتحها في سنة ٩٢٣ هـ الموافقة سنة ١٥١٧ م . وقد أبدى المماليك في الدفاع عنها من ضروب البسالة والشجاعة ما سطّره لهم التاريخ ، وبخاصة السلطان الغوري الذي فضى عليه في معركة « مرج دابق » الفاصلة عام ٩٢٢ هـ . والسلطان طومان باي ، الذي شنق على « باب زويلة » . ودخل السلطان سليم هذه البلاد وأذاقها كثيراً من ضروب القسوة والفتوك وسفك الدماء مما كان عادة له وطبيعة ، وما لا يزال حتى اليوم له الأثر البغيض في نفوس المصريين . ولبث العثمانيون بمصر قرابة ثلاثة قرون حتى جاءت إليها الحلة الفرنسية .

### حالة مصر في عهد العثمانيين :

كان من أهم أغراض العثمانيين من فتوحهم إظهار القوة وإخافة الناس وإخضاعهم لسلطانهم ، ولم يعنوا كثيراً بإصلاح مراقب البلاد الخاضعة ، وتدير شئونها تدبيراً نافعاً ، وإحلال الأمن وإقرار العدل فيها . لذلك كان حكمهم لمصر وبالاً عليها . وكان جل همهم استغلال مال البلاد وخيراتها وحلها غنيمة باردة إلى خزاناتهم . زد على ذلك ما كان يقوم به أعواذه من مهالك وولاة ورؤساء جند من إزالة الأذى والظلم بالناس . فرجعت البلاد القهقرى .

وارتبت أمورها واعتلت مواردها وتكاثرت فيها ضروب الفساد وساد الجهل وسامت الصحة العامة ، وأقفلت المدارس ونهبت دور الكتب ، وغاض معين الرزق عن الطلاب والعلماء ، فتضليل عددهم ، ولم يبق منهم إلا بقية بين الحياة والموت ، تعيش بين جدران الأزهر . فاضطر كثير من الناس إلى الهجرة نحو ديار أخرى ، فنقص عدد السكان . وقد وضع إسلامان سليم الحكم في يد سلطات ثلاث متازعة هي : الوالي وب مجلسه والماليك ، فزادت الفتن والمؤامرات ، ولم ينقد البلاد من شرها ما حاول بعض الماليك من إعادة الاستقلال إليها . وأهم الأحداث التي تهمنا هنا ما يأتى :

- ١ — نقل السلطان سليم معه إلى القسطنطينية الخليفة المتوكل على الله العباسى واستنزله عن الخلافة ، وبذلك انتقلت إلى العثمانيين ، وأصبحت القسطنطينية العاصمة الدينية لل المسلمين ، ومن ثم صارت مركزاً للعلوم الإسلامية .
- ٢ — أستولى العثمانيون على أموال البلاد وأوقافها وما كان موقوفاً منها على المساجد وعليائها وطلابها .
- ٣ — وحملوا معهم آلافاً من الكتب التي كانت دور العلم بمصر عامرة بها ، وأودعواها خزانة القسطنطينية ، وفيها تاريخ مصر وأدبها وجهود أبنائها في نحو ثلاثة قرون .
- ٤ — ونقلوا إلى عاصمتهم كثيراً من علماء مصر وصناعها ، وقيل بلغ عددهم ١٨٠٠ رجل ، وبذلك حرموا مصر أهم دعائم العلم والأدب والصناعة بها .
- ٥ — وجعلوا اللغة التركية تدريجياً اللغة الرسمية في الدوائر والخطابات السلطانية ، فحل محل العربية ، وأصبحت العربية مقصورة على لغة التخاطب وبعض المؤلفات العلمية والأدبية .

#### الحالة العلمية :

كان الفتح العثماني ضربة قاسية وجهتها الإقدار إلى الحركة العلمية بمصر ، فبعد أن كانت القاهرة قد حل محل بغداد على أثر احتلال التتار . وصارت

من هوة بعلتها وأدبها ومساجدها الجامحة ودور كتبها المثلثة ، وظللت عاصمة الإسلام ومقر الخلافة ، تغيرت صفتها وانعكست آيتها وصارت تابعة لا متبوعة ، ولم تعد مركزاً للعلوم والأداب الإسلامية ، وارفض عنها العلماء ، وأنفصن الطلاب ، وضاقت حلقات الدرس ، وغضض معين العلم الصحيح ، وقلت الرغبة في التأليف وهزلت المؤلفات . وأصبح أكثرها شرحاً لكتاب ، أو اختصاراً مطولاً . وأنبغ علماء هذه الحقبة من أهل العراق والشام والبيزن والهند .

ومن علماء ذلك العصر : السيد المرتضى الزيدى <sup>١٢٠٥هـ</sup> ، وهو من الذين وله « تاج العروس » في شرح قاموس الفبروزي بادى . و « إتحاف السادة المتقين » وهو في شرح إحياء الفرزالى . ومنهم عبد القادر البغدادى <sup>١٠٩٣هـ</sup> ، وهو من بغداد ومات بالقاهرة . وله : « خزانة الأدب » في شرح شواهد الكافية . والشهاب المخفاجى <sup>١٠٦٩هـ</sup> ، أحد أدباء مصر وشعرائها وله : « ريحانة الألباء » في تراجم أدباء عصره . والشهاب الدين أحمد بن حجر <sup>٥٩٧٢هـ</sup> ، وله : شرح على همزة البوصيري . والشيخ محمد على الصبان <sup>١٢٠٦هـ</sup> ، وله : حاشية على شرح الأشمونى لآلية ابن مالك . ونجم الدين الفزى <sup>١٠٦١هـ</sup> ، وله : « الكواكب السائرة » بسابق علماء المائة العاشرة ، وهو في تراجم الأعلام . ومحمد أمين المحبى <sup>١١١١هـ</sup> ، وله : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » وهو في تراجم الأعلام أيضاً . وبهاء الدين العاملى <sup>١٠٠٣هـ</sup> ، صاحب الكشكوكول والخلة وهذا حاضرات أدبية .

#### حالة اللغة والأدب :

أصيبت العربية وأدبها بما لم تصبه من قبل . فقد أصبحت التركية شيئاً فشيئاً لغة رسمية في الملك والسياسة والقضاء وكل ما له صلة بالحكومة . وأغلق ديوان الإنشاء ، ولم يجد كتاب العربية ولا شعراً لها من يأبه لهم ولأدبهم . وفي لغة التناطibus : انحطت هذه اللغة العالمية مما كانت عليه في العصر

السابق وضاق معجمها وزاد دخيلها ، ووصلت في أخيريات العصر إلى حالة من الانحطاط لم تصل إليها في عصر ما .

وفي الخطابة : بقيت الخطابة المنبرية في هذا العصر لضرورتها الدينية ، وقلت العناية بإعدادها ، بل وباستظهارها وحفظها ، ومن ثم كانت تستعار من دواوين أعدت لذلك ، وتتلى على المنبر . وضاقت موضوعها وانحصرت في التخويف من القبور ، وفي الدعوة العامة إلى التقوى والزهد في الحياة .

وفي الكتابة : كان إغلاق ديوان الإنشاء سبباً مباشراً لضعف الكتابة فلم تعد هناك كتابة ديوانية ، وأثر ذلك في غيرها من ضروب الكتابة . ومع أن كتاب العصر سلّكوا مسالك البديع والتزموا السجع ، ركّت أساليبهم وبدأ التكليف وانحصاراً فيها ، وضيّعوا عن اللحاق بغير أسلافهم والتاثروا بالعامية . وطرقوا بها الرسائل الإخوانية وتدوين ترجم الرجال . واستعار بعضهم مكاتباته لما كتب الأقدمون ، وجمعوا لذلك دواوين للرسائل في أغراض متعددة . ومن مشهورى الكتاب : الشهاب الخفاجى المصرى ، وعبد الوهاب الحلبي .

وفي الشعر : كان البعض يغير شعراء عصر المماليك برؤونهم إلى الخلية البديعية وجنوحهم إلى الأغراض التافهة ، وعدم العناية بتجويد المعانى . ومع ذلك كم رأينا لهم من شعر جديد وغرض نبيل ومعنى شريف .

وفي العصر العثمانى يمكن القول إن دولة الشعر قد دالت ، ولم يبق منها إلا ما يبق من الدار بعد الطموس . إذ تقاصرت همم الشعراء عن الأغراض الحيوية الهمامة وعجزوا عن تكرار المعانى المسبوقة ، وضاقت ذرعهم حتى عن اصطناع البديع وتجنب العامية . وكان من أغراض الشعر حينذاك : الغزل الصناعى والمدائح النبوى والتاريخ الشعرى ، هذا إلى قليل من الوصف والحنين والهجاء والرثاء والاعتذار .

ومن الشعراء : الشهاب الخفاجى المصرى صاحب ريحانة الألباء « ١٠٦٩ » ، والأمير محمد بن منجل الجركسى المولود بالشام والمتوفى عام « ١٠٨٠ » .

وعبد الله الشبراوى القاهرى من علماء الأزهر « ١١٧٢ »، ومنهم ابن النحاس،  
وابن معتوق ، والكردى ، والكىوانى ، والرشيدى ، والمتانى المصرى ،  
والمنوف ، وغيرهم كثيرون تجدهم في « ريحانة الآلباء » .

وإليك نماذج من السكتابة :

١ - مما كتبه الشهاب الخفاجى في « الريحانة » في ترجمة معاصره  
محمد بن يس المنوف الشاعر :

« وكانت لنا معه أويقات . هي في صحائف العمر حسانات . وختائل الشباب  
دانية القطاف زاهية الزهرات . في عنفوان عمرى . وإقبال طليعة أمري .  
وماء الحياة معدق . وغضن الشبيبة مورق . متفيئاً في هاجرة التحصل أفياء  
الصبا ، نازلاً حيث لا عليل إلا عيون الغيد ونسيم الصبا . ولا باكي غير طرف  
النرجس بدمع الندى . ولا ساهر إلا عيون التجوم التي هي للسارين هدى .  
والدهر طلق طيب الأخلاق . وسوق الفضائل لا ينفق فيه النفاق . لا كهذا  
الزمان الذي كسد فيه الأدب وبار . حتى قيل فيه : فتق المخارق وبارت  
الأشعار » .

٢ - وكتب عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجى يمدحه من رسالة :  
« لقد طفتحت أشدة العلماء بشرأ . وارتاحت أسرار الكاتبين سراً وجهرأ .  
وأفعمت من المسرة صدور الصدور . وطارت الفضائل بأجنحة السرور . ييمن  
قدوم من أخضرت رياض التحقيق بأقدامه . وغرت بحار التدقيق من  
صحاب أقلامه » .

ومن نماذج الشعر :

١ - للشهاب الخفاجى يتشوق إلى مصر .

إن وجدى بمصر وجد مقيم وجئنى كما ترون خينى  
لم يزل فى خيال النيل حتى زاد عن فكري ففاضت عيونى

٢ — للأمير ابن منجك الجركسي في الغزل :

نبه جفونك من نعاسك واسمح بريفك أو بكاسك  
طاب الصبح فهاتها واشرب معى بحياة راسك  
ما الورد إلا من خدو دك والبنفسج من نعاسك

٣ — والشيخ عبد الله الشبراوى فى مدح آل النبي عليه السلام :

آل طه ومن يقل آل طه مستجيرأ بجاهكم لا يرد  
جهم مذهبى وعقد يقينى ليس لي مذهب سواه وعقد

٤ — ولعبد الواحد الرشيدى يهجو :

قلت للنائب الذى قد رأينا معايه  
لست عندي بنائب إنما أنت نائب

٥ — ولمحمد بن يس المتفوق فى وصف الحياة وآلامها :

ومن تحطته نيران المنيا فسوف يصييه ألم الدخان  
وأبلغ من مذاق الموت يأس جناه المرء من روض الأمان

## العصر الحديث

من ١٢١٣ هـ إلى الآن

رأينا كيف كانت حال مصر والشام ، بل وسائر بلاد العرب تحت حكم العثمانيين الذين كان حكمهم وبالاً عليها وعلى لقتها وآدابها . وشهدنا الاضطراب والفساد بمنتهى في شتى نواحيها وأنها صارت مسرحاً واسعاً لألوان من النزاع والفتن ، وجردت من مقومات الحضارة والعلم حتى كبتت العربية وعمت الجهلة وفشت الأمراض وتمكنت الفاقة وتناقص عدد السكان .

### المملكة الفرنسية :

وبعد قرابة ثلاثة عام من فتح مصر ، وكان الضعف قد ساور الدولة العثمانية وكان النزاع قد استشرى بين فرنسا وإنجلترا ، ورأى فرنسا أن ترسل حملة لفتح مصر وذلك عام ١٧٩٨ م . فجاءت الحملة بقيادة نابليون بونابرت لتسطولي على مصر وتقطع طريق المواصلات بين إنجلترا والهند . وقد تم لها الاستيلاء بعد دفاع عجيد من الملك وأهالي البلاد . ولبثت الحملة بها زهاء ثلاثة أعوام حتى تعاون الإنجليز والأتراك على إخراجها ، وبذلك عادت مصر إلى حكم العثمانيين .

ولا ريب في أن الحملة الفرنسية كانت ذات أغراض استعمارية ، وكل ما صنعه في هذه البلاد إنما كان الغرض منه تثبيت أقدام استعمارها فيها . ولكن البلاد اسفادت من وراء ذلك بطريق غير مباشر فوائد عده كانت تمهدأ حسناً لنهايتها . وأهم هذه الفوائد :

- أن الحملة كان معها يجمع على كبار مؤلف من علمانية وأربعين عالماً في مختلف العلوم . كان الغرض منه دراسة مصر من نواحيها المختلفة والنظر في مراقبتها للعمل على إصلاحها وتنميتها . وجلبوا معهم المعامل والأدوات الحديثة التي لا عهد لمصر بها ، إذ كانت أوروبا قد انتهت صلاتها بكل وسائل التهوض . المدينة الحديثة ، بينما كانت مصر قد انقطعت صلاتها بأسبابها وأجهزوا وعرضوا هذه المعامل والأدوات على أنظار علماء مصر وأعيانها وأجروا (٦ — الأدب العربي)

أمامهم التجارب فنبهوا أذهانهم إلى ألوان العلوم الحديثة . ووضع المجمع سفراً  
قياً سمي « وصف مصر »، ضمته أبحاثه عنها .

٢ - وأسس الفرنسيون مدرستين لتعليم أبنائهم على النظام الحديث ،  
وأنشوا دار كتب قيمة .

٣ - وأحضروا معهم مطبعة عربية وإفرنجية لطبع ما يحتاجون إليه من  
منشورات سياسية وتعلیمات للأهالی . وأخرجوا بمعونة صحيفتين فرنسيتين .

٤ - وقام نابليون بضرور من الإصلاح الشكلي ، منها تكوين « ديوان  
خاص » من تسعة من المصريين كان من بينهم الشیخ الشرقاوى والشیخ الفيومي  
وغير مکرم وغيرهم من المصريين البارزين علماء وأعيانًا . و « ديوان عام » ضم  
إليه كل من له نفوذ من المصريين ، وكانت بعض الأمور تطرح عليهمما للنظر  
والاستشارة فحسب .

من هذا يتبيّن أن الحملة الفرنسية كان لها تأثير في تقدم البلاد المصرية ،  
فيها بدأ اتصال مصر بأوروبا ، وتنبه المصريون إلى الحضارة الجديدة ، وما لها من  
علم وقوة ونظم ، وتيقظوا إلى حقوقهم المسلوبة بين المالك والعثمانيين ، وإلى  
ضرورة اشتراكهم في حكم بلادهم ، كما أوقفتهم الحملة على وسائل التهوض وطرق  
التقدم العلمي من تعليم وطباعة وصحافة ، لذلك تعتبر الحملة - من هذه النواحي -  
تميداً حسناً للإصلاح الشامل الذي قامت به مصر بعد ذهابها .

### محمد علي :

هو مؤسس أسرته التي حكمت مصر من سنة ١٨٠٥ م إلى ١٩٥٢ م . وقد  
وفد إلى هذه البلاد ضابطاً في الجيش العثماني الذي كافح الفرنسيين . وكان واسع  
الحيلة كبير الأطماع فبذل جهوده حتى صار ولياً على مصر نائباً عن سلطان  
العثمانيين منذ عام ١٨٢٠ م ، ومن ذلك العام أخذت مصر تفوق من  
سباتها ونهض من رقتها وتعيد سيرتها الأولى من الرق والحضارة .

وقد شرع محمد علي يوطد مستقبله في هذه البلاد لتكون له ولأسرته ،  
ففتح بقية المالك فولية القلعة ونظم لنفسه جيشاً قوياً من أبناء البلاد ، واحتاز

الأراضي الزراعية وعمل على استنباتها . واحتكر التجارة وعمل على استغلالها . وما زال حتى كون ثروة ضخمة أفقى منها على جيشه الذي صار من أقوى الجيوش ، وبه استطاع أن يحارب الدولة العثمانية ثم يستقل بمصر . وصار ملكها ورأياً في ذريته حتى فضت عليهم ثورة مصر الأخيرة عام ١٩٥٢ م .

وقد وثب الشعب المصري منذ ذلك الحين وثبات واسعة ، وسار قدماً في ميدان الحضارة والعلم ، ولم يعد فهو ضررها بإرادة الحكومات ، بل رغبة ملحة نابعة من إرادة الشعب وتصميمه .

سرير . وقد كانت النهضة في أول الأمر نهضة عسكرية تساريرها نهضة علمية تمثلت في جملة أمور منها :

١ — الاستعانة بالأجانب — وبخاصة من الفرنسيين — لتدريب الجيش ، وتعليم اللغات في مدرسة الآلسن وغيرها ، ولتعلم الطب والعلوم الحربية وغيرها ، في مدارسها .

٢ — إنشاء طائفة من المدارس تتلخص في :

(١) مدرسة تجهيزية حربية بقصر العيني ومدرسة أركان حرب في أبي زعل

(ب) مدرسة طب بها مستشفى للتمرين بجهة أبي زعل . وكان يديرها كلوت بك الطبيب الفرنسي ومعه طائفة من الأطباء الأجانب . وقد اختير أكثر طلبة هذه المدرسة من المصريين ومن تابعى طيبة الأزهر .

(ح) مدرسة الآلسن لتخريج المترجمين ، وكان يديرها رفاعة الطهطاوى أحد علماء الأزهر وإمام البعثة الأولى إلى فرنسا . وعاشت هذه المدرسة حتى شهدت الاحتلال الإنجليزى .

(د) مدرسة خاصة بياريس لتعليم المصريين وبعض أفراد الأسرة الحاكمة .

(هـ) مدرسة هندسة ، ومدرسة صيدلية ، وأخرى للطب البطرى ، وأخرى للزراعة .

(و) وقسم التعليم ثلاثة مراحل : ابتدائية وثانوية وخصوصية ، وفتح لكل

مرحلة مدارس . ويديرها جمیعاديون برأسه مصطفى ختار أحد رجال البعثة .  
ويسمى « دیوان المدارس » وهو النواة الأولى لوزارة التربية والتعليم الحالية .

٣ — إرسال البعثة العلمية إلى مدن أوروبا ، ومنها بعثة حرية من أبناء  
المالك إلى إيطاليا عام ١٨١٣ م ، وبعثة للعلوم والفنون الهندسية إلى إنجلترا  
عام ١٨١٨ م ، ومنها البعثة العلمية الكبرى إلى فرنسا عام ١٨٢٦ م ، وعدد  
أعضائها أربعون ، للتخصص في علوم شتى ، منها الطب والهندسة والكيمياء  
والسياسة والطبيع والاحضر . وأشرف عليها المستشرق الفرنسي « جومار » وكان  
إمامها الشيخ رفاعة الطهطاوى .

وتوالى إرسال البعثات بعد ذلك حتى بلغ عدد أعضائها نحو ٣١٩ طالبا .

٤ — العناية بالترجمة ، وذلك نقل العلوم والفنون إلى العربية تسيرا  
للطلاب . وقد استقدموا لذلك طائفة من السوريين والمغاربة والأرميين ومن  
على شاكلتهم من يعرفون العربية وإلى جانبها لغة أخرى ، ليكونوا أزاجة بين  
الأستاذة الأجانب والطلبة المصريين . وأنشأوا مدرسة الآلسن التي أشرنا إليها  
وأنشأوا « قلم الترجمة » ووكلت رياسته بعد ، إلى رفاعة الطهطاوى فاحتار معه  
طائفة صالحة من خريجي مدرسة الآلسن وقاموا بترجمة جملة من كتب الطب  
والهندسة والسياسة والفنون الحرية والقانون وغير ذلك . وكان لقلم الترجمة  
فضل في تحرى أساليب العربية الصحيحة ومفرداتها ، ما استطاع — وهكذا  
عادت اللغة تمارس من جديد ترجمة العلوم ونقلها ، وتطوع للاضطلاع بما يرجى  
منها في عصر النهضة الحديثة .

٥ — إنشاء دار الطباعة ببولاق عام ١٨٢١ م وهذه الدار تاريخ حافل  
ومشاركة جليلة في النهضة ، إذ طبعت بها الكتب المترجمة وغيرها من الكتب  
القديمة في العلوم والأداب .

٦ — إنشاء « الواقع المصرية » عام ١٨٢٨ م وهي أول صحيفة مصرية  
حقيقية . وكتب عددها الأول بالتركية ثم شاركتها العربية ، ثم كتبت بالعربية  
وحدها . وهذه الصحيفة كذلك تاريخ فياض في مشاركة النهضة وفي معاونتها ،

لإذ كانت تنشر أوامر الحكومة وأخبارها الرسمية وقوانينها وأنباء الحوادث الأخرى وأطراها من الأديات والاجتماعيات . وظلت كذلك زمناً ، ثم افتصرت الآن على الأنباء والقوانين الحكومية .

٤٧ — اتخاذ اللغة العربية أداة للتعبير في شئون الدولة والتعليم والقضاء ، وفي التأليف والترجمة . وحاول محمد على اتخاذ التركية أداة للتعبير رسمية ، فبان له استحالة ذلك ، فعدل إلى العربية . وقد استجابت البلاد لهذا البعث فكتبت اللغة بذلك حياة جديدة .

### النهاية بعد أيام محمد على :

تركز حب النهوض في نفوس المصريين ، فاطرد نشاطهم بعد أيام محمد على لتوافر أساليبه . وحقاً فترت النهاية في عهد عباس وسعيد ، وأقل أكثـر المدارس . ولكن سرعان ما عاودها نشاطها من بعدهما ، وهبت الأمة تسير سيراً حثيثاً نحو المجد والرقي والحضارة الجديدة . واعتبرتها تصرفات إسماعيل المالية ونتائجها السيئة ، ثم الاحتلال الإنجليزي البغيض . ولكن ذلك لم يثنها عن السير إلى الأمام ، والعمل على التخلص من العقبات التي تعترضها . وثارت ثورتها عام ١٩١٩ م لاستكمال حريتها وسيادتها ، وظفرت بالحياة النهاية . ثم لما رأت الفساد في عهد فاروق قد انتشر في ربوع البلاد ثارت ثورتها الكبرى التاريخية عام ١٩٥٢ م وقضت على حكم أسرة محمد على ، وتسلم بنوها زمام الحكم وحطموا كل العقبات التي تعترض نهوض الأمة في شتى نواحيها ، فقضوا على الإقطاع والهزيمة ، وطهروا أداة الحكم وأجلوا المستعمر ، واسعدوا أقناة السويس ، وجددوا الدستور والقوانين بما يلائم رغبات الشعب ، وأعادوا الحياة النهاية نظيفة بريئة من الغايات إلا الغايات العامة ، وبهذا كله ظهرت مصر على المسرح الدولي باعتبارها غالباً من أهم العوامل التي تحرك سياساته ، وأعلنوا الجمهورية في البلاد وسعوا إلى تكتيل الجبهة العربية ، بل إلى تكتيل الجبهة الآسيوية والإفريقية ضد أنصار الاستعمار وأعداء السلام . والأمل معقود باستمرار هذه النهاية الواسعة الشاملة وتساميها .

وقد سايرت العلوم والأداب هذه النهضة وكانت من أهم دعائهما ، واتخذت اللغة العربية لساناً لها .

تحمل أسباب نهضة اللغة وانتشار العلوم والأداب .

نهضت اللغة العربية في العصر الحديث بوضاً بارزاً ، وانتشرت بجوارها العلوم والأداب وأزدهرت ازدهاراً يبشر بمستقبل فريب تصل فيه العقول إلى الابتكار ومسابقة الأوربيين في كل جديد من علم أو فن أو صناعة . وأسباب ذلك كثيرة منها :

١ - اتصال مصر بمدنية الغرب منذ حملة نابليون . وقد تم الاتصال بطرق شتى منها : بجيء المبشرين المسيحيين إلى بلاد الشرق ففتحوا المستشفيات والمدارس . والاتجار وتبادل السلع . والصلة الدائمة بين الشرق والغرب والبعوث العلمية . وتعلم اللغات الأجنبية مع الاطلاع على أدابها وعلومها وترجمتها إلى العربية ، وعناية المستشرقين بدراسة أحوال الشرق وعاداته ولغاته وأدابه وتاريخه ، واستخدام الخبراء الأجانب انسعاناً بهم في التعليم والتجديف والاقتصاد . وتبادل السفارات . وعقد المؤتمرات السياسية والعلمية وغيرها ، والاشتباك السياسي الدولي . وغير ذلك من ضروب الاتصال ، وقد سهل ذلك كثرة المواصلات الحديثة .

٢ - اتخاذ اللغة العربية أداة للنحوطيات الرسمية والتفاهم بها في شؤون الملك والسياسة والتعليم والقضاء واتخاذها لغة للتأليف والترجمات . وقد كانت اللغات الأجنبية طاغية عليها في دور التعليم إبان الاحتلال ، فخررتها النعرة . الوطنية ومكتت للغة القومية ، إلا في بعض المواد الدراسية كالمهندسة والطب فلا تزال اللغات الأجنبية هي المستعملة فيها . وذلك لعجز مزاولتها عن النعيق الدقيق بالعربية .

٣ - انتشار الأندية سياسية وعلمية وغيرها ، وبجمال الدين الأفغاني وتلاميذه فضل في ذلك لا يذكر .

٤ - اقتباس التأثير المسرحي من الأوربيين . وهو مدرسة نافعة إذا اتجه اتجاهها سليماً . وقد أفادت البلاد منه قائد كبرى . غير أن المسرح اليوم يعاني

أزمة وضيقاً شديدين ولا سيما بعد ما اجتذبت «الخيالة»، جمهور المسرح .  
والخيالة تأثيرها أيضاً، ويأخذوا سلسلة من عيوبها .

٥ - تأسيس دور الكتب وأهمها جميعاً دار الكتب المصرية . وقد  
أسست في عهد إسماعيل ، وتضم آلافاً مؤلفة من الكتب الثمينة ، وخطوطات  
قيمة . وقد أنشئت لها فروع في عدة أنحاء بالقاهرة . وفي كثير منعواصم  
المديريات دور كتب لا يأس بها ، وكذلك بكل من الأزهر والجامعات  
المصرية والجامعة العربية بل وبكل معهد دراسي مكتبة عظيمة النفع .

٦ - تنظيم الإذاعة منذ سنة ١٩٣٢ م وإنشاء مخطتها الحكومية ،  
والإذاعة فضل واسع في نشر الآداب والمعارف المختلفة بما تزدهر من محاضرات  
وبحوث وأخبار وأغان وأناشيد وقصص وإرشادات وغير ذلك .

٧ - إنشاء دور التعليم ، دور الطباعة ، والصحف ، واستمرار  
العوثر العلمية .

ونتحدث عن كل من هذه الأربعية بعض التفصيل ، فنقول :

### (١) إنشاء دور التعليم

١ - دور التعليم البيئة الأولى للثقافة ، تربى فيها العقول والنفوس معاً :  
حيث توضع لها المنهاج التي تطبعها بطابع خاص بوجهها نحو الغاية المأمولة .

٢ - وعرفت مصر المدارس في مطلع عصر النهضة ، لما جاءت الحملة  
الفرنسية وفتحت مدرستين لأبناء الجالية الفرنسية على النظام الأوروبي  
الحديث . فكانتا نموذجاً لافت أنظار المصريين إلى النظم الجديدة في التعليم .

٣ - وكانت مصر والشام أسبق البلاد العربية إلى إنشاء المدارس على  
النظام الأوروبي ، وأخذت تنتشر منذ عهد محمد علي ، وأنشئت بمصر عدة منها  
متنوعة ، لتخريج ما يحتاج إليه الجيش من قواد مهرة وأطباء بارعين ومهندسين  
حاذفين وصناع وغيرهم . ولتعليم الناهرين من أبناء الشعب . وكان التعليم فيها

بالعربية . وقد أقبل الوطنيون على المدارس لما رأوا نتائجها الباهرة وما تدره من منصب ومال وجاه ، ويبلغ عددهم نحو تسعة آلاف ، تتحمل الحكومة نفقات تعليمهم وطعامهم وكسوتهم وسكنهم . ووكلت أمورهم إلى « ديوان المدارس » الذي أنشأه عام ١٨٣٦ م برياسة مصطفى مختار بك الديوبدار الذي يعتبر أول ناظر لشئون التربية والتعليم .

٤ — ثم فترت النهضة التعليمية مدة وأقفلت مدارس كثيرة وبقيت المدرسة الحربية ، بحجة زيادة عدد المتعلمين عن حاجة الحكومة . ولكن ما ثبّت حركة التعليم أن عادت إلى نشاطها السابق منذ عهد إسماعيل فأبعد فتح كثير من المدارس ، وأنشئت مدرسة الطب والهندسه ومدرسة الألسن . وانتشرت المدارس الابتدائية والثانوية والعلية . وأنشئت مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ، ومدرسة الصنائع والفنون ، ومدرسة للمتعلمين ، ومدارس للبنات والخدمات . وانتشرت مكاتب القرى في أنحاء القطر . وأصبح الغرض من التعليم تثقيف العقول وتهذيب النفوس . ويبلغ عدد التلاميذ نحو مائة ألف . وتحول « ديوان المدارس » إلى « نظارة المعارف » وعهد إليها بوضع نظم حديثة للتعليم . كما أنشئت دار الكتب ودار الآثار ، ولها صلتها بالتعليم ، وصار التعليم في المدارس باللغة العربية في جميع المواد الدراسية ، وبقى بالمجان إلى حد كبير . وقد شوه جمال هذه النهضة استبداد إسماعيل وديونه الكثيرة .

٥ — ثم ابتليت مصر بالاحتلال الإنجليزي المشؤوم في عهد توفيق عام ١٨٨٢ م فآذ التعليم وعاق نهضته وغير منهاجه وأصبحت الغاية منها تخريج موظفين يكونون آلات حكومية . وأقفلت مدرسة الألسن ، ودرس كثير من المواد الدراسية بالإنجليزية ، فضعف شأن العربية . وهيمن على « نظارة المعارف » حينما المستشار الإنجليزي « دنلوب » ففرض سياسة المستعمرو على مناهج التعليم ، وقررت المصروفات المدرسية ليحرم الفقير التعليم ولتقسم الأمة إلى طبقة حاكمة وأخرى محكومة .

— ولنكن الأمة كانت قد وطدت عزّها على متابعة النهوض ، وآلت  
ألا تعود إلى عهد الظلة وألا تستسلم إلى الطغاة الظالمين ، فإنّي ثقـتـ الحركـاتـ  
السيـاسـةـ وـتـابـعـتـ التـورـاتـ ، وـانـتعـشـتـ الحـيـاـهـ الفـكـرـيـةـ ، وـقـوـيـتـ الروـحـ  
الوطـنـةـ وـارـتفـعـتـ الأـصـوـاتـ بـضـرـورـهـ العـنـيـاـهـ بـالـلـغـهـ العـرـبـيـهـ باـعـتـارـهـاـ لـغـهـ  
الـوـطـنـ ، وبـضـرـورـهـ سـيـادـتـهاـ فـيـ دـوـرـ التـعـلـيمـ ، وـأـخـذـتـ تـسـرـدـ مـكـاتـهـاـ روـيـداـ  
روـيـداـ فـيـهاـ حـتـىـ ثـبـتـ أـقـدـامـهـاـ وـعـلـاـ بـنـدـهـاـ .

وتحولت الجامعة الأهلية إلى جامعة حكومية عام ١٩٢٥ م ، وهي جامعة  
القاهرة . وصدر قانون جديد بتنظيم الأزهر وبه تحول إلى جامعة إسلامية  
كبيرى ، وزاد عدد المدارس على اختلاف درجاتها .

والحق أن الشعب بفضل زعيمه وقادته وأولى الرأى فيه قد تيقظ وبعث  
بعثاً جديداً وخلق خلقاً آخر ، وشعر أن التعليم ضروري لحياته كلامه والمواء ،  
وأصبح هم وزارة المعارف التي تحولت إلى «وزارة التربية والتعليم» العناية  
بمشاكل التعليم المتعددة ، وأصبح لها سياسة تعليمية علياً أهم ما ترى إليه  
هو تهيئة مقاعد الدراسة لبناء الشعب وتوجيههم نحو الغاية السامية والمستقبل  
المأمول الذي تنشده الأمة . وأخذت توسع في إنشاء دور التعليم ، وعلى رأسها  
التعليم الجامعي فأنشئت جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس . كذلك  
الجامعة الشعبية ، وقامت بالعمل على مكافحة الأمية بين طبقات الشعب .

وما قامت حـكـومـةـ الثـورـةـ حـتـىـ شـرـتـ عنـ سـاعـدـ الجـدـ فيـ نـشـرـ التـعـلـيمـ  
وـالـتـكـيـنـ لـلـمـعـارـفـ فـيـهـاـ وـحـدـيـهـاـ ، وـعـلـمـتـ عـلـىـ تـعـمـيمـ التـعـلـيمـ الـابـتدـائـيـ ،  
وـأـنـشـأـتـ مـئـاتـ مـنـ الـمـارـسـ الإـعـدـادـيـةـ وـالـثـانـوـيـةـ وـكـلـهاـ بـالـجـانـ بـعـدـاـ كـبـيرـاـ  
مـنـ الـمـعـاهـدـ العـالـيـةـ عـدـاـ كـلـيـاتـ الـجـامـعـاتـ ، كـمـ اـسـتـكـلـتـ هـذـاـ العـامـ ١٩٥٧ـ مـ  
مـعـدـاتـ اـفـتـاحـ الـدـرـاسـةـ بـجـامـعـةـ أـسـيـوطـ ، فـقـتـحـ الجـامـعـةـ أـبـواـبـهاـ لـلـطـلـابـ .  
وـقـدـ توـسـعـتـ حـكـومـةـ فـيـ التـعـلـيمـ الـعـسـكـرـيـ وـالـرـياـضـيـ توـسـعاـ بـارـزاـ ، وـفـتـحـتـ  
أـبـوابـ التـعـلـيمـ كـلـهاـ أـمـامـ الـبـنـاتـ مـاـعـدـاـ التـعـلـيمـ الـعـسـكـرـيـ . وـغـيـرـتـ اـسـمـ «ـوزـارـةـ  
الـمـعـارـفـ»ـ بـوـزـارـةـ «ـالـتـرـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ»ـ .

وغي عن البيان أن نشير إلى أن من خرجي المدارس على اختلافها هم أصحاب الفضل الأول في إيقاظ البلاد وبعثها والسمو بها والقيام بمرافقها والشهر على مصالحها : وإليك كليات وجيزة عن أهم المؤسسات العلمية في البلاد :

(١) الأزهر : حافظ الدين وكهف العربية . وهو من أقدم جامعات العالم . أسسه جوهر الصقلى مولى المعز الدين الفاطمى وتم بناؤه عام ٥٦٦ . ودرس فيه المذهب الشيعي أولاً وبعض العلوم الكونية ، ثم توقف التعليم فيه في عصر الآيوبيين ، حتى كان عصر الممالك فأعيدت الدراسة إليه في عهد الظاهر بيبرس وازدهرت أيام ازدهار ، وفصدر الطلاب وطنين وعرباه وكانت تدرس به علوم الدين واللغة والإدب . ثم عصف الحكم العثمانى به وبغيره من مساجد القاهرة واستولى العثمانيين على أوقافها فأقتلت أبوابها ونطلت الدراسة فيها إلا بقية يسيرة بقيت بالأزهر كانت وصلة طيبة ودعامة حسنة للنحوش بالعلوم والإدب في العصر الحديث . ولما جاء نايليون تعدد إلى علمائه اعترافاً منه بمنزلتهم لدى الشعب ، وأدخل بعضهم في «الديوان الخاص » ، ولما بدت النهضة العامة في عهد محمد على وأنشئت المدارس استمدت كثيراً من طلبية الأزهر وعلمائه ، ومنهم أيضاً اختير طلاب البعث فكانوا أساساً أولى قامت عليها النهضة .

ثم اطرد تقدم المدارس المدنية حاجة الدولة إليها فوقف الأزهر حيث كان مدة حتى تناولته يد الإصلاح فنظمت امتحاناته ورددت إجازاته ثم أست له من بعد مكتبة ، و مجلس إدارة — تحول بعد إلى مجلسه الأعلى — ثم أدخلت العلوم الرياضية بين مواده الدراسية . وفي عام ١٩٣٠ م أعيد تنظيم الأزهر وغيرت مناهجه وانقسم التعليم فيه ثلاثة مراحل ابتدائية وثانوية وعالية ، وأنشئت للدراسة العالية ثلاثة كليات واحدة لغة العربية ، وواحدة للسرية ، وواحدة لأصول الدين وبكل منها أقسام للتخصص ، وتعددت معاهده الابتدائية والثانوية في العواصم والمراكز ، وبذلك تحول الأزهر إلى جامعة إسلامية كبيرة . ولكنه مع هذا لا يزال في حاجة إلى إصلاح شامل يحفظ له طابعه القديم ويعبئه على مسيرة التقدم الحديث ليؤدي رسالته حير الأداء .

ويضم الأزهر اليوم بين جوانبه آلافاً من الطلاب وطالباته من مختلف الأنصار الإسلامية حتى الصين وأندونيسيا . وانبث متخرجوه في كثير من منشآت البلاد كدور التعليم ودوائر الحكومة والقضاء ، والمحاماة والصحافة ووظائف الوعظ والإمامية وغيرها . وهكذا ترى أبناء الأزهر يساهمون في نهضة بلادهم بأكبر نصيب ، وتعرف البلاد لبعض رجاله فضلهم على الحركات السياسية ونجاحها . وأدأ الأزهر أخيراً على تزويد البلاد العربية والإسلامية ببعض متخرجيه لنشر التعليم والدين واللغة في أرجائها .

ومن أبرز رجاله في العصر الحديث : حسن العطار ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سليمان ، ومن تولوا مشيخته أصحاب الفضيلة : حسونة البواوي وسلمي البشري ، ومحمد أبو الفضل الجيزاوي ، ومحمد الأحمدى الظواهري ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومأمون الشناوى ، وعبد المجيد سليم ، وابراهيم حمروش ، ومحمد الخضر حسين ، واليوم يجلس في كرسى مشيخته الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج ، وهو من رجال البعثة الأزهرية إلى فرنسا ، وأمل الأزهر أساتذة وطلاباً معقود عليه .

(ب) دار العلوم :

هي حصن العربية وباعت آدابها ومحى علومها ومقوم لسان الجيل . أسسها على مبارك عام ١٨٩٢ «٥١٢٨٩» وألحقت أول الأمر بدار الكتب ، وأخير طلبتها من نابغى طلاب الأزهر ، وروعى في مناهجها أن يزودوا بقسط من علوم الدين واللغة والرياضيات ليجمعوا بين قديم العلم وحديثه ولتأهلو لتدريس اللغة والدين في مدارس الحكومة .

وقد تغيرت مناهج الدار مرات كثيرة . وروعى أن يكون التعليم فيها بالجانب ، وأن يزود طلبتها بالكتب الدراسية والمراجع العلمية ويتحموا أحجاماً مكافأة مالية عناء لهم على طلب العلم .

وقد ألحقت الدار أخيراً بجامعة القاهرة وصارت إحدى كلياتها ، وتستمد

طلبتها الآن من خريجي المعاهد الدينية الثانوية ، ومن طلبة الثانوية العامة من المدارس المدنية ، كما أنها فتحت أبوابها للبنات ، وقررت بها المصروفات المدرسية أسوة بكليات الجامعة .

وقد انتشر متخرجو الدار في مدارس الحكومة ودور الصحف ودواوينها يعاونون على نهضة البلاد بخراطة تدريس اللغة والدين ، وبالكتابة ونشر الآداب ونحو ذلك . وامتاز كثير من أبنائها بالبروز في ميدان العلم والأدب والتأليف والسياسة ، منهم : عبد العزيز جاويش ، وعاطف بركات ، وحفيظ ناصف ، ومحمد الخضرى ، ومحمد عبد المطلب ، وأحمد الاسكندرى ، وعبد الوهاب النجار وعلى الجارم .

(ح) جامعة القاهرة :

مؤسسة العلم الحديثة ، والمسككه يمينها مشعل النور والحرية ، والباعثة في نفوس النشء روح التفكير التزيم الحر ، والداعية إلى حب العلم لذاته . وقد ثبتت فكرة إنشائها عام ١٩٠٦ م وعاون على تنفيذها الزعيم مصطفى كامل وسعد زغلول : وأكتب لها مصطفى كامل الغمراوى بك والأميرة فاطمة اسماعيل . وافتتحت عام ١٩٠٨ م وسميت « الجامعة الأهلية ». وفي عام ١٩٢٥ م ضمتها الحكومة وكفلتها ، وتعددت كلياتها ولا تزال تنمو وتزدهر ، وتعد أمّا للجامعات الأخرى الجديدة « جامعة الإسكندرية ، وعين شمس ، وأسيوط » لأنها اعذتها بالرجال وقد ثبتت أقدامها — على حداثتها — في مجال بناء النهضة الحديثة بين خرجته وخرججه من أبنائها في مختلف العلوم والفنون من طب وهندسة وزراعة وصيدلة وكيمياء وقانون وآداب وغير ذلك ، مما هو ملحوظ لنا . وقد قدرت الجامعات الأجنبية إجازاتها ، ووفد عليها كثير من أبناء الأمم العربية والشرقية لطلب العلم .

### (ب) البعثة العلمية

لا شك أن إيفاد البعثة إلى الأقطار الأوروبية وغيرها للالتحاق بجامعتها والتزود من ثقافتها ، سياسة تعليمية رشيدة . ومصر كانت — ولا تزال — في حاجة قصوى إلى ارتياح مناهل العلوم الأجنبية لتقييم عليها حضارتها . وأوروبا قطعت أشواطاً واسعة في ميدان هذه العلوم ، وسلخت مئات السنين حتى أصبحت جامعاتها سرجاً منيرة تضيء لمن يستضيئه .

وما آلت حكم مصر إلى محمد على حتى بذلت الهمة للسير بالبلاد نحو الرقي والحضارة ، وكان في مقدمة الوسائل إلى ذلك ، إرسال البعثة العلمية إلى أوروبا نجحيلًا لأنهم ولسراعاً إلى إعدادهم ، ليعودوا فيكونوا دعائم قوية يسمى عليها بيان النهاية .

وفد أشرنا فيما سلف إلى البعثة العلمية الأولى إلى إيطاليا عام ١٨١٦ م ، وإلى إنجلترا عام ١٨١٨ م ، وإلى فرنسا عام ١٨٢٦ ، وهذه العثة الكبرى . وكان من طلابها : مصطفى مختار الذي صار ناظراً لديوان المعارف ، ومصطفى مخزنجي الذي صار مهندساً للقناطير والجسور ، ومحمد بيومي الذي صار مدرساً بمدرسة الطب ، ورفاعة الطهطاوي الذي صار رئيساً لديوان الترجمة ، وحسن الإسكندراني الذي صار ناظراً للحرية .

ثم أرسلت بعثة طبية إلى فرنسا مكونة من اتنى عشر طالباً من طلبة الطب اختارهم مدير المدرسة كلود بيك ، وسافر معهم بنفسه إلى فرنسا . ومن رجالها : محمد السكري ، ومحمد الشباسي ، ومحمد الشافعى وكلهم تولوا التدريس في مدرسة الطب بعد عودتهم .

وتوالت البعثات في عهد محمد على حتى بلغ عدد أعضائها — كما أشرنا — نحو ٣١٩ طالباً ، صار منهم بعد عودتهم قادة للجيش وأطباء للجند ، وعلمون للمدارس المختلفة ، ومهندسوں يقيمون ما تحتاج إليه البلاد من قناطير وغيرها .

كأنشئت مدرسة خاصة بباريس التحق بها أربعون طالبا من بينهم بعض الأمراء  
لتعلم اللغة الفرنسية والعلوم الحربية غير أنها أُغلقت عام ١٨٤٠ م.

وقد أمر البعوث بعد محمد على ، حتى عادت الحكومة إلى هذه الخطة  
في عهد إسماعيل ، تم ركود ريحها في عهد الاحتلال . ولكن أبناء البلاد الذين  
شعروا بقيمة التزود من الثقافة الأوروبية لم يدخلوا جهداً في سبيل ذلك ، فسافر  
كثير منهم على نفقة الخاصة إلى جامعات فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها .  
ثم عادت الحكومة المصرية إلى اتهام هذه السياسة الرشيدة فصارت ترسل  
في كل عام عدداً من المتفوقين في مدارسها العالية إلى جامعات أوروبا ،  
واستمرت هذه السياسة بين المد والجزر ، حتى أنشئت جامعة القاهرة وغيرها  
من الجامعات ، فاتسع نطاق البعث إلى الخارج لاستكمال التخصص وأرسل  
الطلاب من تابعى المتخرجين في الجامعات والمعاهد العالية وأنشأت لهم وزارة  
التربية والتعليم إدارة خاصة تشرف عليهم .

ومما يذكر أن الأزهر اتبع سياسة إرسال البعث إلى أوروبا في عهد  
الأستاذ الإمام المراغي ، ثم عاد إلى توقيه القديم .

ولاريب أن رجال هذه البعث كانوا — وما زالوا — في مقدمة دعائيم  
النهاية الحديثة . فنهم السياسي القدير ، والكاتب التحرير والخطيب المفوه ،  
والصحفي الحنك والمؤلف المنتج والأديب المجدد والترجم النابغة والطبيب  
النطاسي والمهندس البارع والقائد المجرب .

ومن أجمل ما قدموه وأبقاءه لبلادهم ما ترجموه من المؤلفات الأجنبية  
إلى العربية ، فقد نقلوا عشرات من الكتب في مختلف المعلوم والفنون ، فأفادت  
اللغة من وراء ذلك أفضل فائدـة . وعلى رأس المؤلفين : رفاعة الطهطاوى  
وعلى مبارك .

## (ح) المطابع

تمهيد : مآثر الطباعة أكثر من أن تعد ، فهي خير أدلة ظهرت توفر أسباب العلم و تعمل على نشره بين كافة الطبقات ، و تعمل على حفظه وبقائه ، وهي تخرج الكثير من الكتب التي أصبح في مقدور كل امرئ اقتناها أو الاطلاع عليها ، وبذلك سهلت الاتصال بعلم المتقدمين والمحدين ، ويسرت طرق التعليم ، كما تربت على وجودها انتشار المطبوعات على اختلاف أنواعها وبخاصة الصحف والمجلات .

والطباعة إحدى الصناعات القدية ، ظهرت من قبل في بلاد الصين وغيرها واستخدموها لها الأجر والأخشاب والأحجار . أما الطباعة بالحرف المندنية فقد ظهرت في أوروبا خلال القرن الخامس عشر الميلادي على يد جو تبرج الألماني وأول كتاب ظهر بها ، التوراة سنة ١٤٥٠ م ثم شاع استعمال الطباعة في البلاد الأوربية .

أما الطباعة العربية فقد ظهرت في إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وطبع بها القرآن الكريم ثم أحرق ، وجزء من التوراة ، وغيرها . ثم انتشرت الطباعة العربية بعد ذلك في كثير من مدن أوروبا وبخاصة حينما ظهرت طوائف المستشرقين ، فعنوا بطبع كتب الشرق وخطوطاته ، وأشتهر في ذلك باريس ولندن وروما وليون وغيرها .

ثم أخذت الطباعة العربية تندى إلى الشرق ، فدخلت القسطنطينية في القرن الثامن عشر الميلادي .. وأول مطبعة أنشئت فيها مطبعة سعيد بن محمد حلبي فطبع بها بعض كتب اللغة العربية والأدب والتاريخ ، فضلاً عن مؤلفات تركية وفارسية . وأخذت دور الطباعة تنتشر في القسطنطينية منذ ذلك الحين ، وازدهرت بها الطباعة العربية ، وأهم مطابعها بعد ذلك مطبعة الجواب لصاحبها أحمد فارس الشدياق الصحفي اللغوي الأديب المشهور ، أسسها في أواسط

القرن التاسع عشر الميلادي وأصدر عنها جريدة «المجواب»، وكثيراً من الكتب العربية.

وقد وفت الطباعة إلى سوريا في القرن الثامن عشر الميلادي على يد الدعاة الدينيين، وشتهرت بها مطبعة الآباء اليسوعيين، وهي أكبر مطبع سوريا حتى اليوم، وطبع بها عدد لا يحصى من كتب الأدب والتاريخ واللغة وكتب التبشير.

واشتهرت في بيروت «المطبعة الأمريكية»، التي أسسها الدعاة الأمريكيون البروتستانت، وطبع بها كثير من كتب الطب والرياضيات وغيرها مما ألفه الدعاة أو ترجموه.

ثم أخذت الطباعة العربية تفدى على مصر وسائر بلاد الشرق ومنها الهند.

#### المطبع في مصر :

ودخلت الطباعة إلى مصر مع الحملة الفرنسية فقد كان لديها مطبعة مجهزة بمحروق عربية وإفرنجية وأطلقوا عليها «المطبعة الأهلية»، وكانت إدارتها إلى المسيو «مارسل» أحد المستشرقين الفرنسيين. وأول دار طباعة مصرية حقيقية مطبعة بولاق التي أنشئت في عهد محمد علي عام ١٨٢١ م وعرفت فيما بعد بالمطبعة الأميرية. وعهد بإدارتها إلى «نقولا مسابكي» أحد السوريين التخصصين في فن الطباعة وعاونه في العمل والتحرير عدد من شباب الأزهر.

وكانت تقوم بطبع الأوراق الخاصة بالحكومة والتعليمات الحربية وجريدة الواقع المصرية. وكذلك طبع بها كثير من الكتب المترجمة حينذاك في الفنون العسكرية والصياغة والتاريخ وغير ذلك. كما طبع كتاب في قواعد اللغة العربية.

وقتها نشاطها بعد وفاة محمد علي مدة ثماني سنوات من تعيينه الخديوي اسماعيل وقويت مشاركتها للنهضة بما طبعته من عشرات الكتب القديمة والحديثة، المؤلفة والمترجمة، في الطب والرياضيات والطبيعة وفنون الحرب والتاريخ، وفي الأدب والشعر والتفسير والحديث وغير ذلك، وأكثرها باللغة العربية، هذا فضلاً عن المطبوعات الحكومية والواقعية المصرية. — ولا زالت الدار

عامة حتى اليوم تقوم بتصنيبها الشاق من تقديم الزاد الثقافي للأمة ولا سيما من الكتب الدراسية ، فضلاً عن المطبوعات الحكومية الأخرى .

وتدخل عليها التحسينات آنا بعد آن . وهي اليوم تعد نموذجاً عالياً بين دور الطباعة العربية في العالم .

وقد ظلت هي الوحيدة في الميدان حتى أنشأت بطريركية الأقباط ، المطبعة القبطية الأهلية ، عام ١٨٦٠ م وطبع فيها كتاباً دينية وأدبية ، ولا تزال موجودة حتى اليوم . ثم أنشأ عبد الله أبو السعود مطبعة عام ١٨٦٦ م طبع بها جريدة « وادي النيل » .

وقد أخذت المطابع تفدي تباعاً على مصر وتنشر بعدها ولا سيما القاهرة حتى أصبحت اليوم لا تُحصى عدداً . وكلها يشار إلى طبع الكتب العلمية والأدبية والفنية والقصص ودواوين الشعراء ، ومن أفضليها مطبعة دار الكتب المصرية .

وما أخرجه : مقدمة ابن خلدون وتاريخه وخزانة الأدب للبغدادي ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين للجاحظ ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، والأغاني لأبي الفرج ، والقاموس المحيط للفيروز باشا ولسان العرب لابن منظور ، ومقامات الحريري ، وغير ذلك مما يطول تعداده .

ولبعض دور الصحف مطابع ممتازة حديثة منها : « الأهرام » ، « أخبار اليوم » .  
وما ينبغي ذكره أن أصحاب المطابع والناشرين منهم بخاصة ، جرياً وراء الربح والمصالح ، يضايقون المؤلفين ويتحكمون في مؤلفاتهم ، ولا يقبلون على نشرها إلا إذا أنسوا منها رواجاً وضئلاً منها ربحاً مضاعفاً ، غير ناظرين إلى قيمة المؤلفات من الوجهة العلمية أو الأدبية ، وهذا لا يقدمون منها للنشر إلا الكتب الدراسية أو القصص وما إليها وذلك لرواجها بين جماهير القراء وأنصار المثقفين ، ومن هنا يتبيّن لنا خطأه هؤلاء الناشرين وأثراً لهم في التوجيه الثقافي . وعلى الدولة معالجة ذلك .

## (٤) الصحف

يقال إن الاشتغال بالصحافة مهنة قديمة . ولكنها في شكلها الحديث يد يضنه من أيادي الطباعة ومظاهر رائع من مظاهر المدينة الجديدة وآية من آيات هذا الزمان ، اشتغل بها الأوربيون أولاً ، ومن ثم انتقل الاشتغال بها إلى الشرق ومصر .

والصحف منبر حر للرأي العام في كل أمة ، تتلاقى فيها الآراء وتشتجر الأفكار وتحاجج المبادئ والنظريات . وقد صارت إحدى وسائل نشر الثقافة والعلم والأدب والفن . وميدان واسع للقد بأنواعه ، وهي قوة توجه الشعب وتردع المستبد وتعلن بالجديد . ومن أهم أعمالها تسجيل الحوادث والأخبار الداخلية والخارجية ، فهي بذلك مسجل لحياة الأمم وزراعتها ، وإحدى وسائل الاتصال بينها .

وقد أصبحت الصحافة في بلادنا إحدى الصناعات العتيدة التي يتشرف بها المتسبون إليها ، وعنيت بها بعض الكليات الدراسية العالية فأنشأت لها معهدآ خاصاً يخرج به متخصصون في هذه المهنة . وللصحفيين في بلادنا نقابة عظيمة الشأن ترعاه وتدافع عن حقوقهم .

وأول عهد مصر بالصحافة كان في أيام الجملة الفرنسية ، إذ كانت الجملة تنشر نشرات عدة بأوامرها للأهالى ، وقيل إنها أصدرت - أو كادت تصدر - صحيفه تدعى « التنبية » يشرف على إخراجها السيد إسماعيل الحشاب الشاعر وأديب عصره .

ثم أصدر محمد علي جريدة « الواقع المصرية » عام ١٨٢٨ م ، فكانت بحق أولى الصحف المصرية . وبعد أن شاركت زمنا في نشر العلوم والأداب اقتصرت على الأخبار الحكومية الرسمية . وكان يشرف عليها في مطالع أيامها أفاداً من الأدباء منهم: الشيخ حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوى ، ثم محمد عبده ، وسعد زغول ، وعبد الكريم سليمان .

وظلت «الواقف»، وحيدة في الميدان حتى عام ١٨٦٥ م فأصدر الدكتور محمد على البقللي مجلة طيبة شهرية سماها «البعسوب» ثم تلاه عبد الله أبو السعود فأصدر جريدة «وادي النيل» عام ١٨٦٦ م وكانت تصدر مرتين في الأسبوع. ثم أصدر إبراهيم المويحي ومحمد عثمان جلال جريدة «نهرة الأفكار» سنة ١٨٦٩ م مرة في الأسبوع. ثم ظهرت «روضة المدارس» عام ١٨٧٠ م وكان يكتب فيها زهرة مصر وجمع من عباقرها أمثال رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وإسماعيل الفلكى وحسين المرصفى وعد الله فكري. ثم أصدر الأقباط جريدين هما «الوطن» عام ١٨٧٧ م و«مصر» عام ١٨٩٥ م.

هذه بعض الصحف الأولى في أول عهد مصر بالصحافة، ولم تكن منتظمة الظهور. ثم صدرت «الأهرام» سنة ١٨٧٥ م لسليم تقلا وبشارة تقلا، ثم المحروسة سنة ١٨٨٠ م لإسحاق نقاش وسليم نقاش. والمقطم، سنة ١٨٨٨ م لفارس نمر ويعقوب صروف. وأصحاب هذه الصحف من أبناء الجالية السورية وهم أسبق في هذا الميدان من المصريين.

ثم ظهرت أول جريدة وطنية عام ١٨٨٩ م وهى : «المؤيد»، للشيخ على يوسف فسقانت لساناً للأمة وترجماناً عن المسلمين. ثم «اللواء» لمصطفى كامل زعيم الوطنية الأول ورئيس الحزب الوطنى، فكانت أولى الصحف الخالية السياسية.

وتواتى بعد ذلك صور الصحف المصرية وتنوعت، ومنها «الجريدة» لآحمد لطفي السيد، و«الأخبار» لأمين الرافعى، و«التنكية والتبكير» لعبد الله النديم، و«كوكب الشرق» لآحمد حافظ عوض. و«الأفكار» و«النظام» و«الجهاد» و«المصرى». وكان من بينها المجلات الشهرية مثل «الهلال» و«المقطف»، والأسبوعية مثل «الرسالة» و«الثقافة».

وقد كان لنشاط الحركات السياسية وتعدد الثورات والأحزاب، ولاتساع الحركة التعليمية واتعاش روح التفكير أثر بارز في تعدد الصحف وتنوعها

وازدهارها ، فقد كانت مرآة لكل أولئك ، وكانت بالتالي مؤرخاً ومعلماً لطبقات الأمة بما تنشره منه .

وقد احتجب كثير من الصحف والمجلات التي ذكرناها إما للعقبات المالية ولما بأمر الحكومة لما كان فيها من مهارات حزبية ونقدات جارحة . والمشهور اليوم : الأهرام والجمهورية والشعب والأخبار الجديدة وأخبار اليوم والمساء والقاهرة ، ومجلة الرسالة الجديدة ، والمجلة ، ومجلة الأدب . وغير ذلك .

ويجدر بنا أن نشير إلى لغة هذه الصحف والمجلات . ونسجل أنها كانت تسير قدماً نحو الكمال . وقد تدرج ثرثراً كاماً تدرج النثر الكتابي بعامة ، في كل نواحي نشاطها ، وأنها كانت إحدى أسباب المجنوح إلى السهولة والوضوح والجزالة معاً في الأسلوب ، ذلك لأن من أهم ما كانت تعنى به ، لغتها وأسلوبها وإسقاغ ثوب من السهولة والوضوح عليهما ، مع الاناقة ولطف الاختيار والترابط وحسن العرض ورعاية الذوق البلاغي والمحافظة على قواعد اللغة مع رغبة واضحة في تجديد التعبير ومحاولات موقفة في ذلك . فكان لها الأثر الصالح في ترقية أساليب قرائتها ، وبخاصة الشباب المتأدب بها ، إذ أفادته الكثير من أساليب اللغة وترافقها السلامة الجميلة ، ولبعضها كالأهرام والمقطم « كان » أحياناً مقالات افتتاحية أو نحوها ، في معالجة موضوع وطني أو اجتماعي أو سياسي ، هي نماذج من النثر الرفيع ، جدة في المعانى وحنكة وكىاسة في التعبير عنها . والآن في كل من الأخبار الجديدة والجمهورية والمساء والشعب ثلاثة ممتازة من الكتاب منهم المحدث والمخضرم ، يدربون الصفحات الأخيرة منها بمقالات هي آية من آيات الكتابة — في غالب الأيام — يعالجون فيها شتى الموضوعات من سياسية أو اجتماعية أو فنية أو أدبية أو علمية أو فلسفية . أو غير ذلك .

إلا أنه مما يؤسف له أن بعض الصحف لا يخلو من الإسفاف أحياناً .

ويحشو عباراته بالعامي والدخيل والعبارات السوقية ، بل اجترأ البعض فدعا إلى نبذ الفصحى واصطدام العامية جملة في أساليب الصحافة وغيرها. وهى دعوة خطيرة ينبغي أن يتتبه لها الداعون وأولو الشأن في الدولة .

## النَّهْضَةُ فِي بَلَادِ الشَّامِ

### ١ — تمهيد :

كانت بلاد الشام تابعة لمصر في عصر المماليك ، ثم وقعت فريسة في يد الأتراك العثمانيين فسادها واضطراب . ولما وقع النزاع بينهم وبين محمد على حاربهم فيها بقيادة ابنه ليراهيم ، فاحتازها نحو تسع سنوات إلى سنة ١٨٤٠ م. ثم عادت بعدها إلى العثمانيين فعاد إليها الفساد والاضطراب ، وظلت حتى احتلها الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى ، ثم جلووا عنها بعد الحرب العالمية الثانية ، بعد ثورات جاححة من أهلها وتضحيات كبيرة . وبذلك أصبحت حرة مستقلة وهي مكونة من جمهوريتي سوريا ولبنان . ولا تزال عين الاستعمار — ولا سيما الأميركي — متطلعة إليها . — وفي خلال تلك الفتن المتواتلة هاجر كثير من أهلها إلى ديار أخرى فاستوطنوها وصاروا من أهلها وزاولوا نشاطهم فيها ، كصر وأوربا وأمريكا . وكانت لهم يد طولى في نشر العربية وآدابها في تلك الأوطان .

### ٢ — النَّهْضَةُ الْأَدِيَّةُ وَالاجْتِمَاعِيَّةُ :

ظللت بلاد الشام تضرب في ظلام دامس تقشها الجهة كا غشت البلاد المصرية في عهد العثمانيين . غير أنها في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، أخذت تفيق من سباتها وتتباعد فيها حياة أدبية واجتماعية جديدة ، وذلك بجملة عوامل ، منها : وفود التجار الأجانب إليها لاستيطانها واستغلال أسواقها ، فنشروا عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم بها ، وقد عاونتهم الامتيازات . ومنها توالي المطبوعات الأدبية والعلمية عليها ، عربية وغير عربية ، من مطابع مصر والستانة وأوربا ، فكان لها الأثر الحميد في يقظة فكرية عاون على

نشاطها كثير من المثقفين الوطنيين الذى تلقوا علومهم في أوربا — هذا إلى انتشار المبشرين المسيحيين في أرجاء هذه البلاد وأفدين من أوربا وأمريكا رغبة في نشر مذاهبهم الدينية ، وكان قدومهم مبكراً في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، ومنهم المرسلون الاميركان « البروتستن » ، ومنهم اليهوديون « الكاثوليك » . وكان التناقض — ولا يزال — بينهم شديداً ، أفادت منه البلاد فوائد قيمة . وقد استروا بستان التراث والطب ، وبالتعليم ، نشراً لدعائهم ، لذلك أنشئوا المستشفىات والمدارس والأديرة والكنائس في طول البلاد وعرضها ، واتخذوا اللغة العربية — وهي اللغة الوطنية — لغة للتعليم تقرباً إلى الشعب ، فكان لها بذلك حياة جديدة راقفة .

وقد سارع رؤساء الطوائف الدينية المحلية كالمارونية والروم الأرثوذكس ، إلى مبارأة هؤلاء المبشرين الطارئين ، في نشر المدارس لأبناء طوائفهم حرصاً على مذاهبهم ، فكان في هذه المنافسة كسب فكري جديد . وقد وجدت هذه الأسباب في أهل الشام فقوساً مستجيبة وعقولاً ملية ومتابعة وبيقة ، لما فيهم من ميل طبيعي إلى الأدب والعلم والتفكير . فنهضت البلاد نهضة محمودة وظهرت فيها الطباعة والصحافة وانتشرت المدارس الحديثة والنواحي والجمعيات الأدبية والعليمة وما إلى ذلك ، وإليك كلة عن أهم مظاهر هذه النهضة :

١ — المدارس : قبل إنشاء المدارس الحديثة في بلاد الشام ، كانت الدراسات الإسلامية فيها تتلقى على شيوخ العلم في المساجد ، وكان بعض الطوائفنصرانية بها مدارس مبنية هنا وهناك حيث تكثّر جالياتهم .

ولما وفد المبشرون الدينيون نشروا المدارس الحديثة للبنين والبنات في مدن شتى مثل دمشق وحلب وحمص وحمص وطرابلس . واقتدى بهم رؤساء الطوائف الدينية الموطنة ثم بعض كبار الوطنيين الغيورين ثم حكومة البلاد . فكثّر عدد المدارس وزاد المترجون فيها ، وكان لهم الفضل الكبير على النهضة الشامية الحديثة ، وكان لبيروت نصيب من ذلك كبير لكثره ما أنشأه بها من المدارس .

وأهم هذه المدارس :

(١) المدرسة الإنجليزية : أنشأها مسز بوين طمسن سنة ١٨٦٠ م  
في بيروت للبنات .

(ب) الجامعة الأمريكية : أنشأها المبشرون الأميركيون في بيروت  
عام ١٨٦٦ م وبها كلية للطب ، وكلية لطب الأسنان ، وكلية علية . وتخرج بها  
عدد كبير من الأطباء والصيادلة والمعلمين والكتاب والأدباء ، فزادوا بعضهم  
تحرير الصحف والمجلات ، وشاركوا في إدارة شئون البلاد . وكانت العربية  
لغة التعليم بهذه الجامعة فانتشرت آدابها قد يها وحدتها بين الشاميين ، وأقدم  
كثير من متخرجيها على الترجمة والتأليف بهذه اللغة . غير أنها غيرت منها منهجها هذا  
وجعلت الإنجليزية لغة التعليم ، فضلاً عن تحرر جوها الجدد عن سابقهم في العربية .

(ح) الكلية اليسوعية : أنشأها الآباء اليسوعيون في بيروت عام ١٨٧٤ م  
ويتعلم الطلاب فيها باللغة العربية عدة علوم منها : الطبيعتيات والرياضيات  
وعلوم التجارة والفلسفة والتاريخ والفالك والطب وغير ذلك ، فضلاً عن اللغات  
الأجنبية ، وقد عدلت هي الأخرى عن التعليم بالعربية ، أخيراً .

(د) المدارس الوطنية : منها ما أنشأه الأفراد . ومنها ما أنشأه الحكومة .  
ومنها الإسلامي وغير الإسلامي ، وهي كثيرة منتشرة في أنحاء سوريا ولبنان .  
ومنها «المدرسة الوطنية» ، أنشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٣ م فازدهرت  
بها الدراسة ثم أُغلقت عام ١٨٧٦ م . و«الكلية العثمانية» ، وقد نمت واتسعت  
منذ عام ١٩٠٠ م .

٢ — الطباعة : السوريون أسبق الأمم العربية إلى اصطناع الطباعة العربية .  
لقد عرقها سوريا في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي . وظهرت في «حلب»  
مبكرة إذ طبع بها الإنجيل عام ١٧٠٦ م . ثم ظهرت في مدن لبنان وغيرها ،  
وأخذت في مشاركة النهضة بما تطبعه من كتب ثقافية ومدرسية وصحف أدبية وعلمية .  
ومن أهم المطابع : «مطبعة القديس جاورجيوس» أنشئت عام ١٧٥٣ م  
وهي أقدم مطابع بيروت ، و«المطبعة الأمريكية» ، أنشأها المبشرون الأميركيون

في بيروت عام ١٨٣٤ م، و «المطبعة الكاثوليكية»، أنشأها الآباء اليسوعيون عام ١٨٤٨ م وهي من أرقى مطابع سوريا وأسقفاً فضلاً في نشر كتب الأدب والتاريخ واللغة والدين والدراسة. و «المطبعة السورية»، خليل الخورى صاحب جريدة «جريدة الأخبار»، و «مطبعة البستانى»، التي نشرت جريدة «الجنة»، و «الجنان»، وكتبه «محيط المحيط»، في اللغة و «دائرة معارف البستانى»، وتوالى إنشاء المطابع وكثير ما تقدم إلى موائد الأدب والعلم من أسفار قيمة.

### ٣ — الصحافة: كانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى إنشاء الصحف العربية.

على نحو ما بيننا. ثم ظهرت الصحف العربية في القسطنطينية منذ عام ١٨٥٥ م. وفي سنة ١٨٦٠ م ظهرت بها جريدة «الجوائب» للأديب الكبير أحمد فارس الشدّياق وظلت زمناً طويلاً معرضاً لأرباب الأقلام والأفكار، وعاشت نحو ربع قرن. وتولى بعدها صدور الصحف العربية،

ولكن الصحافة العربية يكتر في بلاد الشام إذ ظهرت، بها نشرات المبشرين الدينيين منذ عام ١٨٥١ م. وهكذا بدأت بها الصحافة دينية تبشيرية. ثم ظهرت «جريدة الأخبار»، خليل الخورى عام ١٨٥٨ م وتعتبر أولى الصحف العربية في سوريا واتخذتها الحكومة لساناً لها مدة، وعاشت أكثر من نصف قرن. ثم نشطت الصحافة السورية نشاطاً ملحوظاً منذ عام ١٧٧٠ م إذ صدرت بها «الزهرة» ليوسف شلفون و «البشير» للأباء اليسوعيين، و «الجنة»، و «الجنان»، لبطرس البستانى، و «النحلة»، للقس لويس صابونى، وغيرها.

وكان المسيحيون — كارأيت — أكثر نشاطاً من المسلمين في باب الصحافة ومن الصحف الإسلامية «ثمرات الفنون» وكان يديرها السيد عبد القادر القباني، وغيرها.

والآن تبدى دمشق وبيروت نشاطاً صحفياً كبيراً بداعم التقدم العلمي الجديد، وبداعم الأحداث السياسية الملاحقة. وتنقسم صحافتها بالتراثات الأدبية الأصيلة وبخاصة المجالات الأسبوعية أو الشهرية ومن بينها مجلة الأداب التي تصدر في بيروت.

ومن أركان النهضة السورية الحديثة، وأعلام الأدب والشعر والصحافة والعلم والتأليف: الشیخ ناصیف الیازجي وابنه ابراهیم الیازجي . والدکتور

فديك المستشرق الأمريكي ، والمعلم بطرس البستاني وابنه سليم البستاني ، وأحمد فارس الشدياق ، وأديب اسحق ، وجبران خليل جبران ، ومحمد كرد على .

ملحوظات :

١ - نلاحظ أن النهضة المصرية الحديثة كانت في أول أمرها عسكرية حكومية علية ، متأثرة بحضارة أوربا ونظمها ثم هدأ نشاطها العسكري ، ونهض الأدب بجوار العلم ، وسارا قدما نحو الغاية ، وبالرغم من الاحتلال الإنجليزي سرى حب التهوض في الفوس وتحمس الشعب وتنافس أبناؤه فصارت النهضة نابعة من الأمة نفسها ، ولم تكتص في يوم من الأيام ، بل تقدمت في شتى مراحلها . والشاهد اليوم أن الأمة حكومة وشعباً متساندان في العمل على التقدم السريع في كل مضمار سواء أكان في العلم والأدب ، أم في الاقتصاد والمال ، أم في تصنيع البلاد ونشمير أموالها واستخراج كنوز أرضها ، أم ثبّيت حريتها وأسلالها وسيادتها . كما أن حكومة الثورة معنية كل العناية بالتعليم العسكري وتجهيز جيش مصر بالمعدات الحديثة مع التدرب عليها ، وكذلك بنشر التعليم الريادي ، إيماناً منها بأن العصر عصر الشجاعة والقوة . وقد قطعت في ذلك أشواطاً واسعة . هذا مع عنايتها بألوان التعليم الأخرى .

أما النهضة السورية الحديثة فقد يكرت بعض التبكيّر عن النهضة المصرية لوفود التجار الأجانب والمبشرين الدينين إليها . وكانت منذ بدئها أديبة أهلية غير حكومية . ثم أخذت تتعرّف نظراً لقصوة الحكم العثماني وما انتاب البلاد من فتن وثورات ، وما دخل إليها من نفوذ أجنبي ، فتأخرت بلاد الشام عن مصر ، وأصبحت اليوم تستمد من صفاتها وطبائعها العلية والأدية ، ومن أساتذتها .

٢ - ونلاحظ أيضاً أن النهضة المصرية لم تنس بسمة دينية منذ مطلع فجرها ، ولعل هذا سبب التأخير في إصلاح الأزهر إصلاحاً شاملًا ، على أن المحاولات تبذل في مناسباتها لإصلاحه ، ثم للاستفادة من النزعات الدينية السليمة في النهضة ، وهذا أنشئه منذ سنوات المؤتمر الإسلامي ، للعمل على بث الثقافة الإسلامية في مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية ، واستخدام ذلك وسيلة لربط هذه الأمصار برباط وثيق يعاونها على التكتل ضد الأجنبي المستعمر والمستغل .

أما النهضة السورية فكان للنفاسات الدينية أثر ملحوظ في صنع النهضة

بصيغة دينية ، وقد نبعثت في أول أمرها من المستشفيات والمدارس والأديرة والكنائس . وقد عاون على ذلك كثرة النصارى ببلاد الشام . وقد بُرِزَ كثير من هؤلاء وشاركوا في بناء نهضة بلادهم ، وظهرت الصحافة المسيحية قبل الإسلامية ، ثم نهضت الجماعات الإسلامية فعملت على نشر التعليم الإسلامي والثقافة العربية ، ولكنها لا تزال حتى اليوم في حاجة إلى المزيد والمعرفة .

٣ - وللاحظ أن اللغة العربية اتُخذت لغة للتعليم في مصر في بدء النهضة ، وصارت اللغة الرسمية للدولة ولذلك بُعثت وخلقَت خلقاً آخر ، وهي وإن شاركتها اللغات الأجنبية — الإنجليزية وفرنسية — في الميدان أحياناً ، كان لها في النهاية الغلبة عليها . ثم تعصبت لها الأمة حكومة وشعباً ، وهكذا صارت أدلة العلم والأدب ، وألفت بها الكتب الجديدة ، وعربت إليها الكتب الأجنبية ، ويحاول كثير من أهل الفضل والاحمدة من العلماء تطويرها للعلوم الكونية الجديدة . ولا تزال حتى اليوم ، لها السيادة الأولى في شتى مراقب الدوحة والشعب .

أما النهضة السورية فقد اتُخذت العربية لساناً لها منذ بدئها ، وكانت لغة التعليم في المدرستين الكبيرتين بيروت وهما الجامعة الأمريكية والكلية اليسوعية ، مع عناية محمودة بأدابها ، شعرها وثرها ، والعمل على تقويم لسان الناشئة بها ، وقد أقدم على التأليف بها أو الترجمة إليها كثير من أساتذة المدرستين ، فتخرج على يدهم كثير من متلقى سوريا وأدبائها الذين كانوا نموذجاً طيباً في فهم اللغة وأدابها ومن اولة الكتابة والنظم بها ، كما كانوا متخصصين لها وذادة عنها . وكان من أثر ذلك أن سبقو المصريين في ميدان اللغة والأدب والصحافة ، حتى إن منهم الطليعة الفاضلة التي أنشأت الصحف بالبلاد المصرية .

إلا أن المدرستين المذكورتين — وكانتا إلى حد كبير مصدر النور والعلم ببلاد الشام — عدلتا منذ حين عـ. التعليم باللغة العربية ، إلى الإنجليزية والفرنسية ، فكان ذلك سبباً في ضعف المتخريجين في العربية ضعفاً واضحـاً ، وكان في جملة الأسباب التي عافت النهضة الأدبية عن مساماة نظيرتها بمصر ، كما هو مشاهد في الآونة الحاضرة .

ينقسم الشّرّ ثلاثة أنواع : محادثة . وخطابة ، وكتابه ، وإليك كلمة عن كل نوع :

المادة

١ - المحادثة أو لغة التخاطب هي تلك اللغة العامة التي يتخاطب بها سائر أفراد الشعب في أحواض المعاشرة . وإذا كان قياس رقم هذه اللغة - في نظرنا - هو مبلغ قربها أو بعدها من العربية الفصيحة المعرفة ، وجدنا أن لغة المحادثة في بلادنا كانت عامية ملحوظة محقة وغاية في الانحطاط والضعف والضيق ، في أول العصر الحديث ، كثيرة الامتزاج باللفظ الدخيل من تركي وغيره . تشهد بذلك ، تلك المذاجر الكتائية التي زرناها في منشورات نابليون وكتاب الجبرق المؤرخ ، وأوامر محمد على باشا ، فإن الكتابة فيها بادية المهرال واضحه القلق ، وهي - إلى حد كبير - صدى اللغة العامة الذائنة على ألسنة الشعب جينذاك . وهذا أمر طبيعي إذ أن الشعب المصري ابلى بمحن كثيرة متلاحقة كالاحتلال العثماني واستبدادهم وإغفال دور التعليم وغضوب موارد الثقاقة ، والانقطاع عن العالم الخارجي . فحمل أدبه وتطامن تفكيره وضعفت لغته .

٢ - ثم كان ليقظة البلاد في مطلع العصر الحديث ، وتنبئه خواترها ، وتنقيف بنائها ، أثر ماف الترفيه عن هذه اللغة العامية . غير أن هذا لم يهدوا محموداً إلا منذ عصر إسماعيل ، حيث نشطت الآداب وتيقط الذوق الأدبي ، وبدأت عوامل الثقافة الألدية في الانتشار . فكان لذلك صدى في لغة الشعب . فارتقت رقياً ما ، ورفه عنها بعض الترفيه : وآية ذلك انتشار شعرها - الزجل - ورواج سوقه وتفوق بضاعته عند الخاصة وال العامة ، في ذلك الجيل . وقد بلغ الرجالون في زمن إسماعيل وتوفيق منزلة طيبة شجعهم على من اولة ق THEM ،

ومنهم : محمد جلال عثمان بك ، والسيد عبد الله الدليم ، والشيخ محمد النجار ، والشيخ أحمد القوسي .

٣ — ومنذ تيقظت البلاد يقطنها السياسي الكبرى وأقبلت على التعليم بجمع نفسها ، وتفشت فيها عوامل الثقافة بجميع وسائلها من طباعة وصحافة وإذاعة ومحفلات تكريم وتأييد وانتخاب ومناسبات سياسية مختلفة ، وشهدت عدداً لا يستهان به من الخطباء المفوهين والكتاب القادرين يخطبونها أو يكتبون لها بلغة عربية سليمة فصيحة مبنية سهلة المأخذ واضحة العبارة ، يصوغون فيها أعقد خفايا السياسة ، وخفى مشاكل القضية المصرية ، فيزيرون عنها العقاد ، ويكشفون الحفاء ، لأن همهم إبرازها سافرة للشعب حتى يفهمها ويقضى قضاؤه فيها — كل ذلك كان له أثر بالغ في لغة المحادثة الشعبية ، فاتسع نطاقها وكثرت ألفاظها وتتنوعت أساليبها وتهذبت عبارتها . وأخذت العامة يرددون فيها الألفاظ والتراتيب التي يسمعونها من الخطباء ، وما يقرؤه عليهم قارئوهم في المجالس والمقاهي من أخبار الصحف ومقالات الرعماء وأحاديثهم ومقالات الكتاب .

وهناك أسباب أخرى رفعت عن العامية في زماننا . منها : نظم طرق التقاضي واشتراط إقامة المحامين في بعض القضايا ، وكثرة قضايا العامية التي تدفعهم إلى الالتحلاط بأهل القضاء والمحاماة في شافونهم ويتأثرون بجديتهم ويتلقون منهم ألفاظاً وأساليب عربية فيها مصطلحات عدة . مثل رفع الدعوى ، والادعاء والاستئناف ، والتأجيل ، والمعارضة ، والإشكال ، ورد القاضي ، وعرض الحال ، والطعن ، وغير ذلك ، فتجرى هذه الألفاظ على ألسنتهم في أحاديثهم العادية بل ونكاتهم البلدية .

ومنها انتشار الأغانى والآنسات وبدول والحوارات في الصحف والمذيع ، ودور الخيالة على ألسنة المغنيين والممثلين ، وكذلك في دور التعليم بين الفرق التئيرية والموسيقية ، ومهمما ركز هذه الأغانى ، فهي أرفع وأرق من لغة الشعب العامية وأقرب منها إلى العربية الفصيحة ، فهي وسيلة — إذن — للترفيه عن لغة الشعب وأداة لإصلاحها .

ونذكر بخاصة — أن بعض هذه الأغاني مصوغ في قالب عربي أكثر فصاححة وإعراباً ، بل منها العربي الفصيح المعرب ، ومنها الشعر الجيد الراق كـشعر أمير الشعراء شوقي بك ، ونسمع بأنفسنا أفراداً من العامة يرددونها كما هي ، عربية معربة وإن ندت معانها عن أفهامهم — وإذا رأينا أن تعينا كثيرون العناية بهذه الأغاني والآناشيد ، عجول إلى حفظها ، سريعاً إلى ترديدها شعرنا بأهميتها وضرورة العناية بها ويا صلاحها وصقلها وحسن اختيارها ، لتكون وسيلة ناجعة إلى صقل منطق الشعب بصدق العربية السليمة .

من هذا وذاك نشعر أن لغة التخاطب بيننا قد ارتفت رقىً لا يأس به ، وأصبحت الآن أقرب إلى الفصيحة منها أول العصر الحاضر . وقد ترفع كثير من الأدباء عن نظم الزجل ، مؤثرين عليه نظم الشعر الفصيح ، فهو أمنع وأخلد وبخاصة لما رأوا السادة والقادة وعامة المثقفين ، بل والناشئة المتأدبة تميل عن سماع الزجل إلى سماع الشعر الفصيح — وهذا كله ما يبشر بمستقبل سعيد رافقه ، تعود فيه ألسنة الشعوب العربية إلى التخاطب بلغة القرآن والحديث .

ومما يجدر بنا ذكره بهذه المناسبة ، ما سمعناه من كثيرين من الخبرين ، من أن لغة عوام مصر — على ما بها وعلى تشعب لهجاتها واختلاف أدائها بين شمال مصر وجنوبها ، وبين شرقها وغربها — خير من لغات عوام الشعوب العربية الأخرى ، وأقرب منها إلى الفصيحة .

على أن لغتنا العالمية اليوم — على الرغم من تقصحها ورقها واتساعها بما كانت عليه أول العصر — لا تزال ملحونة ، تعانى ضرباً من التحريف . في حروف كلماتها أو شكل حروفها ، أو اشتقاء مفرداتها ، أو طرق التعبير عن المعانى والأفكار والصورات المختلفة ، كما أنها تزخر بعدد ضخم من الألفاظ والتراكيب الدخيلة من إنجليزية وفرنسية ونحوها . وذلك لشدة اتصالنا واحتلاطنا اليوم بالجاليات الأجنبية ، في المصانع والأسواق والمساكن وبعض المؤسسات العلمية والاقتصادية وغيرها ، على أن هذه لوئه لا تخلو منها إحدى لغات البشر ، وفي اللغة الفصيحة نفسها لوئه مثلها .

و- ش — ولا يزال يعيش بيننا — عدد من الأدباء الرجالين ، ينظمون الزجل في شتى الأغراض كالغزل وال مدح والرثاء والوصف ، وأفضل مانظمه فيه ، نقد الحياة الاجتماعية الحاضرة وما فيها من أوضاع : ونحن نقرأ زجلهم أو نسمعه ، في الصحف أو المذيع أو نحوهما من وسائل النشر .

ولعل من حسن الحظ ، أن اللغة العامية في زماننا — دون سائر اللغات العامية العربية ، في العصور المنصرمة — قد قبضت لها الإذاعة الصوتية على أمواج الأثير . وأهم من هذا ، تسجيلها تسجيلاً كهربائياً مثلاً في الأغانى والأنشيد الشعبية ، والقصص والفكاهات والمحاكيمات ونحوها مما يفيض بالجدل والمحوار . وهذا التسجيل يعين المؤرخ — فيما بعد — على وعي هذه اللغة وتصورها تصوراً أكثر صدقأً ودقة ، مما تصورنا به اللغات العامية البائدة ، إذ لم يق منها أثر إلا مبعثرات من الأزجال وشنات من الأمثال ونحوها في بعض كتب الأدب ، روعى في تدوينها شيء من فصاحه الفصحى ، وذلك لا يعين على حسن تصورها تصوراً يرتاح إليه مؤرخ الأدب .

### الخطابة

كانت الخطابة على اختلاف أنواعها في حالة يرى لها منذ زمن بعيد . سواء وكانت في مصر أم في الشام أو غيرها من بلدان الشرق العربي . وقد زادت حالتها سوءاً في عهد العثمانيين لعدم الداعية إليها ، ولبكراة الأدوات التي انتابت اللسان العربي وأهله . فظل أمر الخطابة مقصورةً على خطب الجمع والأعياد ، وما إليها من خطب دينية . بل لقد دب الضعف في هذا النوع أيضاً ، وقلت القدرة على إحسانه . ومن هنا نشأت دواوين الخطب الدينية تتنق منها الخطبة المناسبة لل الجمعة أو العيد الذي يلقى فيه . وظللت كذلك حتى عهد محمد علي ومن بعده ، جدت لها عوامل أثرت فيها .

وقد تعددت أنواع الخطابة ، فنها الدينية والسياسية والعلمية ، وغير ذلك وإليك كلمة عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة :

## ١ - الخطابة الدينية

كانت الخطابة الدينية في أول العصر مقصورة على المسجد تتنى فوق المنابر، من خطباء دب في نفوسهم الضعف . فإذا دعوا الخوف والهلم في قلوب الناس من القبر وعذابه ، وبوم القيامة وحسايه . وزهدوهم في الدنيا ، ولم يتناولوا شئونها بالشرح والإرشاد إليها ، والتشجيع على مزاولة أحلالها ، والتبيير بحرامها . كل ذلك في عبارات مسجوعة وأساليب محسنة بكلمات وتراءٍ كيـ غـرـيـةـ فـوـقـ مـسـتـوـيـ السـامـعـينـ ،ـ الـذـيـنـ لـاـ يـفـيـقـونـ وـقـتـ السـيـاعـ إـلـاـ عـلـىـ لـفـظـ الجـلـالـةـ ،ـ أوـ ذـكـرـ الرـسـولـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ .

حتى كان عصر إسماعيل ، وفيه هبط مصر العالم الحكيم ، والمصلح الدينى الكبير السيد جمال الدين الأفغاني . فالتف حوله طائفة من متيقظى الأزهريين وغيرهم ، منهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سليمان ، ومحمود سامي البارودى ، وأنشئت النوادى وحفلت المجالس التي يخطب فيها هذا الداعية ، ويجادل ويحاور في العقائد الدينية وفي الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، ويدفع طلبه إلى الجدل والمحوار والمناظرة ، فتهضي الخطابة الدينية نهوضاً محموداً وأصبح أسلوبها خالياً من قيود السجع والبدع إلا بمقدار ، حاوياً الكثير من الأفكار والمبادئ الحيوية المبنية على تعاليم الإسلام ، والتي ترمى إلى الإصلاح الدينى ، كما أنها لم تعد مقصورة على خطب المساجد في المناسبات الدينية .

ومع أن الحكومة المصرية عن لها أن تخرج هذا الداعية ، جمال الدين الأفغاني عام ١٨٧٩ م في عهد الخديو توفيق ، لم يمع خروجه الآخر الصالح الذى تركه بها و بتلاميذه .

غير أن الثورة العرابية شبت واشتعل الناس بأمرها ، وتتابعت من بعدها الحركات السياسية حتى جيلنا الحال ، فغلبت ماعداها . فقتلت ذلك في عدد الخطابة الدينية وقر أمرها ، إلا ما كان يرد منها على لسان المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل .

### نهايتها وعوامله:

وظل لها هذا الفتور حتى برزت فئة صالحة من شبيبة خريجي دار العلوم ، ومنهم عبدالعزيز جاويش وعبد الوهاب النجاشي ، وانتعشت حالة التعليم بالأزهر وأنشئ قسم الوعظ والإرشاد في إحدى كلياته — كلية أصول الدين — وأنشئت بالأزهر إدارة خاصة بالوعظ والإرشاد ، وخصصت وظائف عدة للوعاظ . فانتشروا في المدن والقرى ، وخرجت إلى ميدان الحياة العمل شبيبة أزهرية ناضجة هذبت تهدياً حديثاً ، وشاركت — وهي تطلب العلم — في الحركات القومية فررت على الخطابة ، وعاود علماء الدين نشاطهم فنظروا إلى الدين نظرة جادة ، وشعروا بضرورة إصلاح أمور الناس به وإعادتهم إلى حظيرته ، فنهض أعلام منهم — ومن غيرهم — يلقون العظات في المحافل والمجتمعات والإذاعة والمناسبات المختلفة ، ويتناولون آيات القرآن الكريم بالتفسير والشرح ، دروساً في شهر رمضان من كل عام ، أو على أمواج الأثير في صباح أيام من الأسبوع . وانتشرت التوادى والجمعيات الدينية التي جعلت من هبها مكافحة الفساد وتبصير الناس بتعاليم دينهم التي بها يعيشون سعداء في الدارين ، بجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية مكارم الأخلاق . نقول لما قيضت الخطابة هذه العوامل والأسباب ، نشطت نشاطاً ملحوظاً ، وبلغت اليوم مبلغاً محدوداً .

وأصبحنا نرى من الوعاظ وخطباء المنابر ، والعلماء الذين يتصدرون للدعوة الدينية ، منطبقاً سلماً بارعاً وعبارة متدققة مؤثرة ، وأسلوباً رائعاً عملاً بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة ، لا يعنون فيه بزخurf من البديع ولا يهرب من السجع ، مع لباقة في الاستشهاد بأيات القرآن وحديث الرسول وقصص التاريخ ، فضلاً عن دقة ما يتخذونه من الموضوعات الحيوية الشديدة الصلة بحياة الأمة ، بل الأمم الإسلامية الحاضرة بعقيدتها واجتماعيتها ومعاملاتها ، وارتباط بعضها بالبعض ونحو ذلك ،

ونحن مع اعترافنا بهذا التهوض المليوس ، لا نزال نرجو لمزيد الشمول ،

إذ نرى بأعيننا مبلغ ما يسود مجتمعاتنا الإسلامية من شرور، ومن جهل تعاليم الإسلام الصحيحة ، ومن عدم فهم للروح الدينية السليمة ، مما يحتاج إلى طب حاذق ، وعلاج حاسم ، يجثث أثره ويمحو خطره ، ومن هنا نشعر بأن المجتمع الإسلامي لا يزال في حاجة فصوى إلى خطباء دينيين متازين مزودين بألوان من الثقافة قديها وحديثها ، واسعى الأفق رحبي الصدر ، يشخصون الداء ويصفون الدواء .

ومن الخطباء الدينيين غير من ذكرنا ، الإمام محمد مصطفى المراغي الذي كان شيخاً للأزهر ، وكثير من نجفاء الأزهر الحالين .

نموذج من الخطابة الدينية .

خطب الاستاذ الأكابر المحفور له الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر خطبة يوم الجمعة ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٥٦ هـ . فوق منبر الأزهر ، فقال : بعد أن حمد الله وصلى على نبيه الكريم :

« أما بعد فيقول الله تعالى : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وينحرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أثني وهو مؤمن فلنحيته حياة طيبة ، ولنجزئهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ». على هذا الأساس تسب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل ، كريماً لا يقبل الضيم . وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صرح مجده ، وطوفوا به الآفاق . نافذ السلطان رفيع المكان ، ثم خلف من بعدهم خلف فتووا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات ، وضلوا السبيل ، حسبو الأمر مغامن تقسم وأسلاماً توزع ، ودنسوا علوة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمد في ذلك ، فقصست قلوبهم ، وصرقهم الأهواء عن المهدى الإلهى فسامت حاضرهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه » إلى آخر ما قال .

### ٣ - الخطابة السياسية

لم تعرف الشعوب العربية هذا الضرب من الخطابة منذ أمد طويل ، وهو الذي يواظد وجدان الجماهير وينبه خواطركم ، ويدرك نار الحماسة في صفو فهم ، ويلقتهم إلى حقوقهم السياسية في داخل وطنهم أو خارجه ، وإلى قضاياهم الوطنية وإلى ما ينبغي لهم عمله لازاماها ، ويشرح أعمال حكامهم مؤيداً أو معارض ، إلى غير ذلك .

وظهرت مصر ، في جملة البلاد العربية ، لا تعرف هذا اللون الخطابي ، حتى كان عصر إسماعيل ، فبدأ نجم الخطابة السياسية في أفق البلاد ، وما زال يعلو في سمائها شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أروع أنواع الخطابة ، وأكثرها تأثيراً في حياة البلاد وتوجيهها إلى مستقبلها ، وحتى أصبحت سلاح كثير من قادتها وزعمائها إلى غایتهم . ولا ينفع إذا قلنا إنها لون جديد من ألوان الأدب .  
ونجمل فيما يلي بعض أسباب نهوض الخطابة السياسية فنها تباعاً :

١ - إنشاء مجلس شورى التواب في عصر إسماعيل عام ١٨٦٦ م وهو لإحياء للمجلس المخصوص الذي ألقه محمد علي في أواخر عهده . وقد بدرت في هذا المجلس بادرة الخطابة السياسية . ولتكنها كانت ضعيفة ركيكة الأسلوب ، لم تخرج عن نطاق المجلس الذي كانت جلساته سرية .

٢ - ومنها وفود السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة ١٨٧١ م حتى عام ١٨٧٩ م ، والتفاف كثير من الناشرين والطلاب والشبيبة من حوله . وكان لا ينفي يخطب بينهم في الإصلاح الديني والخلق والاجتماعي السياسي داعياً إلى نهوض البلاد والشرق الإسلامي ، باتأفف نقوس تلاميذه روح الإقدام والجرأة وعشق الحرية وحب الوطن وبغض المستبد ، فكان بذلك مدرسة خطابية أطلقت عقال الألسنة وجرأتها على القول والاتصال ، فتهضي بذلك الخطابة السياسية . ثم نفي الرجل ، وبقيت روحه الوثابةذا كية في نقوس تلاميذه وأصدقائه أمثال محمود سامي

البارودى ، وإبراهيم اللقانى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول . وإبراهيم الهمبواوى .

٢ — ومنها قيام الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م التي جامت في أعقاب حركة جمال الدين في مصر ، وقد أذكى روح الخطابة في زعمائها وأظهرت قدرتهم الشاملة على ضبط مواقفها واتهاز فرصها ، وحسن الارتجال فيها ، ومنهم السيد عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، والبارودى .

٤ — ومنها ظهور مصطفى كامل الذي توفي في سن الرابعة والثلاثين عام ١٩٠٨ م . وكان منذ حداثته قوى العارضة ذكي الفؤاد شجاع النفس ، شديد الإيمان بوطنه وإسلامه . نزل إلى ميدان الخطابة وهو طالب ، فكافح عن البلاد ونافح ، وما زال ينافح بفائه من البياض وساطع من البرهان ، ورائع من الحجة ومتدفق من العبارة ، حتى جذب الانظار وخلب القلوب . فالتفت حوله شيبة البلاد ونابوها ، وتشبهوا به في الخطابة فكان وحده أستاذًا لمدرسة خطابية واسعة الأطراط تخرج بها كثير من زهرة شباب مصر ، كانوا دعائم لهضتها السياسية الكبرى . وكان أول زعيم وطني ملك أفردة الناس وألهب حاستهم بخطابه ، وخلب عقولهم وراعها وأيقظها ورد عليها كرامتها ، وغرس في التفوس حب الوطن ، ولم تطفأ من بعده تلك الجنوحة التي شب ضرامها أو رى زندها . وعاشت آثارها الصالحة حتى عادت أكثر اضطراماً وأشد اتقاداً، وذلك في سنة ١٩١٩ م . ومن أصدقها هذا الزعيم خليفته محمد فريد ، وعبد العزيز جاويش وحافظ رمضان .

وفي تلك الحقة كان قد أنشئ مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية فساعد على نمو الخطابة السياسية .

٥ — ثورة المصريين السياسية سنة ١٩١٩ م بقيادة الزعيم سعد زغلول ، وقد كان لسانها وترجمتها ، ومذكى تبرأها بمنطق فضيع وعبارة حماسية وحجة قوية وجمل مواتية متابعة ، حتى لقد قال هو عن نفسه ما معناه ، «إن المعانى تتناول على خاطره تباعاً سرائعاً ، حينما يقف على المنبر متجللاً» . وكانت الخطابة أسهل عليه من الكتابة ، ولذا وقف خطياً استمر الساعات الطوال .

بلا توقف ولا تعلم أخطأ في اللغة ، بعبارة فصيحة وواضحة قوية — وهو الشيخ المسن — فيملا النفوس حماسة ، والقلوب حمية . ولله الفضل في شعوب حب الوطن وروح التضحية وإيقاظ الشعور في مصر . وبسبب ذلك كله كان أستاذًا لمدرسة خطابية جديدة ، تخرج بها أفضل خطباء الثورة المصرية وزعمائها . وقد كان من عادته الخطابية أنه عند الوقوف ، يقف يحرك الإعراب ، لا بالسكون كاهي عادة الخطابة العربية . كما كان يرقق قافاته فتصير كافات ، وذلك لضعف في حنجرته . فقلده كثيرون من الخطباء في هاتين المخصوصيتين ، ولا سيما أولاهما .

٦ — انتعاش الحياة السياسية في مصر وسوريا وغيرهما من بلاد الشرق العربي وبخاصة بعد منح الدساتير وإنشاء المجالس النيابية ، عن طريق الانتخابات العامة ، ولذلك أثر كبير في شهد الهمة ونجاعة الخطابة ، والسمو بالخطابة السياسية إلى مستوى عال لم يعهد من قبل . ونحن نشاهد أن أيام الانتخابات في بلادنا مواسم خطابية جليلة الشأن كثيرة الإنتاج ، يتوجه فيها كثيرون من الناس حتى عوامهم ، على منابر الخطابة ، فيخطبون ويرجحون ويناظرون ويعاورون . وقد أصبح التبرير في الخطابة السياسية والقدرة على امتلاك زمامها وتجهيزها ، من أهم وسائل النجاح في حياة الخطيب ، فإيانها توصله إلى كرسى النيابة أو تروج مبدأه أو دعوه أو نحو ذلك . وكثير من كانوا نواباً وشيوخاً خطباء ، أرخت لهم الخطابة من خطاهم ، فكان النصر حليفهم والنجاح أليفهم .

وقد بلغت الخطابة السياسية اليوم مبلغاً تقييده عليه ، من عبارات سلطة وأسلوب مرسل قليل السجنعات ، ومعانٍ رائعة واضحة . وهي في جموعها بمحمل خالد للهبة الوطنية وأعمال المصريين . وقد شهدنا أخيراً عدداً من رجال الثورة الحاضرة وقادتها الأحرار يعتلون المنابر ويخطبون الناس في جليل الأمور ، فبمكون النفوس ويلغون الغرض ببيانهم الرائع وكلامهم البليغ ومنطقهم السليم وحجتهم البارعة ، وعلى رأسهم قائد الثورة الرئيس جمال عبد الناصر .

ولا بد من الإشارة إلى أن الخطابة كانت تتخللها العامية أحياناً ، لفظاً وتركيبياً

ولحنا . بل كان بعض الخطباء يخطبون بالعامية ، أو بالعامية آنا ، وبالعربية آنا آخر ، كالسيد عبد الله النديم ولبراهيم الهمساوى . ولكن هذه المقصة زالت شيئاً فشيئاً بفضل انتشار التعليم ، وتفصح العام ، وبفضل عباقرة الخطباء من زعماء ونواب ومنهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد وسعد زغلول ، وإسماعيل أباظة ، ومصطفى القايقى ، ومحمد أبو شادى ، وعبد العزيز جاويش ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وعبد الخالق ثروت ؛ وغيرهم كثيرون وبين ظهراً إننا عدد لا يستهان به من الخطباء السياسيين . ومنهم زعماء الثورة الحاضرة .

وينبغى لنا أن نذكر أن من خطبائنا من، يعتمد على إعداد الخطبة قبل إلقائها فتحفظها أو يقرؤها ، وهذه منقصة خطاطية ينبغي أن يتزه عنها الخطيب كما أن بعض الخطباء في داخل المجالس النياية كانوا يخطبون بلغة قرآن ثم يظهرها كتاب المجلس أو محرورو الصحف ، عربية تلبس ثوباً قشرياً ملؤه الفصاحة والبيان . وحذا لوراعي خطباؤنا العربية السليمة .

### نموذج من الخطابة السياسية :

١ — من خطبة للبرحوم مصطفى كامل باشا المتوفى سنة ١٩٠٨ م قال :

«إن في مصر قلة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل ، فلبست ثياب اليأس ، وقضت بظنوها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها في الأمة تشيط الهمم وإعاد العزائم . فلا تナدى في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قدماً من زمن طويل ، وليس لمن يفك عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً . وترى رجال هذه الفتنة البائسة يرمون كل رجل يقوم بالدفاع عن البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر ، قاتلين :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وعندى أن الرجال البائسين ، وإن كانوا أقل من القليل ، يضرون بلا دم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونـه . إذ أن قتل العواطف الشريفة ، وإنحدار نار الغيرة الوطنية أكبر جنائية تجني على الوطن وأهله . فليكن من واجبنا أن ترك

هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم ، تصدعهم أمواج الأفكار ، وتهبط بهم حتى يصلوا إلى شاطئِ الخير والرفاية ، فذكرهم عند ذنبِفساد مزاعهم وخطأ آرائهم ، ... الخ

٢ - من خطبة لزعيم سعد زغلول باشا المتوفى سنة ١٩٢٧ م ، خطبها بالإسكندرية بعد قطع المفاوضات مع رئيس الوزارة الإنجليزية في شأن المعاهدة المصرية الإنجليزية ، قال منها :

«نعم لم تتحقق أمانَ البلاد في هذه المرة . ولكن ما شعرت به من اتحادكم ، وما أحسسته من حرارة حماسِكم ، وما علّمت به من تصميمِكم أن تصلو إلى حكمكم ، يشجعني على أن أسير معكم إلى الهاية .»

«ومنذا الذي لا يتُشجع بهذه العزائم المعقّدة ! بهذه الأصوات المرتفعة من أعماق القلوب ؟ بهذه الخامسة المتأجّجة في الصدور ؟ لما سيمتموه سعيًا كريماً . ذلك السعي الذي لم يتتكلّل بالنجاح . نعم عزائم تحملني على أن أستميت في الحصول على استقلالنا .»

«قطعت الحادثات وعدت إليكم حافظاً كل حقوقنا ، فاستبقلنموني هنا الاستقبال الباهر . إننا لم نخسر شيئاً . بل كسبنا أن واجهناهم بحقوقنا وأدلتانا عليها . وأنهم يأبونها علينا بغير حجة ولا دليل . وأننا لا نعتمد إلا على أنفسنا . قالوا أجب علينا مضاعفة جهودنا وتمتين اتحادنا ، وأن تتشدد في التمسك بحقوقنا ، وألا ندع فرصة تمر إلا طالبنا فيها بحقوقنا . فما مات حق وراءه مطالب .»

٣ - ومن خطبة للرئيس جمال عبد الناصر ألقاها يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤  
بمناسبة عيد الثورة الثاني :

«أيها المواطنون :

«أحيفكم وأهشككم وأهيب بكم ، وأجدد العهد لكم ، أحسيكم تحية ملؤها الحب والإعجاب بكم ، تحية تستيقظ فيها ذكريات جهادكم وجهاد أجدادكم من أجل حريةِكم وكرامتكم .»

«أهشككم بالعيد الثاني لثورتكم ، ثورتكم التي علّمت لها سنتين طويلة ، وبذلتكم

في سبيلها تضحيات ثقيلة ، وارتقبتم انبلاج نهارها وشبو布 نارها ، في صبر المؤمن ولإيمان الواثق بحقه وبالله العلي العظيم . وأهيب بكم أن تضاعفوا الجهد وتواصلوا السعي وأن توقفوا أن ثورتنا في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ليست إلا نقطة الابتداء دفنا فيها الماضي ، ليخرج المستقبل إلى النور ، والمستقبل وديعة في أيدينا وأمانة في أعناقنا إن شئنا جعلناه بهيجاً مشرقاً ، وإن شئنا أحشاه حزيناً مخزياً ،

« وأجدد العهد باسمى وأسم إخوانى ، على أن تكون لكم وبكم ، وأن تكون لكم خداماً يعملون لوطركم ، ويسيرون من أجل أولادكم ، ويفنون في سبيل مجدهم ، وأن تكون خداماً صغاراً ، إن طمعوا في شرف الخدمة ، وإن زاحموا في سبيل العمل الصالح . متأسسين بقول خاتم الرسل والتبيين : « اللهم أحيي مسكنينا ، وأمتنى مسكنينا ، وأحضرني في زمرة المساكين » ،

### ٣ - الخطابة العلمية

الخطابة العلمية هي التي تعنى بمسائل العلوم والأداب والفنون ، والأمور الاقتصادية والأحوال الاجتماعية ونحو ذلك . فتتناولها بالشرح والتحليل والتعليق الدقيق ، وعرض ما يتراءى فيها من محسن أو مساوى . وبكون ذلك في حفل عام وعلى ملأ من الجمورو المستمع . فالخطابة هنا محاضرة أو درس شفوي بلقية أنساذ ضليع في مادته موافق في منطقه ، تجوده بدیهته ، وتسعده ذاكرته ، فيستنبط الكليات من جزئياتها ، ويستدل على الجواهر بأعراضها ، وهكذا .

ونظراً إلى صعوبة هذا الضرب الخطابي ، وأنه لا يعتمد على الوجдан والعاطفة : ولا ينبع من القلب إلا بقدر ، وأنه من عمل الذهن الحصين ، والعقل الموهوب ، وأنه يعتمد على الحقائق دون الحالات ، وعلى الواقع دون الأوهام ، افترق عن الضررين السالفين الديني والسياسي ، إذ معينهما الزرعة العاطفية والهزيمة الوجدانية . لذلك يضطر الخطيب الحاضر أن يراجع ذاكرته

وينجع حفائق موضوعه وي العمل على تنظيمها وعلى تهذيب عرضها ، قبل أن يقدم ويقف على منبر الخطابة أو مقعد الدرس .

وكثيراً ما ينكص الحاضر عن الإلقاء الشفوي المرتجح ، إلى الإلقاء من أوراقه بعد إعدادها ، ولكننا رأينا - وترى - كثيراً من ذوى الدراسة والذراية من أهل العلم ، من يرتجل الخطبة الجامحة النافعة فى أحد الموضوعات العلمية الشاقة العسيرة ، عفو الساعة ورهن الإشارة ببديهية حاضرة ، وذاكرة قوية ولسان مطواع . « وذلك فضل الله يؤتى من يشاء » .

وبعد فما مدى هذا الضرب الخطابي في بلادنا في عصرنا الحديث ؟

الخطابة العلمية عن الزمان أثرها وطوى خبرها منذ أمد بعيد ، ولم يسعدها بالظهور في العصر الحديث إلا في أيام إسماعيل .

ومنذ عصره قيضت الخطابة العلمية جلة أسباب جذبت بضعها ، وأبعدت من خطوها ، وأضفت عليها ثوباً من الحياة قشداً ، فاتسع نطاقها وامتدت آفاقها ، وأصبحت إحدى وسائل التهوض العلمي والأدبي والاجتماعي ، وبدت فيها روح البحث والإبتكار ، في عبارة سهلة ميسورة ، ودية موجة قوية جزالة ، وأنشاظ كريمة منتفقة ، بريئة من كلف السجع وجلوب البديع ، مع عناية تامة يبارز المعانى سافرة الأوضاح ، مكشوفة المعلم ، قريبة المأخذ خالصة من العقاد ، على الرغم من دقتها وعمقها وسموها ، مع حسن تسلسل وترتيب .

ونجد ذلك بعض هذه الأسباب في شيء يسير من التفصيل ، فنها :

١ - إنشاء المدارس الحديثة وانتشار الثقافة والتعليم ، وهذه هي الدعامة الأولى التي بفضلها يسمو كل بنيان علمي وأدبي واجتماعي ، وقد سبق لنا الحديث عنها وبيننا أطوال الحركة التعليمية في بلادنا ، ونصيب جيلنا الحاضر من هذه الدور التعليمية ، ومن الثقافة ، كبير .

٢ - استخدام طرق التربية الحديثة في دور التعليم ، وهي تدفع إلى اعتناد المدرسين على ، الذاكرة مع حسن المنطق وجمال البيان . - لاعلى قراءة الكتب

وتداول شرحاً مع الطلاب ، كما هي الطريقة القديمة . وتبدو هذه الطريقة الحديثة في الكليات العالية بخاصة ، حيث يعتمد المدرسون في تدريسهم على إلقاء المحاضرات الشفوية على الطلاب .

٣ — ويحصل بذلك ترين الطلاب أحياناً على الخطابة في بعض الموضوعات العلمية والأدبية والاجتماعية ، والمناظرة فيها سواء كان ذلك في حجر الدراسة أم في حفلات عامة .

٤ — والامتحانات الشفوية ، ومناقشة الرسائل العلمية المقدمة من طلاب الدراسات العليا في الجامعات ، مناقشة علنية ، كان لها أثر محمود في تشجيع الطلاب وجرأتهم على الخطابة العلمية .

٥ — تأليف الجامعات العلمية والتثيلية والخطابية من طلاب المدارس والجامعات ، ومن الطوائف الأخرى ، موظفين أو عمالاً مثلاً ، وتشجيعهم على الخطابة وتمرينهما على المناظرة ، وإذكاء روح المافسة بينهم في ذلك بشتى الوسائل . ولا يخفى ما لقن التمثيل من أثر في شهد الملكة الخطابية وتمكينها من الفوس والألسنة ، وقد أصبح في كل معهد دراسي — غالباً — فرقه للتمثيل .

٦ — انتشار الجمعيات الأدية التي جعلت في مقدمة غاياتها إذكاء روح البحث بين أعضائها في الموضوعات العلمية والتاريخية والاجتماعية ونحوها وتناول الخطابة فيها ، والنقاش حولها ، وقد سبقت الإشارة إلى مابذله السيد جمال الدين الأفغاني في سبيل تنشيط الخطابة بكافة ضروبها ، فقد ذكرت غراسه ، وكان هبوطه إلى مصر فاتحة عهد خطابي جليل ، إذ التف حوله جمع من أدباء مصر وسوريا ، فأدخلهم في عداد جمعيته المسؤلية الخاصة ، وكانوا يتناولون الخطابة في موضوعات مختلفة . منها : الديني والعلمي والخلق والتاريخي والسياسي . وكان مدرسة خطابة وحوار متقلدة ، لا يمل الخطابة والمحوار في منزله وفي المقهى وفي المجالس المختلفة .

هذا وقد تأسست جملة جمعيات أقل بعضها وبق البعض ، وتنذر منها ما يلى :

(١) الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى : أنشئت سنة ١٨٧٨ م في الإسكندرية — وهي غير الجمعية الخيرية الحالية — وكان الباعث على إنشائها الرغبة في بث

الروح السياسي والبعث الاجتماعي في نقوس المصريين، وكان أعضاؤها يتبدلون الخطيب ليلاً في الموضوعات العلمية والتاريخية، وكان من أعضائها السيد عبدالله التديم، وأحمد سمير، وأديب إسحق، وإبراهيم اللقاني وغيرهم، وقد أغلقت عند اندلاع الثورة العرابية.

(ب) جمعية الاعتدال، أنشئت في القاهرة سنة ١٨٧٦ م وغرضها بث روح الفضيلة والمرانة على الخطابة في الموضوعات الاجتماعية. وتولى رئاستها الدكتور فارس نمر وحفيظ بك ناصف، وكان من أعضائها أحمد زكي باشا وعلى يوسف، ويعقوب صروف وغيرهم، وقد عاشت زهاء ثلاثة سنوات :

(ج) ومن الجماعات المعاصرة لنا . جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، ولها فروع بالإسكندرية وغيرها من مدن القطر ، وينظم فيها عدد ضخم من علماء المصريين وشبيطتهم ، ورأسها في أول إنشائها المرحوم عبد الحميد سعيد . ومنها جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، ورأسها في أول إنشائها الشيخ عبد العزيز جاويش ، ثم أسعد لطفي نقيب الموظفين إذ ذاك ، وقد كان أعضاؤها يتبارون — ولايزالون — في كثير من الموضوعات النافعة علميًّا وأدبية وغيرها ، وتتنوع هاتان الجمعيتان نزعة دينية — ولو إلى حد — غير أن جمعية الأخلاق ، قد تحولت أخيراً إلى إدارة مدرسية تعنى بنشر التعليم فحسب .

٧ — انتشار النوادى الأدبية ، ولبعض الجماعات السالفة ذكرها — مثل جمعية الشبان المسلمين — نادٍ فسيح يربح بكل خطيب ومناظر . ومن هذه النوادى أيضاً ، نادى المدارس العليا وهو خاص بالمتخرّجين في المدارس العليا وتلقى به المحاضرات في كلٍّ من تاريخ وأدب وغيرهما ، وقد افتتح سنة ١٩٠٦ م ورأسه المرحوم عمر بك لطفي ، غير أنه أُغلق بعد سنين بقيام الحرب العالمية الأولى — وحاول بعضهم إعادة فتحه فلم تنجح محاولة . ومن النوادى المعاصرة : نادى المعلمين بالجزيرة بالقاهرة ، ونادى موظفي الحكومة بالإسكندرية ، ولكل نوع من خريجي الكليات والمعاهد العليا رابطة — غالباً — لها نادٍ تلقى فيه المحاضرات والمحاضرات في شتى الموضوعات .

٨ — تنظيم القضاة واشتراك النيابة والمحاماة عند نظر القضايا ، وعلاقة الجلسات ، ولهذا ينار رؤساء النيابة ووكالاتها ، ورجال المحاماة « الدفاع » ينشطون في ميدان الخطابة نشاطاً ملحوظاً ، وقد أثبتت هذه الحياة الجديدة ، وشهدنا عدداً من رجال النيابة والمحاماة ، تماذج علياً في الخطابة ، وفي الخطابة العلمية ، بما يفيضون به من بحوث فنية وموازنات قانونية ، وتحليلات نفسية ، واستنباطات منطقية معززة بالواقع والشاهد ، ومن هؤلاء الحسيني بك ، واللقاني بك ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون من المعاصرین الأحياء .

٩ — إعداد ميزانية الدولة وعرضها على مجلس النواب والشيوخ — والآن على مجلس الأمة — لمناقشتها ، وأثناء هذا العرض نظرر بمحملة خطب رنانة علمية فنية دقيقة يلقىها وزراء الدولة . ومقررو اللجان المختلفة بالمجلسين ، ويرد عليهم فيها بعض النواب المختصين ، وجميعهم يدعم خطبه بالبحوث الدقيقة المزودة بالأرقام الحسابية والأدلة المادية ونحوها .

١٠ — تطوع بعض أفراد العلماء بإقامة المحاضرات والمناظرات في شتى الموضوعات العلمية وما يتصل بها في القاعات الكبرى أو المسارح الفسيحة كقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية ، ومدرج الجمعية المغربية ، ومسرح حديقة الأزبكية ، وقاعة المحاضرات بجامعة القاهرة والجامعة الأزهرية وغيرها ، ويعتبر ذلك مظهراً حياً للخطابة العلمية وقدوة حسنة للشبيبة الناشئة تتفق أثيرها وتنسج على منوالها .

١١ — عقد المؤتمرات العلمية ونحوها ، وقد شهدت البلاد — وتشهد في كل عام تقريباً — عدداً منها ينبع فيها جمع من خوالي العلم والأدب بخطب فارهة ، ومحاضرات قيمة كما في المؤتمر الطبي ، ومؤتمر الثقافة وغيرها .

ومن الخطباء في هذا الباب : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وعمر لطفي ، وعد العزيز جاويش ، وإسماعيل أباظة ، والمرحوم أحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي وكثير من وزراء زماننا ونوابه وعلمائه الأحياء ، ومنهم طه حسين ، وكثير من أساتذة الكليات العالية وقادة الثورة الحاضرة ، وزرائها ورجالها .

### نحوذج من الخطابة العلمية :

١ - من خطبة للإمام الشيخ محمد عبده في الاحتفال السنوي للجمعية الخيرية سنة ١٩٥٢ م ، قال في التعليم :

« إن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأنخذ الشهادة ، لأنها شرط الاستخدام في الحكومة ، والسبب في رغبة الناس في خدمة الحكومة ، هو أنهم لعدم ثقفهم وبلجهلهم بطرق الكسب الواسعة ، وضعف همتهم عن سلوكيها يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه ، وإن كان وشلاً آسناً . الخ ».

٢ - من خطبة للأستاذ إبراهيم رشاد مدير قسم التعاون بوزارة المالية - كان - خطبها مساء ١٦ فبراير سنة ١٩٣٧ م بقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية . وموضوعها : « واجبنا التعاون بعد المعاهدة » ، قال منها :

« الآن وقد تغيرت الظروف الملائمة للحركة التعاونية من نظام ديمقراطي مستقر ، وتضامن وثيق بين الأمة والحكومة واستتباب وطيد بعد المعاهدة والاستقلال ، فما الذي نحن فاعلوه نحو التعاون وتعضيده ونشره ؟ إن العهد الحاضر من شأنه أن يحملنا تبعه أعمالنا ، ولا يدع لنا باباً للفرار من مسئولياتها فإذا ضعف التعاون بعد الآن أو جمد في مكانه ولم يتقدم ، فإن اللوم يوجه إلى الأمة والحكومة معاً . وبلفظ آخر يقع الذنب على المصري وحده ، وهذه الحقيقة الواضحة جديرة بأن تشحذ همة البلاد جميعها شعباً وحكومة ، وأن تخثنا على بذلك أفضى الجهد لتискين النظام التعاوني حتى ينتفع آثاره الإصلاحية في الريف والحضر على السواء ، الخ ».

### **الكتابة وأشهر الكتاب**

#### ١ - تمهيد :

انصرم عهد العثمانيين ، وبدأت تتشقّع سحب ظلمته ، وتجاب غياب دجنته والكتابة الإنسانية معتلة الأسلوب مختلفة التراكيب ، يحرى اللحن في أفواه

الكتاب مجرى الغريرة . وبخاج الأغراض الكتابية ضيقه النطاق أمام نواظرهم لضعف الثقافة وانتشار الجهل وقلة المستجب وفداحة الظلم ، حتى أصبح الكاتب المجيد هو الذى يحفظ عبارات متعرة يوم بها أنه يقلد الأقدمين .

ولكن ما اعتمت الكتابة أن درجت بها الأيام في مدارج الرق قليلاً قليلاً ، ونقلتها عوامل التهوض من طريق الموت إلى طريق الحياة . وتهيا لها من أسباب القوة ما أنجى على ضعفها فأزاله ، ولوى على عثارها فأقاله ، فأخذت الغضارة تدب في عودها ، والنصرة تبدو على جسدها . حتى بدت اليوم في ثوب قشيب كالدوحة الفيناء ، وارقا ظلها ، ممتدة أغصانها ، مفترقة أزهارها طيبة ثمارها .

## ٢ — وإليك موجزاً عن أدوار تدرجها مقفاة بنماذج تشرحها :

### (١) في أيام الحملة الفرنسية :

هذه فترة خمود وجود ، ووقفة بين موت وحياة . ووصلت فيها الكتابة إلى نهاية ما انتابها من ضعف وضيق وهزال ، غرضاً ومعنى وأسلوباً . ولعل خير ما يستشهد به هنا ، ما كان يذيعه نابليون على المصريين من المنشورات المحررة باللغة العربية ، يكتبها فئة من المستشريين والمترجمين الذين وفدو مع الحملة ، وكذلك ما كان ينشر في صحيفة «التنبية » من الأخبار التي يحررها السيد إسماعيل الخشاب — كما أشرنا من قبل — هذا إلى بعض الرسائل الإخوانية .

ومن النماذج ما ورد في بعض منشورات نابليون . قال :

« والواجب على الشياخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلazمون وظائفهم . وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً . وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجموع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لأنقضاء دولة الماليك ، قائلين بصوت عال : أadam الله إجلال السلطان العثماني ، أadam الله إجلال العسكر الفرنسي . لعن الله الماليك . وأصلح حال الأمة المصرية » .

(ب) في أيام محمد على :

جدت في أيام محمد على بعض العوامل التي كان لها أثر في إنجاز الكتابة ، منها اتخاذ العربية أداة للتفاهم والكتابية في دواوين الحكومة بدلاً من الفرنسية ، كما أصبحت — إلى حد — لغة التعليم في المدارس ، وترجمت إليها كتب ومحاضرات علمية يحتاج إليها طلاب المدارس المذكورة . وقد قام بالترجمة أيضاً عدد من رجال اليعوث المصريين ، بعد عودتهم إلى وطنهم . كما صدرت الوقائع المصرية ، وقام بتحريرها الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، بمعونة زميله الشيخ شهاب الدين إسماعيل الممكى .

بهذا وغيره طرأ النضج على الكتابة العربية ، وأخذت تدخل دور القاهرة ، ولو كانت هناك حركة أدبية ترمي إلى إحياء آداب اللغة ، بجوار تلك الحركة العلمية الواسعة ، لفقدت الكتابة الأدبية من وراء ذلك فائدة عظمى ، على نحو ما وقع في بلاد الشام التي يكرر إلى استيطانها تجار الأجانب وبمشروعهم الدينيون ، فكان لهم أثر يذكر في نشاط آداب اللغة ونهوض الكتابة — كما بينا . وحقاً ، كان بمصر أمثال هؤلاء التجار المبشرين ونشروا مدارسهم في كثير من مدن القطر ، ولكن مجتمعهم كان متاخراً عن مجتمع نظرائهم إلى بلاد الشام ، كما أن عنايتهم باللغة وآدابها كانت أقل من عناية أولئك ، فضلاً عن نفور جمهور المسلمين بمصر من تعليم ابنائهم في مدارس هؤلاء الدعاة .

ومهما يكن من شيء فقد اتسعت أغراض الكتابة ، فكتبت بها الرسائل الديوانية والإخوانية ، وكانت أداة التعليم والصحافة والترجمة . وباطلابع بعض بنائها على علوم الغربيين ، أثرت الكتابة بنقل بعض الأفكار والمصطلحات . غير أن أسلوبها ظل ركيكاً بعيداً عن الصبغة الأدبية النابهة ، والتزوات البليغة مع تقديرها بأنواع من البديج والساجع ، وغلبة العامية على لغة المترجمين ، كرفاعة بك الطهطاوى ، ولغة المؤلفين كعبد الرحمن الجبرى .

ولما كانت نهضة محمد على عسكرية اصطدمت بالصبغة العلمية دون الأدبية فلم تكن هناك عناية مبذولة في سهل اللغة لذاتها ، بل اتخذت أداة للتعبير عن المعانى الضرورية فحسب ، وأى عبارة تفهم ، تجزىء وتسكفى . وقد أخذ

محمد على بعض كتابه من مثقفي الأقباط ، وأشهر من بينهم كاتبه « المعلم غالى » .  
ولإليك بعض المذاج :  
من الكتابة الديوانية :

أرسلت على لسان محمد على إلى أعضاء البعثة المصرية بفرنسا رسالة فيها :  
« قدوة الأمائل الكرام ، والأفديبة المقيمين في باريس لتحصيل العلوم  
والفنون ، زيد قدرهم . تهنى إلينكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجدوال  
المكتوبة فيها مدة تحصيلكم . وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة  
أشهر ، مهمة ، لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً .  
وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون . فقياساً على  
فلة شغلكم في هذه المدة ، عرفنا عدم غير تكم وتحصيلكم . وهذا الأمر عمنا غماً  
كثيراً . فيما أفتديمة ما هو مأمولنا مرك ، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد  
منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار عمله ... الخ . »

من الرسائل الإخوانية :

كتب الشيخ حسن العطار رسالة إلى أصدقائه ، قال فيها :  
« سلام عاطر الأرдан » ، تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى مقام  
حضره الخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق  
المحيدة ، حلية الزمان التي جل بها معصمه وجده . الذي موصول إحسانه بكل  
فضل عائد ، كنز المعارف عقد دور الفوائد . الخ . »

من الكتابة العلمية :

كتب الشيخ عبد الرحمن الجبرى المؤرخ في كتابه « عجائب الآثار في التراث  
والأخبار » يصف دخول الفرنسيين إلى الجامع الأزهر . قال : « إن الفرنسيين  
دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا  
بصحته ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقلبيه ، وعاثوا بالأزروقة والخارات ،  
وكسرروا القناديل والسيارات . وهشموا خزانات الطلبة . والمجاورين والكتبة . »

ونهبو ما وجدوه من المئع ، والأواني والقصاص . والودائع والمخبات . بالدوالib والخزانات . ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم وناعالم داسوها . وكسروا أوانيه ، وألقواها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ... الخ .

(ح) منذ أيام إسماعيل إلى الآن :

ومع ذلك ، تعددت أسباب رق الكتابة على اختلاف أنواعها . فقد انتشرت المدارس شيئاً فشيئاً ، وتعددت أنواعها ، وكثُر طلابها ، وأصبح نشر التعليم سياسة عليا تحظى بدعمها من اهتمام الدولة ، وميزانيتها ، واحتلت اللغة العربية دور التعليم ، مكتسبة ما عدتها من اللغات الأجنبية ، إلا في بعض مواد الطب والحقوق ونحوها ، مما يعتبر استعمال اللغات الأجنبية فيه ضرورة لا يحيى عنها . وهي لغة التعليم في الأزهر ودار العلوم ، وقد أصبحت دروس الإنشاء وإعداد البحوث بعبارة عربية سليمة ، إحدى وسائل التعليم ومواده في كثير من دور التعليم . ولا تنسي في هذا المقام جهود رجال تعليم اللغة العربية من متخرجي الأزهر ودار العلوم ، فإنهم يبذلون قصارى جهدهم وسامي همتهم في تهذيب لغة الناشئة وتزويدها بلغ التراكيب ، ونفي الدخيل الوافد من ألفاظ وأساليب .

وبما له أثر ملحوظ في رق الكتابة بأنواعها : نشاط حركة الترجمة والتأليف ، ورواج البضاعة الأدبية منذ عهد إسماعيل ، وطبع كثير من كتب العلم والأدب القديمة الممتازة بأفكارها وأساليبها ، مثل كلية ودمنة لابن المقفع ، ومقدمة ابن خلدون ، وخزانة الأدب للبغدادي ، والبيان والبيان للجاحظ . فاطلع عليها الأدباء والمنشئون والصحافيون ، وترسوا خططها ، واقتدوا بأساليبها .

ولقد رأس تحرير الواقع المصرية ، وقام بالكتابة فيها بعض أمم الإنشاء كإمام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سليمان ، وقد أفسحت صدرها في بعض قرارات حياتها ، للكتاب والباحثين ، حتى أصبحت معرضاً لثار قرائتهم

مسرحاً جلولات أفلامهم ، وهيمن قلم تحريرها زماناً كبيراً على لغة الصحافة ، وأخذت الصحافة في الانتشار ، ويسرق على تحرير كل صحيفة أديب أو أكثر ، من امتازوا ببلاغة التعبير وقوة التصوير وجمال الإنشاء . هذا إلى انتعاش الحركة الفكرية والسياسية .

بهذا وغيره اتسعت آفاق الكتابة وتعددت أغراضها ، وارتقي النثر الكتابي وتهذبت عبارته ، وبعده عن قيود البديع والسجع . وكثرت معانيه وتجددت وشرفت ، وانصرفت عنية الكتاب إلى الابتكار في المعانى وإجاده أدائها ، دون العناية ببهج الكلام وزخرف القول .

ولما كانت الكتابة قد تعددت أنواعها بتنوع أساليبها وأغراضها ، فكان منها النثر الأدبي ، والنثر العلمي ، والنثر الصحفى ، وغير ذلك ، رأينا أن نصف كلّا منها في بحالة موجزة فنقول :

### النثر الأدبي

النثر الأدبي هو الذي يعني فيه الكاتب باختيار الألفاظ والأساليب ، مع حسن الملامنة بينها حتى تصور المعانى والأفكار تصويراً جيلاً رائعاً بارعاً ، يكون له أثره البالغ في التفوس والعواطف .

ولنتكلّم هنا عن الأغراض التي طرقتها هذا النثر ، متبعين تدرج الأسلوب في كل منها ، على وجه التقرّيب ، فنها :

#### ١ - كتابة الدواوين :

وهي الكتابة الحكومية « الرسمية » من رسائل ونشرات وبحوث وغيرها ، مما يقتضيه العمل الحكومي .

وقد روّعى فيها أول العصر ، شيئاً من الإطناب وبعض من البديع والسجع ، مع قلة الاتكّاث بالعامي عن الكلمات ، أو السقيم من العبارات .

ولما كان عصر إسماعيل ، وظهرت طائفة من الأدباء المثقفين ، أخذت

الحكومة تعهد إلى بعضهم بالإشراف على كتابة الدواوين . فارتقت أساليبها بعض الرق ، وبدأ عليها شيء من الرونق والضارة ، وعادت إلى مثل ما كانت عليه الكتابة الديوانية في العصر المملوكي ، بل ربما كانت أجزل منها وأقل تكلفاً ، وأخذ البديع والسجع يزايلاً لها شيئاً فشيئاً ، مع عناية واتخذه بالألفاظ من نحو : باشا ، وبك ، وأفدي . وعز تلو ، وعطوفلو .

ومن الكتاب : عبد الله باشا فكري « توفي سنة ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م » ، وكان يكتب بعض الرسائل الخديوية ، ووضع شيئاً من المصطلحات الديوانية . ومنهم الإمام محمد عبده « توفي سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م » ، وكان يشرف على تحرير الواقع المصرية ، ويراقب كتابة موظفي الدواوين . ومنهم الشيخ حمزة فتح الله « توفي سنة ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م » ، وكان مفتشاً أول اللغة العربية بوزارة المعارف ، وله فضل يذكر في إصلاح لغة التعليم ، وتنقيتها من أوضاع العامة والدخل .

ثم تغلغلت اليد الإنجليزية في مصالح الحكومة ودواوينها . وأصبح كثير من رؤسائها من الإنجليز أو غيرهم من الأجانب – وذلك في عهد الاحتلال – وانتابت مصر ثورات وقلائل متعددة . فكان لذلك أثر سيء في كتابة الدواوين . وإذا رأينا أن التعليم ، والعناية بالغربية في دوره ، قد فترا في ذلك العهد ، دواؤن الغاية من التعليم أصحت مقصورة على تخرج موظفين للدولة يسيرون ولاب العمل كالألات الصماء ، وأنه سلك في دواوينها كثير من الناشئة التي لم تخل حظاً محموداً من التعليم والمعرفة باللغة وأساليبها ، بل كان منهم من يتطرف بالجهل بها ، وبمعرفة اللغة الأجنبية ، ويترافق عن تخرى وجوه الصواب في الكتابة . نقول إن ذلك كما كان له أسوأ الآثار وأوخم العواقب في الكتابة الديوانية في معظم دواوين الدولة ، وبخاصة في أقسام الشرطة وإدارات القرعة العسكرية والطرق الحديدية والبريد ونحوها من الدواوين ذات الصلة المباشرة بال الجمهور .

ولابد لنا في هذا المقام من استثناء بعض الدواوين المتازة في الدولة

مكتبيون الملك — كان — ومكاتب الوزاره ودور القضاء . فإن ما كان — أو لا يزال — يصدر عنها من أحاديث وبيانات وحيثيات ورسائل ومنشورات وأوامر وإشارات نحو ذلك ، يكتب — عادة — بعبارة عربية جيدة سليمة ، فيها أناقة وحسن اختيار ، ودقة أداء ، ووضوح معنى ، وجمال تصوير ، مع الترتيب وجوده التسلسل الفكري . إلا أنها تنقلب بين الإيجاز والإطناب حسب المناسبات ، فطوراً تكون موجزة في سطوة قليلة ، كالمراسم والأوامر الملكية . كانت — وطوراً تكون مطبعة كثيرة الشروح والمترافات ، بملايين الملايين ، كبيانات الوزراء وحيثيات القضاء واتهامات النيابة .

وكان يعني في المكتبات الرسمية بذكر الألقاب . وقد تحولت بعض التحول ومنها عدا صاحب الجلالة ، صاحب الرفعة الحامل قلادة فؤاد الأول . وصاحب الدولة لرئيس مجلس الوزراء ، وصاحب المعالي للوزير مadam في الوزاره وصاحب السعادة ، وصاحب العزة ، وصاحب الفضيلة .

وقد جاء عهد الشورة فألغى كل هذه الألقاب بما فيها لقب « بك » و « بانبا » . وقرر لفظ « السيد » لقباً لكل مواطن .

## ٢ — الرسائل الإخوانية .

بقيت منها صياغة إلى أول عصر النهضة الحديثة ، ثم قوى أمرها واشتد شاعدها منذ أيام اسماعيل . وأخذ الأدباء يتسبّبون في كتابة رسائلهم بنظرائهم في كتاب الرسائل في المصور السالفة . فاتسحت رسائلهم بكثير من الرونق ، وتبجلت فيها أقانين من ضروب البيان ، وترفرق فيها ماء الحياة ، مع بقاء التقيد بالسيجع ويسيز من البديع ، وفي مقدمة كتاب الرسائل : عبد الله فكري ، وجمال الدين الأفغاني ، و محمد عبده ، و ابراهيم اليازحي ، و عبد العزيز چاويش ، و عبد الكريم سليمان .

. وفي أيامنا هذه قررت همة الأدباء عن التراسل بهذه المكتبات الأدية الأنيقة ، الشياقة ، ولغل مرجع ذلك إلى أن روابط العلم والأدب بينهم ، أصبحت أهم

من روابط الصداقة والموعدة التي كانت تدفع السابقين من الكتاب إلى مثل تلك الرسائل ، كما أن الأدباء انصرفوا إلى الأغراض الكتابية الأروع والأجدى والأنسب لعقلية معاصرיהם وأحوالهم ، كالمقالات الوصفية والتقد الأدبي والقصص — لهذا لم تعد الرسائل الإخوانية أحد مظاهر الكتابة الأدبية الرائعة في جيلنا الحاضر . ولا ينصرف إليها أحد من الأدباء النابهين إلا لضرورة ملحة تعزية أو تهنة أو شكر ، وما يكتبوه من ذلك ، لا يقل روعة وجمالا وتأثيراً وحسن ترسـل ، عما كانت عليه الرسائل الإخوانية في صدر الدولة العاشرة .

أما ما يتراصل به أدبيان على صفحات الصحف ، ويملاهه بما تقipض به خواطرها النفسية ونظراتها الناقدة ، فهو بحوث علمية ومناظرات كتابية ، ومساجلات أدبية ، أكثر من أن يكون رسائل إخوانية .

وأما ما يتراسل به سائر أفراد الشعب في أمورهم المعيشية ، ومتى له به صناديق البريد ، فالغالب عليه أنه يكتب بلغة عامية أو نحوها ، وهو لا يدخل لنا في حساب .

وإليك نموذجين من الرسائل الأخواتية:

(١) كتب الاستاذ الإمام محمد عبده، وهو في بيروت جواباً عن كتاب صديق قال فيه :

لَكَ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْوَدِ مَا يَذِكُّهُ سَنَاؤُكَ ، وَفِي مَنَاطِقِنَا مِنَ الْمَحْمَدِ مَا يَوْجِيهُ  
كَالَّكَ ، وَفِي صُدُورِنَا مِنَ الْإِجْلَالِ مَا يَرْفَعُهُ بَهَاؤُكَ . مَا يَبْتَنِي مِنَ الْمَوْدَةِ ، لَا تَتَحْدِه  
مَدَةٌ ، وَلَا تَخْلُقُ لَهُ جَدَةٌ . نَعِيْدُهُ مِنْ حَاجَةٍ لِلتَّجَدِيدِ ، وَاسْتِدَاعَهُ لِلْمَزِيدِ . فَلَا المُواصِلَةُ  
تَرْبِيَهُ ، وَلَا الْمَاهَلَةُ تُوَهِيَهُ . نَعَمْ إِنْ مَا نَحْفَظُ لَكَ فِي الْأَنْفُسِ هُوَ تَجْلِي فَضْلَكَ ، وَمَثَالُ  
عَلَاتِكَ وَنِيلَكَ . وَذَلِكَ الْخَالِدُ بِخَلُودِ الْأَرْوَاحِ ، الْبَاقِي فِي تَفَانِي الْأَشْبَابِ ... أَخْمَ.

(ب) كتب الأستاذ توفيق الحكيم إلى صديقه الدكتور منصور فهمي رسالة بعنوان : « خطبة انتخابية نموذجية » ، قال فيها : « ترى يا صديقي : ونحن على هذه الحال من البراءة والمسداجة ، لوحدتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج

شكراً العاجية إلى الجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية . ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟ أما أنا فكنت أقول هكذا :

سادق الناخبين : باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم إني أحب الديمقراطية ؟ ومن ذا الذي لا يحب الديمقراطية ؟ تسألوني مامعنى هذه الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط : إن الديمقراطية هي أن رهطاً من الجياع الحفاة ينحون مرتبأ شهرياً قدره أربعون جنيهاً لرهط آخر من الثراثة العتلة .. لعل هذا المنطق يدهشك ، ولكن هذه الحقيقة ، الخ.

### ٣ — المقامات :

المقامات وليدة العصر العباسي ، و لها تاريخ حافل وحياة موصولة عاشت فيها إلى أن أدركت العصر الحديث ، وهي في جملتها قصص موجزة في أسلوب بديعى مسجوع ، فيها فكاهة ونقد ووصف وعظة .

وقد كانت النهاية بها في أوائل هذا العصر ، وإقبال الأدباء على كتابتها ، مظهراً من مظاهر بirth الوعي الأدبي . ويدو أن الأدباء ، حينما تيقظت فيه نوازع الأدب ، أحبوا أن يقتدوا بالسابقين من المنشئين ، ومنهم كتاب المقامات كالحريري الذي طبع مقاماته المشهورة ، مبكرة .

ومن ظهرت المقامات على يديه : ناصيف اليازجي من أدباء لبنان ، وله كتاب « بجمع البحرين » ، ويشتمل على عدة مقامات ، وأحمد فارس الشدياق ، وله كتاب وصف فيه أسفاره اسمه : « الساق على الساق » فيها هو الفاريقي ، وهو معجم لغوي طريف كثير المترادفات ، اتبع في عرض لغوياته ، أسلوب المقامات القصصي ، وفيه نقد ومحاجة .

ومحمد الموليني صاحب كتاب « حديث عيسى بن هشام » وهو مجموعة رسائل قصصية فيها كثير من الأدب والنقد الاجتماعي المر اللاذع .

غير أن الأدباء المنشئين انصرفوا عن تدوين المقامات — من بعد — كما انصرفوا عن كتابة الرسائل الإخوانية إلى ما هو أهم وأجدى ، كالسياسة

والصحافة والنقد والتأليف — وبخاصة بعد أن ترسّلوا ، وزالت عنهم قيود  
البديع وال-song ، تحت تأثير الثقافة الحديثة ..

ومع ذلك ظهرت منذ سنوات قريبة مقامات قصصية ناقلة ، فكاهية ،  
تناولت شؤون السياسة الحزبية تحت عنوان « مخالف القلط » لأحد المعاصرين ،  
ولكنها لم تسم في أسلوبها وروعيتها إلى ما سبّقها .

وإليك بمحظتين :

٢ — كتب الشيخ ناصف البازجي اللبناني « المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ » من  
« المقامات الحزوية » . قال :

« قال سهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب ، في التماس بعض الأرب ،  
فقدت نادي الأوس والخزرج ، لأنفراج وأخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض  
المنهج . فلما صرت في بحرة النادي ، أخذ بمجامعته فوادي . فجلست بين القوم  
ساعة ، وأنا أحدق إلى الجماعة . وإذا شيخنا ميمون بن خرام ، قد تصدر في هذا  
المقام . وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة ، أو شاعر مزيته . فيحضر ليسمع  
ولييرى ، فإن كل الصيد في جوف الفرا » ... الخ .

٣ — وكتب أحمد فارس الشدياق « المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ » في كتابه : « الساق  
على الساق » تحت عنوان « في شرور وطنبور » . قال :

« قد كان أبو الفاريق آخذًا في أمور ضيقه المصادر ، غير مأمونة العوائق  
والمساير . لما فيها من إلفان البغضنة بين الرءوس ، وشغب أهل البلاد ما بين رئيس  
ومرؤوس . فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشائخ الدروز ، مشهور بالتجدة  
والبسالة والكرم ، غير أنهم صفر الأيدي والأكباس ، والصندوق والصوان  
والهميان والبيوت ، ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كرويًّا ، كانت لا تميل إلى  
أحد إلا إذا استهاها بالمدور مثلها ، وهو الدينار . فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه .  
فالسيف والقلم قائمان في خدمته . والعلم والحسن حاشدان إلى طاعته ، الخ .

#### ٤ — النقد الأدبي واللغوي :

ولئنما قوى وأشتد ساعده بظهور الصحف . فقد كان بعض محرريها يتناول بعض عظيماء البلاد وأهل الحال والعقد فيها بال النقد . ومن ثم انتقل النقد إلى أبطال الأدب القدامى والجدد معاً ، ينشر كلامهم مع تعليقات المحرر عليه ، فيمتزج في هذه التعليقات النقد الأدبي للمعنى والأسلوب ، بالنقد اللغوى للفردات .

وقد كان لكثير من خريجي الأزهر ودار العلوم ولغيرهم من محبي الأدب جولات صادقة في هذا الميدان ، ونذكر منهم : الشیخ حسین المرصفي « المتوفی سنة ١٣٠٧ صاحب كتاب ( الویسلاة الأدبية ) وهی فی العلوم العربية ، والشیخ حمزة فتح الله ، المتوفی سنة ١٣٣٥ هـ . صاحب كتاب ( المواهب الفتحية ) وهو فی علوم العربية أيضاً . وكلا الكتابین علوم بالبحوث اللغوية والنقد الأدبي . والشروح . ومن أدباء لبنان ابراهيم اليازجي اللبناني بن الشیخ ناصيف اليازجي وكان مدرساً للغة العربية في بيروت ، وأصدر صحیفة ( الضياء ) وكان ينشر فيها أبحاثاً جليلة في اللغة والعرب وآغلاط العرب القدماء وأغلاط المولدين ، وغير ذلك ، وقد توفي سنة ١٩٠٦ م .

ويبدو أن النقد اتجه في أول أمره إلى شرح المعانى والتعليق عليها تعليقاً هيناً فيه كلام عن النص الأدبي من ناحية اللغة والنحو والصرف ، ثم دخل النقد البلاغي في الميدان .

إلا أنها نشاهد اليوم حركة نقد واسعة الطاق ، تحاول أن ترسى النقد على قواعد علمية راسخة تأسيا بالنقد الإفريقي ، وقد نجح به نحو تحاليل المصوّص ويبيان ما فيها من ضروب المجال وبلغ نصيتها من فن الأدب الأصيل . وقد أصبح النقد بحالته الجديدة إحدى دعائم الدروس الأدبية التي لا غيبة عنها . ولعل سبب اتجاه النقاد هذه الوجهة إطلاعهم على ما طبع من كتب النقد القديم كالعمدة لابن رشيق والصناعتين لابن هلال العسكري ، وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني وإطلاعهم على كثیر من كتب الأدب والنقد الأجنبية ، وتقرير دراسة الأدب ونارجه ونقدہ بمعاهد التعليم .

وأسلوب النقاد — في جملته — مرسى سهل التركيب دقيق التعبير ، معنى بتوضيح الفكرة وإبراز جمال التصوير ، ومبني هذا الجمال ، وهو محرر من قيود البداع والتزام السجع — وبخاصة أسلوب النقاد المعاصرين — فلا غرابة إذن إن كان هذا النهج الأسلوبى الجليل قانوناً لهم يزبون به الآثار الأدبية ، فلهم فضل في توجيه الأدباء شعراء ومنظرين ، إلى العناية بالمعنى ، وإلى الفكرة المنظمة ، والرأى الواضح ، والخيال الجديد والتصوير المبتكر ، والبعد عن المعاظلة في الأسلوب ، والتعقيد ، والتتجافى عن اللفظ الغريب ، والجاف ، والمحجور ، والسمو عن مفردات العامة ، وما ابتذل بدور أنه على ألسنتهم ، إلى غير ذلك .

لأسلوب النقاد مزيج من الأسلوب الوصفى والإنسانى معاً ومامنهم إلا وله ملحوظة في أن يطبع نقده بطابع شخصيته ، وأن تكون نقاداته دراسات قوية منتجة . وبين ظهرانينا كثير من صناديد النقاد والأدباء .

ومنهم : المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى في « حصاد المنشيم » وطه حسين في « حديث الأربعاء » و « الأدب الجاهلى » وعباس العقاد في « ساعات بين الكتب » وأحمد الشايب في « الأسلوب » وعبد الحميد حسن في « الأصول الفنية للأدب » .

#### ٥ — في القصة :

من القصة : التاريخى والروائى الغرائى ، والفاجع المهزلى ، ومنها المسرحى .  
فهي أنواع عدة . وتعتبر القصة العصرية فناً حديثاً في الأدب العربي ، يمتاز به عصرنا ، لما امتازت به من وصف تحليلى دقيق ، وشرح طريف للهواجس النفسية ، والاتفعالات الوجدانية ، مع بيان للأدوات الاجتماعية ، إلى غير ذلك .  
مع ما تمتاز به من حسن السبك وحبك الأطراف وظرفها الواقع . وقد أضفى عليها هذه الميزات : اتصال أدباتنا بالأدب الأوربى واطلاعهم على القصص الغريرية وترجمة كثيرة منها ، وتقليلها بالتأليف على مثالها . وقد شجعهم على ذلك انتشار الصحف وإفرادها بباباً من أبوابها للقصة ، وإقبال الناشطة بشغف على

فرامتها طلباً للتسليه والتعليم ، وانتشار المسارح التئيلية دور الخيالة وجذبها قلوب الجماهير إليها .

هذا ويحاول كثير من منشئ القصة ، تصويرها ، بإظهار الروح المصرية فيها ، لنكون مرآة لحياة الشعب . كما ارتقى أسلوب القصة - مؤلفة ومعرية - وجزلت عبارتها وحلت تراكيزها . وسلست ألفاظها ، حتى أصبحت بحق - حبيبة إلى تقوس قرائتها مشوقة إلى استيعابها . ومن كتابها من قارب حد السكال في أسلوبه وحسن عرضه . ومنهم المغفور لهم : المنفلوطى وله « العبرات » ، و « مجدولين » ، و « محمد السباعى » ، وكان يترجم في كل أسبوع قصة عن الأدب الروسى وغيره ، وينشرها في البلاط الأسبوعى . وإبراهيم عبد القادر المازنى وله كتاب « إبراهيم الكاتب » ، وحافظ إبراهيم الشاعر وله كتاب « البوسام » ، معرية عن فيكتور هوجو . وعلى الجارم وله « غادة رشيد » ، و « شاعر ملك » ، وحسين هيكل وله قصة « زينب » ، ولكن لغتها عامية .

ومن كتاب القصة الأحياء : طه حسين ، وله « أندروماك » ، وقصص تئيلية معرية عن اليونانية و « الأيام » ، ومحمود تيمور وهو أكثر المعاصرين قصصاً ، ومن قصصه « أنا ابن جلا » ، و « اليوم خر » ، وعباس محمود العقاد وله رواية « سارة » . و توفيق الحكيم وله « أوديب الملك » ، و « مسرح المجتمع » ، و « الرباط المقدس » . وغيرهم كثيرون بين مؤلفين ومعربيين .

ونأسف ، لأنه لا يزال يندس بين كتاب القصة كثير من أدباء الأدب .  
يقولون أو يرجون ، بأسلوب فج وعبارة هزلية ، وعامية فاشية ، فضلاً عن موضوع قصصهم ، فإنهم يختارونها من القصص الغرامية ذات المواقف المنسنة الفاحشة ، لا بعلجون بها مشكلة ولا يخلون عقدة ، وإنما يستثرون غريرة ، ويستخفون شهوة . والجمهور ، لضعف ثقافته ، وجهله بغايتها ، مقبل على روایاتهم شره ونهم ، حتى أصبحت في مقدمة أنواع زاده العاطفى والعقلى . وزاحت بذلك كثيراً من كتب العلم والأدب الباب .

## ٦ — المقالات الوصفية :

برز هذا الغرض الكتابي بروزاً قوياً في العصر الحديث . ووجد أنصاراً كثيرين ، ولا غرابة ، فإنهم وقد نالوا قسطاً محدوداً من الثقة قديماًها وحديثها عربها وغريبها ، ورأوا الحوادث حولهم تترى ولا عدد لها ، والماضي أمامهم توالي ولا حصر لها ، وبدت الحياة لواظراً جديدة متألفة ، وروداً متألقة ، فهزت فتوسهم ، وأطلقت عنان أقلامهم ، بالوصف الشائق والكلم الرائع ، يتردد بين حسن التخييل وبراعة التصوير وجمال التنسيق وروعه الأداء ، في عبارة خلابة وإشارة جذابة ، وإفصاح معجب ، وإمام مطرب ، وتدفق وسلامة ، وتناق وكماسة ، وترسل جرف أمام تباره حسك السجع وأشواك البداع ، أو لأنها ييد صناع ، وكف تعرف طريق الإبداع ، ففتحت عن آزهار حالة القساممة بادية الوسامة . وبدت المقالة حينذاك قصيدة منظومة ، ثرثها الشعر ، وكلماتها الدر .

وقد تعددت موضوعات هذه المقالات ، واتسعت فيها بخاج الأحاديث أمام المنشئين ، ووصفو الأشخاص والحيوانات والأماكن والرحلات والمواكب والخلفات الاجتماعية والمواجس النفسية والحوادث الواقعة والظواهر الطبيعية ، إلى غير ذلك . ويمثلون أو صافهم بالتحليل والتعليق ، والتقد والشرح والتفصيل ، وإيضاح الغامض ، وكشف المجهول ، وتقريب العبد ، وسوق الحكمة ، وضرب المثل ، وإزجاد العبرة ، وتقديم النصيحة ، إلى غير ذلك .

والصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية حافلة بشتى المقالات الوصفية . فهي إذاً فن لا يزال له سطوه على أدباء الجبل الحاضر ، ولا يزال يجد له من بين القراء أنصاراً وأحباباً .

وكثير من كتابه لا يقلون براعة يراعة ، وبيان بنان ، ومحبوب أسلوب ، عن كتاب الصدر الأول العassi .

ومن كتابة : أمين فكري في كتابه « إرشاد الألبان إلى محسن أوربا » ومصطفى نجيب في « أحلام الأحلام »، وفتوح البكرى في « صهاريج اللؤلؤ » والملفوظى في « النظرات »، وداود بركات في « فيما رأت عينى »، ومحمد لبيب البنانوى في « الرحلة الحجازية ». وعبد العزيز البشرى في « في المرأة »، ومصطفى صادق الرافعى في « وجه القلم »، وأحمد محمد حسين فى « في صحراء ليبيا »، وأمير الشعراء شوقى في « أسواق الذهب »، وغيرهم .

وفد عنى بعض أفضل المدرسين ، فوضعوا كتبًا ضمنوها عدة موضوعات هي مقالات وصفية ، صالحة ، يتلقى بها النشء ويقتدى بها .

ومن المقالات الوصفية نوع افتراضى مبني على الخيال المحض ، به كثير من عوامل التسويق وروعه التخيل وغرابته مثل « رحلة إلى القمر » و« مصر بعد مائة عام » .

وإليك نماذج من هذا الضرب الكتابى :

١ - كتب المغفور له أحمد شوقى أمير الشعراء المتوفى سنة ١٩٣٢ م في كتابه « أسواق الذهب » تحت عنوان « الوطن » .

« الوطن » موضع الميلاد ، وبجمع أوطار الفؤاد ، ومضيجم الآباء والأجداد الدنيا الصغرى . وعتبة الدار الأخرى . الموروث الوارث ، الزائل عن حارث . إلى حارث . مؤسس لمان ، وغارس لجان ، وحى من قان ، دواليك حتى يكسف القمر ، وتسكن هذه الأرض من دوران .

أول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب من الراحتين ، وشعاع شمس أغترق العين . مجرى الصسا وملعنه ، وعرس الشباب وموكبه ، ومراد الرزق ومطلبـه . وسماء السواغ وكوكبـه ، وطريقـ المجد ومركبـه ، أبو الآباء ، مدت له الحياة خلد ، وقضى الله ألا يرقى له ولد . فإن فاتك منه فائت ، فاذهب كما ذهب أبو العلاء ، عن ذكرى لا تفوت ، وحديث لا يموت .

مدرسة الحق والواجب ، يقضى العمر فيها الطالب ، ويقضى ، وشىء منها

عنه غائب . حق الله وما أقدسه وأقدمه ، وحق الوالدين وما أعظمهم ، وحق النفس وما أرمه . إلى آخر تصفه ، أو جار تسعفه ، أو رفيق في رحال الحياة تألفه ، أو فضل للرجال تزيته ولا تزييفه . فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدمة ، وأبناء آماناته المعظمة ، صيانة بنائه . والضناة بأشيائه ، والتوصية لابنائه ، والموت دون لوانه . قيود في الحياة بلا عدد ، يكسرها الموت وهو قيد الأبد .

رأس مال الأمم ، فيه من كل ثغر كريم . وأثر ضئيل أو عظيم ، ومدخل حديث أو قديم ، وينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار . ويربو على الرذاذ كما يربو على الوابل المدرار . بحر يتقبل من السحب ، ويقبل من الأنهر .

في خادم الوطن ، ماذا أعددت للبناء من حجر ، أو زدت في الغناء من شجر ، عليك أن تبلغ المجهد ، وليس عليك أن تبني السد . فإنما الوطن كالبنيان فقير إلى الرأس العاقل ، والساعد العامل . وإلى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة . وكالروض تحتاج إلى رخيص الشجر وثمينه ، ونجيب النبات ولهجته ، إن كان ائتلافه في اختلاف رياحته . فكل ما كان منها لطيفاً موقعه ، غير ناب به موضعه ، فهو من نوازع الزهر قريب ، وإن لم يكن في البديع ولا الغريب » ... اخ.

٢ - وكتب المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه « وحي القلم » بعنوان « موت أم » ، قال :

« رجعت من الجنائز بعد أن غبت قدمي ساعة في الطريق التي تراها تراب وأشعة . وكانت في النعش لقولوة آدمية محطمة . هي زوجة صديق طحطحتها الأمراض ، فرققتها بين علل الموت ، وكان قلبها يحبها ؛ فأخذ يهلكها . حتى إذا دنا أن يقضى عليها ، رحمها الله فقضى فيها قضاءه . ومنذ الذي مات له مريض بالقلب . ولم يره من قلبه في عنته ، كالعصفورة التي تهلك تحت عيني ثعبان سلط عليها سموم عينيه ١ .

كانت المسكنينة في الخامسة والعشرين من سنها . أما قلبه في العشرين ، أو فوق ذلك . هي في سن الشباب ، وهو متقدم في سن الموت .

وكانت فاضلة نقية صالحة . لم تتعلم ولكن علمتها التقوى الفضيلة . وأكمل النساء عندي ، ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب ، فهي تنظر إلى الحياة نظرات تحمل مشاكل وتخلق مشاكل ، ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين مثلثة بنور الإيمان ، تقر في كل شيء معاه السماوي ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تعطى من يد خالقها رحمة معروفة ، أو رحمة مجهولة . وهذه عندي تسمى امرأة ، ومعناها المعبد القدس . وتكون الزوجة ، ومنعها القوة المسعدة . وتصير الأم ، ومعناها التكملة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها . ومهمماً تبلغ المرأة من العلم ، فالرجل أعظم منها بأنه رجل ، ولكن المرأة حق المرأة ، تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان . فتكون له وحياناً وإلهاماً وعزاماً وقوة ، أى زيادة في سروره ، ونقصاً من آلامه .  
ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل ، إلا شيء واحد ، هو صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها . . . الخ .

٣ — وكتب المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطى في كتابه « النظارات » تحت عنوان « الغنى والفقير » ، قال :

« مررت ليلة أمس برجل بائس ، فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألمًا ، فرثيته لحاله وسألته : ما باله ، فشكى إلى الجموع ! ففتأنه عنه بعض ما قدرت عليه . ثم تركته ، وذهبت إلى صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أنى رأيته واضعاً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير . فسألته عما به ، فشكى إلى البطة ! فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغنى ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منها سقماً ولا ألمًا .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشمع جوعته ، ويطفيه غلته ، ولكنه كان محباً لفسمه مغالياً بها ، فضم إلى ما دنه ما اختلسه من صحفة الفقير . فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يزكيه للظالم ظليه ولا يطيب له عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : بطنه الغنى انتقام جموع الفقير .

ماضنت النساء بعائتها ، ولا شئت الأرض ببناتها ، ولكن حسد الغنى

الضعيف عليهم ، فز واهما عنه واحتجنهم دونه ، فأصبح فقيراً معدماً ، شاكياً  
متظليماً . غرماً ملائسراً الأغنياء ، لا الأرض والسماء . الخ .

#### ٧ - وصف عصور الأدب العربي :

تردد وصف عصور الأدب العربي ، والحديث عن أعلامه ، في كثير من  
المؤلفات الفدية . ولذلك لم يكن بهذا النظام والترتيب والتقسيم والتبويب الذي  
دخل عليه في العصر الحديث ، والذي يعتبر نتيجة للثقافة الأجنبية ومظهراً  
للاطلاع على الآداب الغربية ، وطرق الغربيين في الكلام عن أدبهم وأدبائهم .  
تاريخ الآداب في حالته الراهنة يعتبر أحد الفنون الأدبية الجديدة .

وقد عاون على العثابة بتاريخ الأدب العربي ورجاله ، إدخاله في عداد مناهج  
الدراسة في التعليمين الثانوي والعلمي ، وكان كلما طال عليه الزمان وتوات الأ أيام ،  
أدخلت التغيرات والتحسينات على مناهجه ، وتع ذلك زيادة العناية بدراسته  
ولإقبال صفوة المدرسين والأدباء على النظر فيه والتأليف في شتى نواحيه وتوضيح  
معالمه ، وإبراز خصائصه ، حتى غدا — إلى حد كبير — محوراً هاماً تدور حوله  
النهاية الأدبية وتمثل فيه

ومن أهم مظاهر العناية به تخصيص إحدى الكليات في كل جامعة من الجامعات  
القائمة والمقرحة ، للدراسات الأدبية بكلّة أنواعها ، وعلى رأسها تاريخ الأدب  
العربي ونقده ودراسة نصوصه .

وقد استفاد هذا الفن فائدة كبيرة من تلاقي الثقافتين الغربية والערבية  
في العصر الحديث ، وتزود الأدباء من كثيرون من العلوم الأخرى كالتأريخ وفلسفته  
والجغرافيا ، وعلم المنطق والفلسفة ، وعلم النفس والاجتماع ، وعلم الأخلاق ؛  
وغير ذلك ، فكان لها أثر بارز في دراساتهم الأدبية على اختلاف أنواعها ،  
إذ اصطعوا طرق الشك والإثبات ، وقواعد النقد ، والتحليل النفسي ،  
والتحليل الخلقي والاجتماعي ، ونظروا فيه إلى آثار البيئة والثقافة والطبائع ،  
وامتزاج الشعوب ، والأديان وطرق الحكم ، إلى غير ذلك من الأمور ذات

الاثر الواضح في صبغ الأدب وتوجيهه . وقد تأثرت بها أساليبهم نفسها .  
فيما بعضاها وبه خشونة العلم بدلا من رقة الأدب .

ولخريجي الأزهر ودار العلوم ، فضل السبق إلى الكتابة في هذا الفن . ثم  
شاركهم كثير من الأدباء وخريجي الجامعات المصرية ونذكر منهم جمعاً :

حسين المرصفي ، وحمزة فتح الله ، وحسن توفيق ، وعاطف برకات ، وحفني  
ناصف ، وأحمد الأسكندرى ، ومصطفى عنانى ، وعلام سلامه ، هؤلاء وأندادهم  
الرعيل الأول والطليعة المباركة التي ذلت عقابه وعبدت صعباته ، وما منهم  
إلا وله كتاب أو مذكرة أو بحث في عصر من عصور الأدب هذا العصر .

ومنهم جورجى زيدان منشي الملال ، وله كتاب « تاريخ آداب اللغة  
العربية » في أربعة أجزاء ، أرخها إلى سنة ١٩١٤ م ويعتبر من أهم المراجع  
المحدثة في يابه .

ومنهم أيضاً : طه حسين في كتبه : في « الأدب الجاهلى » و « حديث الأربعاء »  
و « ذكرى أبي العلاء » . وأحمد أمين في كتابه « في الإسلام » و « ضحي الإسلام »  
وهو ينحو نحو الدراسة العقلية للأمم الإسلامية ، والفقدان في كتابه « ابن الروى  
من شعره » ولكل من مصطفى صادق الرافعى ، وسليمان محمود مصطفى ، وأحمد حسن  
الزيات صاحب مجلة الرسالة « القدية » ، مجلد أو أكثر في تاريخ الآداب  
العربية ، ولكاتب هذه السطور كتاب « عصر سلاطين المماليك » وغيرهم كثيرون .

## النثر الصحفي

الصحف - كما يبنا - معرض لكل ذي رأى نافع للبلاد ، يعرض فيها رأيه ويعلن الناس بما عنده، لذلك ينشر فيها العالم والأدب والنثر والشاعر والاجتماعي والسياسي . ولهذا تقرأ على صفحاتها أساليب شتى في موضوعات متنوعة .

وتسعى بعض الصحف على تصحيح ما ينشر فيها وتقصيحه ، بعدد من ذوى الخبرة من أهل اللغة ، وكثيراً ما يكون فيها هؤلا . الجنود المجهولين ، أفضل الأثر في تقويم أسلوبها .

ولكن ليس كل ما ينشر في الصحف يعتبر من باب « النثر الصحفي » . وحقاً يوجد بين كبار الصحفيين من يتصدى للكتابة في موضوع على أو أدب أو اجتماعي أو غير ذلك . وفي رأينا أن كتابتهم تلك ، تلحق بالنشر العلمي أو الأدبي أو الاجتماعي ، كل حسب نزعته وموضوعه ، وبخاصة ما تنشره المجالات المقصورة على العلم والأدب .

ولما يطلق « النثر الصحفي » - في رأينا - على أخص ما تنشأ لأجله الصحف ، ونعني به نوعين هما : الكتابة السياسية والكتابة الإخبارية .

فالكتابة السياسية : هي ما يكتب في الصحف انتصاراً لحزب معين ، ونشرآً وتحبيذاً لمبادئ ذلك الحزب ، أو معارضة لغيره . ونظراً إلى أن الكاتب السياسي يسعى دائماً إلى كسب فلوب الناس وعواطفهم ، ليضموا صوتهم إلى صوته .. يستخدم ضرباً شتى من ضروب الإغراء وألواناً من البراهين ، في أساليب حماسية وجعل طنانة رنانة سهلة يفهم العامة معانها ، وهي لذلك أقرب شهباً بالخطابة السياسية .

ومن الكتابة السياسية : أحاديث الزعماء السياسيين ، ورجال الأحزاب ونحوهم ، وما يكتبه في كل ما يتصل بشئون البلاد السياسية ، وقضيتها الوطنية ، وكفاح المسعمرين . والكتابة السياسية في بلادنا جديمة ، وهي وليدة الصحافة الحزبية ، والثورات الوطنية معاً .

وبين كتابنا السياسيين اليوم - وأمس - من هو قوى الحجة عف اللسان سليم العبرة صحيح المنطق ، ولكن بجواره ، الكاتب المولهم المبالغ المفترى المضل ، ومنهم من يتدلى أسلوبه إلى هوة من سفساف القول وفارغ الحديث من غير عفة ولا تورع ، وكان يكثر هذا السقط في إبان الأزمات السياسية ، واشتداد الخلافات الحزبية .

والكتابة الإخبارية : هي ما تكتبه الصحف لتودي إلى قرائتها أخبار العالم كله ، وأهم حوادثه اليومية ، سواء منها الداخلي أو الخارجي ، والحكومي وغير الحكومي ، ويلتحق بهذا النوع ، الإعلانات التجارية .

وهذا الضرب من الكتابة من أهم - إن لم يكن أعلم - ما تعنى به الصحف ، وتنشأ لأجله ، وبخاصة الصحف اليومية . ويغلب على محرري هذا الباب أن يؤدوه بعبارة سهلة لينة بعيدة عن التكلف والتزويق ، والتأنيق والتميم ، حتى تتضح معانيها منها ، في يسر وسرعة إثر قرأتها ، وقد تلتبث بالعامية ، ويعتبرها شيء من الخيال والبالغة ، إذا كان فيما تحمله من الأخبار طرافة وغرابة .

ويعتبر النشر الصحفي ضرباً جديداً من ضروب النثر ، لم تعهد اللغة من قبل بحالته الراهنة ، وقد نشأ بنشوء الصحافة العربية وانتعاش الحركة السياسية ، وكلما اتسح نطاق الصحافة ، وبعد أفق السياسة وثوراتها ، اتسع نطاقه وبعدت آفاقه ، وقد لونه السبع زماناً ثم زايه ونأى عنه . فأصبحت عباراته متسللة لاقيود فيها ، وكان من حسن طالع أهل الصحافة ، طبع عده كتب أدبية ذات أسلوب من السهل الممتنع ، فكانت لهم نماذج حسنة ، رفعت عن أسلوبهم وقومت من عباراتهم وذلك مثل كلية ودمنة ، ومقدمة ابن خلدون — على أنه بتوالي المرانة وقدم الصناعة ، بربت بين الصحفيين شخصيات ممتازة طبعت بطبعها ، وبين الحين والحين تقرأ في الأهرام والمقطم — كان — مثلاً ، مقالات تعالج بها مشكلة سياسية ، هي آية من آيات البيان ، وقد سبق لنا الحديث في الصحافة والصحفيين ، فراجعه .

ومن كبار الصحفيين : حسن العطار ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سليمان من حرروا في الواقع المصرية ، وأحمد فارس الشدياق صاحب « الجواب » ،

ولبراهيم المويلى حى صاحب «نزهة الأفكار» والشيخ على يوسف صاحب المؤيد، ومصطفى كامل صاحب «اللواء»، ثم من بعده فى تحريرها عبد العزيز جاويش، وأحمد لطفي السيد صاحب جريدة «الأمة»، وأمين الرافعى صاحب «الأخبار»، وداود برگات، وأنطون الجيل فى «الأهرام»، وعبد القادر حزة صاحب «البلاغ»، ولبراهيم عبد القادر المازنى فى «السياسة»، و«الأساس»، وحسين هiskل فى «السياسة»، وغيرهم من المتوفين كثيرون.

ويعيش بيننا من الكتاب السياسيين والصحفيين جمع حاشد نذكر منهم : طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وفكري أباظه ، وأحمد حسن الزيات ، وأحمد الصاوي ، ومحرو أخبار اليوم والأخبار الجديدة ومنهم مصطفى أمين ، وعلى أمين ، ومحمد التابعى ، وسلامة موسى ، ومحمد زكي عبد القادر ، ومحرو الجھوریة ومنهم أنور السادات ، وكامل الشناوى ، وجلال الدين الحمامصى . ومحرو القاهرة ومنهم حافظ محمود ، ومحرو الشعب ومنهم حسين فهمى ، ومحرو المساء ومنهم خالد سعى الدين . وكثير من محرو المجلات .

#### وإليك نماذج من الكتابة الصحفية :

١ - ورد في أول عدد من أعداد « الواقع المصرية » صدر بالعربية سنة ١٢٤٤ هـ ما يأتى :

« الحمد لله بارى الأمم ، والصلة والسلام على سيد العرب والجم ، أما بعد فإن تحرير الأمور الواقعه ، من اجتماع جنس بنى آدم ، المندجين في صحيفة هذا العالم ، ومن اتلافهم وحركتهم وسكنهم ومعاملاتهم ومعاشرتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضاً ، هي نتيجة الانتباه والتبصر والتدبر والإيقان وإظهار الغيرة العمومية ... الخ .

٢ - كتب الشيخ عبد العزيز جاويش المتوفى في ٢٥ يناير سنة ١٩٣٩ م ، مقالاً في جريدة «اللواء» بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨ م بعنوان : مدرسون اللغة العربية المصريون في بلاد الأنكلز « رد به على إحدى الصحف الإنجليزية التي

حملت عليه لأنّه كان شديد الخصومة للإنجليز ، بعد عودته من بلادهم إلى مصر ، ولم يرّاع أنه كان مدرساً للعربية في بلادهم ، داعية لا يستuhan بآمثاله مرة أخرى فقال من هذا المقال :

« نصح إلى المستردنلوب ، أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن اقتدى بما رأى من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة . فماذا جرى ؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم ، فزادوني تمسكاً بدني . رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم ، فزادوني حرصاً على لغتي . أبصريتهم يتغافلون في الدفاع عن بلادهم ، ويحرمون على الآجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاسِّكيم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه ، رأيتم يحبون الصراحة ، ولا يخسرون معتبرة ، ولا يتبعون متابعة ، مadam الحق لهم فأخذت أحاسِّكيم في تلك الفضائل ، التي نصح بها إلى عmadهم بنظرارة المعارف العمومية أبصريتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ، ويحضرون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادي ، ثم صرب أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع ، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم ، ويقوم خطباً لهم وشعراً لهم بالإفاضة والإسهاب في مدح من نجح في تقليدهم ومحاكتهم في فضائلهم ، من يرحلون إلى بلادهم من المصريين ! ... الخ . »

٣ - وأرسل الوفد المصري إلى حكومات الدول الكبرى والصحف الأوربية ومجلس عصبة الأمم احتجاجاً برياً على تعسف الإنجليز بالبلاد المصرية عقب مقتل السردار عام ١٩٢٤ ، وقد نشرته الصحف المصرية ، وجاء فيه :

« تسود في مصر هذه الأيام قوة غشومة مسلحة تعتمد عليها حكومة متمددة في القرن العشرين ، لإذلال أمّة ناهضة متمددة ، كل ذنبها أنها تنشد حريتها الطبيعية المقدسة ، وتطلب بحقوقها الطبيعية المغتصبة . لعله ليس في العالم كله أمّة أسفت وتألمت لقتل السردار أكثر من الأمّة المصرية ، ولقد أظهرت جميع طبقاتها بشكل واضح جلي ، أسفها واستنكارها لهذا الحادث الفظيع . وهي مع ذلك قد دفعت تعويضاً باهظاً ، وقبلت أن تعتذر ، رغم قيامها بواجبها . من تعقب

المجرمين بكل همة ونشاط . ورغم أن هذه الجريمة الشنعاء يقع أمثلها في كل بلد مهما ارتقت شئونه ، وانتظمت إدارته ، بل وقعت بالفعل في شوارع (لondon) نفسها جنائية لا تقل عن هذه الجنائية خطورة ، وهو قتل الفيلاد مارشال ويلسون رغم ما أندert به الحكومة الانجليزية من أن حياته مهددة . فلم يقل أحد بأن النظام الذي حكمت به انجلترا قد عرضها لاحتقار الأمم ! ولم يقل أحد بأن انجلترا عاجزة عن حكم نفسها . ومع ذلك حكومة بريطانيا العظمى الحالية — بالرغم من كل هذه الاعتبارات — لا تزيد أن تستغل هذا الحادث لإذلال مصر ، وتنفيذ مطامعها الاستعمارية ، على مرأى ومسمع من الدول المتقدمة ، الخ .

٤ — وكتب الأستاذ جلال الدين الحامصي في صحيفة الجمهورية الغراء بتاريخ ١١ يناير سنة ١٩٥٥ تحت عنوان « حكم الشعب » :

ستظل الأوضاع الدستورية للبلاد موضع أخذ ورد حتى يستقر الدستور الجديد وحتى تتكاشف كل القوى الشعبية لحماية هذا الدستور من أي اعتداء .

وحكم الدستور ، أو بمعنى آخر حكم الشعب ، وضع لا يختلف فيه اثنان .. لأنه أفضل النظم وأسلها ، ولا يمكن لمصر أن يقبل غير هذا الحكم .. ذلك لأن الشعب كافح في سبيله كفاحاً متصلًا . ودفع ثمناً لهذا النوع من الحكم دمه وأعصابه وجهده . ومن الواضح أن زعماء العهود السابقة استغلوا الشعب للحكم باسم الدستور وإرادة الأمة . ومن الثابت أيضاً أن أحداً من هؤلاء الزعماء لم يفكر في جوهر الدستور بقدر ما فكر في مصالحة الشخصية ، حتى أولئك الذين كانوا في يوم ما حماة الدستور .

وعلى هذا الأساس منحهم الشعب ثقته ، حتى هؤلاء لعبوا به وخضعوا للأطهاع الشخصية ، فأهدر الدستور ، وأهدرت إرادة الشعب .

هذه تجارب يجب الإفادة منها ، فإن التجربة هي أساس كل نجاح وكل

استقرار . والتخبط في الظلام مصيره أن نعود مرة أخرى ، بل مرات إلى  
أسوأ مما كنا فيه .

فتحن زر يد حياة دستورية سليمة تشتراك فيها طبقات الشعب جميعا ، بلا قيد  
وبلا تحديد ، وبلا تفريق بين طبقة متعلمة وطبقة غير متعلمة . وزر يد إلى جانب  
ذلك حكماً نياياً يسقط الحكومات ولا تسقطه الحكومات .

ولست أشك في أن هذا هو هدف الثورة الآن . ولست أتردد في الرضا  
بالانتظار . لأن الثورة التي حققت كل وعودها ؛ فقضت على الإقطاع وأقامت  
الحكم على أساس سلية ، وأجلت المحتل عن أرض البلد ، هذه الثورة جديرة  
بأن تعطى فرصة لتحقق الوعد بإقامة حكم الشعب على قواعده المستقرة .

إن الآراء التي حلها إلى البريد بشأن الحكم النباتي آراء سديدة ، إن دلت  
على شيء فعن وعي شعبي رائع يؤكد أن عودة الدستور لن تكون عودة مؤقتة ،  
بل عودة دائمة ، تجعل حكم الشعب هو الحكم الأول والأخير .

### النشر العلمي

نقصد بالنشر العلمي : كتابة التدوين والتصنيف ، التي تعنى بوصف الحقائق  
العلمية ، وتفصيل نظرياتها ، تفصيلا لا يعتمد على مبالغات أو تهاويل ،  
أو أخيلة فاسدة ، أو تصويرات مختبرعة ، أو نحو ذلك .

وي ينبغي لنا أن نهد للحديث عن أحواهها ، بنظرة بسيطة عاجلة ، إلى حركة  
التدوين نفسها .

وحركة التدوين قسمان : حركة ترجمة وتعريف ، وحركة تأليف وابتكار .  
أما حركة الترجمة : فقد بدأت في أوائل العصر ، إذ كانت ترجمة علوم الغرب  
في مقدمة ما عنيت به مصر منذ أيام محمد على . ولذلك أرسلت البعثة العلمية  
إلى أوروبا ، حتى تعجل إلى بلادها بترجمة علوم الغرب إلى لغتها ، ليقيس منها  
أبناؤها ، ويسرعوا إلى ورد الثقافة من مناهلها الأصلية ، حتى تجد منهم البلاد  
دعائم قوية لنهضتها .

وقد كانت الهمة منصرفة إلى تكوين جيش عظيم ، فاحتاجت البلاد إلى جملة من أطباء ومهندسين وقادة ، وأهل فن وصناعة ونجوم ، لنشئه هذا الجيش وتزويده بوسائل قوته ، لذلك اتجهت العناية إلى ترجمة علوم الطب والهندسة وال الحرب ، وفنون الزراعة والصناعة ، وما إلى ذلك .

وقرت الترجمة بفترور النهضة ، ثم عادت إلى نشاطها منذ عهد إسماعيل ، واتسع نطاقها شيئاً فشيئاً حتى تناولت فنون الآداب وغيرها .

وقد دعا اتساع أفق العلم ، وانتشار التعليم العالي ، وكثرة إيفاد البعثات إلى الخارج ، وشدة اتصالنا بالأمم الأجنبية ، إلى العناية بترجمة كثيرة من كتب العلوم والتاريخ و تاريخها وعلم النفس وعلم الاجتماع والمنطق والفلسفة والأداب والقصص والقوانين والاقتصاد والطبيعيات والرياضيات والتاريخ والتقويم ، إلى غير ذلك . وبلغت الترجمة اليوم مبلغاً لا يأس به ، ولكنه يحتاج إلى المزيد .

### أما حركة التأليف :

فإنها - عادة - تتبع حركة الترجمة : لذلك نبتت على أثرها وأخذت تنمو وتنشط حتى نضجت اليوم واستوت على سوقها ، وأصبحت في دور الينع والإثمار . ونستطيع تقسيمها إلى ثلاث مراحل متصلة إحداها بالآخر . ورجال المرحلة الأولى هم الذين تشقوا في عهد محمد علي ، وأدركوا عصر إسماعيل وتوفيق - والثانية هم شبيبة عصر إسماعيل وتوفيق الذين عاصروا الاحتلال وأدركوا عصر الاستقلال . والثالثة طبقة الأحياء المعاصرين لنا .

١ - أول ما عنى المؤلفون بالتأليف فيه : التاريخ والتقويم والخطط والتحشية على كتب اللغة والدين ، ووصف الرحلات ، ووضع موجزات في متن اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة ، وكانت العناية بفنون العربية ، بالتأليف فيها ببلاد الشام أسبق منها في مصر - وقد مر بيان أسباب ذلك . هذا ويلاحظ أن من مؤلفي هذه المرحلة الأولى عدداً من رجال الأزهر ، كالعطار وعليش والسيجوري والأبياري :

وكان الأسلوب العلمي في هذه المؤلفات - في الغالب - ركيكاً غناً ملئاً بالعامية ، ملحوظاً أحياناً ، ولا غرابة إن كان بعيداً عن منازع البلاغة ، وصاغ البيان . ويتفشى أسلوب السرد والوصف الساذج في كتب التاريخ والخطط مع شيء من السجع والبدع ، كما يتفشى أسلوب السرد والاعتراضات ، والتبيهات ، والشرح اللغطي ، وشرح المختصرات ونحو ذلك . في كتب الحواشي .  
وكذلك كان حال الأسلوب في الكتب المترجمة ، سواءً أفراد القانون أم السياسة أو فنون الحرب أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك .

ومن المؤلفين : ١ - الشیخ عبد الله الشرقاوى شیخ الأزهر « توفي سنة ١٨١٢ م » وله كتاب « التحفة البهية في طبقات الشافعية » ضممه أعلام هذه الطائفة من القرن التاسع إلى سنة ١٢٢١ هـ .

٢ - الشیخ عبد الرحمن الجرجي ١٨٢٥ م ، وله كتاب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

٣ - على باشا مبارك ١٧٩٣ م ، وله كتاب « الخطط التوفيقية » .

٤ - أمين باشا فكري ١٨٩٩ م ، وله كتاب « جغرافية مصر والسودان » .

٥ - الشیخ إبراهيم البيجوری ١٨٥٩ م ، وكان شیخاً للأزهر . وله جملة حواشی في الفقه والتوحید واللغة .

٦ - ناصيف اليازجي اللبناني ١٨٧١ م ، وله « فصل الخطاب » وهو في الصرف والنحو - وله غيره .

٧ - بطرس البستاني ١٨٨٣ م ، وله « دائرة المعارف » وهي موسوعة في الأدب والعلم والتاريخ ، على حروف المعجم ، أتم منها ست مجلدات ، وأتم بنوه أجزاء أخرى ، وله أيضاً معجم « محيط المحيط » ، وله كتب أخرى في النحو والصرف والحساب وغيرها .

٨ - ومن المشهورين أيضاً : الدكتور محمد على البقلي - محمد الدرى ، محمود الفلكى ، وشفيق منصور

ومن المترجمين :

- ١ — رفاعة الطهطاوى « ١٨٧٣ م » ، وله كتب في القانون والطب والهندسة والجغرافيا وغيرها ، منها « القانون المدنى » ، عربه عن الفرنسية .
- ٢ — إبراهيم النبراوى « ١٨٦٢ م » ، ترجم كتاباً في الطب منها « كتاب الأربطة الجراحية » ، عربه عن الفرنسية .
- ٣ — أحمد حسن الرشيدى « ١٨٦٥ م » ، وله كتاب « طالع السعادة » . وهو في الولادة وأمراض النساء والأطفال ، عربه عن الفرنسية .
- ٤ — محمد بك الشافعى : عاش إلى نحو « سنة ١٨٦٥ م » ، وله كتاب « أمراض الأطفال » لكتوت به ترجمه عنه .
- ٥ — ومنهم أيضاً : محمد الشباسي ، وعيسى التحراروى ، وأحمد ندا ، ومحمد بيومى ، واشتهر بنقل الرياضيات ، والسيد صالح مجدى واشتهر بنقل العلوم الحربية .

\* \* \*

٢ — ولما اتسع نطاق التعليم منذ عصر إسماعيل ، وتيقظت البلاد ، وأقبل بنوها على الثقافة وزادت البعث ، واتسع نطاق الترجمة والتأليف معاً ، وجد الناشرون حينذاك ذخيرة طيبة فيها خلفه لهم الأوائل ، من كتب مترجمة ومؤلفة ، وزاد الإقبال على تدوين كتب الأدب والقصص وكثير من العلوم الكونية ، وشيء من علوم اللغة والدين .

وظفر الأسلوب العلمي بكثير من تهذيب عباراته ، وتقويم تراكبيه ، بل ظهر بشيء من الطلاوة ، والجدة ، ونبذ تكلف السجع والبديع ، وأخذ في الانقياد لمشيئة المترجم أو المؤلف ، حتى يصوغ به ما يشاء من الحقائق والمعلومات .

ومن المؤلفين :

- ١ — الشيخ محمد عبد « ١٩٠٥ م » ، وله رسالة التوحيد .

- ٢ — قاسم أمين ١٩٠٨ م، وله « تحرير المرأة »، و« المرأة الجديدة ».
- ٣ — عبد الرحمن الكواكبي الحلبي ١٩٠٣ م، وله كتاب « أم القرى »، في طرق إصلاح المسلمين.
- ٤ — عمر لطفي ١٩١٢ م، وله « الدعوى الجنائية »، « والوجيز في شرح القانون الجنائي »، و« إنشاء الشركات التعاونية ».
- ٥ — أحمد حمدي ١٩٠٣ م، وهو ابن الدكتور محمد على البقلي، كان جراحًا وله تحفة الحبيب، وله غيرها.
- ٦ — إسماعيل سرهنوك ١٩٢٤ م، وله « حقائق الأخبار عن دول البحار »، في ثلاثة أجزاء.
- ٧ — رفيق العظم ١٩٢٥ م، وله « أشهر مشاهير الإسلام »، في الحرب والسياسة، أخرج منه أربعة أجزاء.
- ٨ — جورجى زيدان ١٩٢٧ م، وله « تاريخ آداب اللغة العربية »، و« تاريخ تمدن الإسلام »، وغيرهما.
- ٩ — الشيخ محمد الخضرى ١٩٢٧ م، وله كتاب « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين »، و« تاريخ التشريع »، و« مهذب الأغانى »، وغير ذلك.
- ١٠ — الشيخ عبد الوهاب النجار — توفي من بضع سنوات — وله « قصص الأنبياء ».
- ١١ — أحمد تيمور، وله « ضبط الأعلام »، والأمثال العامة.

ومن المترجمين :

- ١ — حسن محمود ، وقد كان رئيساً لمدرسة الطب ، وتوفي سنة ١٩٠٦ م وله كتب منها مؤلفة ومصرية ومن تعرية : « الرمد الصديدي ».
- ٢ — يعقوب صروف : أحد أصحاب المقطم والمقططف وتوفي سنة ١٩٢٧ م وله مترجمات كثيرة ، منها « سر النجاح ».

- ٣ — فتحى زغلول ، ومن تعريره « روح الاجتماع » بجستاف لوبيون .
- ٤ — محمد السباعى ، ومن تعريره « الأبطال » لتوomas كارليل .
- ٥ — عبد العزيز باشا محمد ، ومن تعريره « التربية الاستقلالية » لـAlfonso Ascarros .

٣ — هذه المرحلة الثالثة : هي مرحلة جيلنا الحاضر ومن فيه من الأحياء مؤلفين ومعربين ، من عاصروا أهل المرحلة الثانية أو تلذذوا لهم ، وهم كثرة لا يحصون عدًا . وإن نظرة عابرة إلى ما تكددس من المطبوعات العلمية الحديثة في المكاتب ، وإلى ما تنشره الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، كالآهرام والرسالة ، من أخبارها وتقاريرها ، والإشارة إلى متنضماتها ، وإلى ما تنشره مجلة « السجل الثقافي » التي تصدرها إدارة السجل الثقافي بوزارة التربية والتعليم من إحصائيات سنوية للكتب العربية والمؤلفة الحديثة ، وإلى ما كانت تنشره مجلة « الكتاب » الصادرة عن دار المعارف ، من قبيل هذه الإحصائيات ، لترى ما مبلغ عدد المؤلفين والمعربين المعاصرين ، وتنوع ما يتناولونه من المطبوعات . في الأدب والاجتماع والقانون والاقتصاد والتاريخ والتربية والسياسة والطبع وعلم النفس والطبيعة والكيمياء ، وعلوم الدين والتصوف والفلسفة والفنون والصناعات المختلفة ، وعلوم اللغة ، وغير ذلك .

وقد لان الأسلوب العلمي وانقاد طؤلام المؤلفين والمعربين ، أكثر من لينه وانقياده لسابقיהם ، وبدت فيه نضارة العبارة ، وجمال الإشارة ، وحسن العرض ودقة المقدمات وصدق التائج ، والترتيب والتبويب ، وعمق النظرية ، واستقصاء الأطراف ، والاعتماد على النصوص المأثورة ، والتعرض للروايات المختلفة ، وترجيح إحداها على الأخرى : بالدليل العلمي والحججة المادية ، إلى غير ذلك . وقد زايلتها المحسنات البدعية والسبعينات إلى غير رجعة . وإن كانت فقارها تترجح بين الطول والقصر .

ويضيق المقام إذا ذهينا نسجل أسماء هؤلاء وأسماء مؤلفاتهم ، فنجتزىء بما يأتى على سبيل المثال :

فن المؤلفين : طه حسين وله : مستقبل الثقافة ، والفتنة الكبرى . - والعقاد وله : كتب العبريات — وحسين هيكل وله : في منزل الوحي ، وحياة محمد . وأحمد أمين وله — فضلا عن غير الإسلام وضحي الإسلام — زعماء الإصلاح ، وفيض المخاطر . ومحمد رفعت ، ومحمد شفيق غربال ، ولهم كتب ومحاضرات عددة في التاريخ . وزكي مبارك وله « الأخلاق عند الغزالي » و « التصوف في الإسلام ». وعبد الرحمن الرافعى وله ، تاريخ الحركة القومية ، في عدة أجزاء .

ومن المترجمين : الدكتور منصور فهمي وله رواية « هيرمان ودوروثيا » عن جوتو الألماني : وأحمد لطفى السيد وله « الأخلاق » و « السياسة » لأرسسطو . و محمد فريد أبو حديد ، وله « فتح العرب » لبتلر . وأحمد حسن الزيات ، وله « آلام فرتر » .

وما يسر المؤرخ أن يسجله مازاه اليوم من إقبال عشرات من الشباب المثقف — وبخاصة الأساتذة الشبان بالجامعات القائمة — على الترجمة والتأليف والبحث ونشر الكتب والمقالات العلمية والأدبية في شتى الموضوعات ، مما يبشر بمستقبل على جليل .

ولنا بعد ذلك ملاحظات يسيرة على الأسلوب العلمي منها :

١ — أن بعض الكتب تتقل كاهم المصطلحات العلمية وطرق الأداء الأجنبية ، وذلك بتأثير الثقافة الغربية ، والرغبة الجامحة في سرعة الأخذ عنها ، وصعوبة تحرى ما يرادفها من الألفاظ العربية الصحيحة ، وبخاصة في كتب الطب والطبيعة والكيمياء والهندسة وما شابها . والأمل معقود على جهود العلماء والمجمع اللغوى ، في ملافة ذلك .

٢ — إن من النثر العلمي ، نوعا يسمى « النثر الاجتماعي » ، ويعنى بالنظر في شئون الأمة من ناحية حياتها المعيشية ، والنظر في أسباب انحطاطها وعوامل رقيها ، وعاداتها وتقاليدها ، وأدواتها وألامها وأماطاها في إصلاح مرافق حياتها .

فيصف الكاتب الاجتماعي كل ذلك وصفاً دقيقاً، مبيناً ضروب الفساد ووسائل العلاج، ليسير بأمته في سبيل سعادتها، وهو بهذا في حاجة إلى اصطلاح الأسلوب الخطابية، رغبة في التأثير والإيقاع. فيضخم الفساد، ويحجب العلاج، ويستمد من الماضي ذكرياته الجيدة ليث الملامة نحو الإصلاح، ويستثير كامن الغيرة والنحوة إلى التهوض، وبهذا صار قريباً من النثر الأدبي.

وقد ولد هذا الفن الكتابي الجديد في عصرنا الحديث بذلة أسباب، منها: مجىء جمال الدين الأفغاني إلى مصر، ومحاضراته ومناقشاته في مشاكل المجتمع المصري. وإنشاء النوادي والجمعيات للبحث في هذه المشاكل ونحوها. وانتعاش الحركة الثقافية، وتذوق الثقافات الأجنبية. ورؤية الأحوال المعيشية للأمم وال الحاليات الأجنبية، وما تتمتع به من رفاهة وسعادة، ومقارنتها بما يعانيه المجتمع المصري من فساد واضطراب؛ هذا وغيره نبه خواطر بعض القادة إلى ضرورة الإصلاح الاجتماعي، ومعالجة الفرد والأسرة.

ومن موضوعاته — على سبيل المثال — الروابط الزوجية، وتحرير المرأة، والسفور والمحجب، وتعليم الفتاة، ونشر الحركة التعاونية، وإنشاء النقابات ومعونة الفلاح، ومعالجة العطلة، ومحاربة أعداء الأمة الثلاثة: الجهل والفقر والمرض. الخ.

ومن كتاباته: قاسم أمين، وعمر لطفي، وفتحي زغلول، وملك ناصف، وعلى يوسف، وغيرهم.

#### كلمة ختامية في النثر :

يبدو لنا مما بیناه في موضوع النثر، خطابة وكتابة، أنه بلغاليوم شاؤماً بعيداً، فاتسعت أغراضه، وتنوعت أساليبه، وتجددت معانيه وتصوراته، وولدت منه أنواع لا عهد للغربية بها. وأصبح لدينا من الكتاب — بخاصة — من ألينت الكتابة ليراعه، وانقادت لقلمه، فاستطاع أن ينسكب في قولهما ما شاء له عقله وخياله من وقفات ناظره، وسنحات خاطره، دون مجاهدة وبجالدة، وبلغ بهضمهم في صفاء أسلوبه وسماحته ودقة أدائه وجمال قوله، مبلغاً

لا يقل عما بلغه كتاب العربية في أزهى عصورها . بل إذا قلنا إن بين كتابينا من في مكتتبته تقليد أكثر من واحد من زعماء الكتابة العربية في العصور الماضية على اختلاف منازعهم وتفرق مذاهبهم ، لم نبعد عن الحق . وكثير منهم بربور له خصوصيات في كتاباته ، استبدت بطبعه ، واستأثرت بخاطره ، وجرى بتصرفه منها قوله . وبذلك بربور شخصياتهم الكتابية التي ترشد عنهم وتدل عليهم . ومن هؤلاء : المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وطه حسين ، توفيق الحكيم ، والعقاد ، وأحمد حسن الزيات .

وسيبدو لنا من دراسة الشعر — في فصل قادم — أنه هو أيضاً قد أصاب ملغاً محموداً من النضج في العصر الحديث ، وأنه — مع هذا — لم يلحق للنشر بغيره ، ولا يزال يحرى في إثره ، ويتابع الآثار . ولذلك أسباب منها :

١ — أن النشر اخذ — منذ أول العصر — أداة للفهام في دواوين الدولة  
ودور التعليم .

٢ — أن الكتابة — دون الشعر — هي التي أخذت تعالج ترجمة الكتب  
العلمية ، فلم يشاركا في هذا الميدان إلا لاما . « ترجمة الألبيادة ، ورباعيات الخبام »  
٣ — أن الكتابة لغة الصحف والإذاعة ، وأن الخطابة لغة الزعماء أمام  
الجماهير — وهذا لم يهياً للشعر .

٤ — أن كثيراً من خطباتنا وكتابانا استطاعوا عن طريق صناعتهم هذه ،  
أن يسموا إلى مراكز في الدولة لها الصدارة ، اكتسبوا منها جاهآً وما لا .  
أما شعراؤنا فلم يجدوا ما يشجعهم تشجيعاً ذات قيمة ، ولم يستطعوا — عن طريق  
صناعتهم هذه — أن يسموا إلى ماسماً إليه نظراً لهم . وكثير منهم لا يزال  
متسلكاً يقضى زهرة عمره كادحاً في سبيل الجيش ، في وظيفة متواضعة أو نحوها  
وشعره يحترق في ضيئره . ولا يجد من يرد على نفسه معنويتها .

وبعد ! فهذه بعض الأسباب التي أتاحت للنشر العمل والمرانة ، فسار قدماً  
نحو السمو والتقدم ، دون الشعر . وسنعود إلى تفصيل ذلك عند الحديث  
عن الشعر .

## الترجمة وأشهر المתרגمين

### ١ — الحاجة إلى الترجمة :

لا بد للأمة الصعيبة المخوذة التي فرق الزمن بينها وبين العلم الصحيح ، والتي باعدت الأيام بينها وبين الحياة الروحية السليمة ، فإذا ما ساورتها فكرة النهوض وحاولت أن تغسل عثارها ، من أن تم بدورين لا يحيى لها عندهما . الأول : دور الترجمة والنقل عن الأمم المتحضرة التي سارت من قبلها صعداً في سلم المجد العلمي ، وارتفعت مراتج الحياة الروحية الأدبية السامية . حتى إذا ما روى ظمئها وزال صدؤها ، وتمثلت في سيرتها حقائق العلوم ونظرياتها ، وطرق البحث ونظمها ، واستقر في سعيتها فهم الأدب وحيويته ، وشعرت — في عمق — بالحاجة إليه ، آن لها بعد ذلك أن تنتقل إلى الدور الثاني ، وهو دور التأليف والابتكار ؛ تقدم عليه غير هيبة ولاوجلة ، ومزودة بملكته علمية ومقدرة أدبية ، سرت كل منها في سلطتها سريان الدم النقي في شرائين الجسد .

وليس معنى ما تقدم أن كل دور منفصل عن الآخر ، لا بل كثيراً ما تبدو روح التأليف والابتكار ، ولا يزال دور الترجمة في إبانه وينعه .

### ٢ — أسباب نهوض الترجمة في مصر ، وطرقه ونتائجها :

(١) ولقد كان من حظ مصر — بعد أن كانت قد كبرت بها جوادها — أن أتاج الله لها أسباب النهوض منذ عهد محمد على . فرأى أن البلاد أنه لا بد لها من أن تنهض بدور ترجمة تنقل فيه عن أمم أوروبا ، علومها ، بعد أن بلغت شاؤوا بعيداً في سبيل الرقي العلمي ، فشمرت عن ساعده الجد ، وبذلت في سبيل الترجمة مساعي جليلة الشأن آتت كلها شيئاً ، ونوهنا فيها سبق بشيء من ذلك — ومنه :

بعث البعث العلية إلى أوروبا ، وتوصية أعضائها بترجمة الكتب النافعة ، وجلب المתרגمين الذين استخدموها في المدارس الجديدة وبخاصة مدرسة الطب .

وإنشاء مدرسة الألسن لتخريج شبيهة قادرة أتقنت اللغات الأجنبية ، ليهدى إليها بترجمة الكتب العلمية ، وتأسيس قلم خاص للترجمة برئاسة رفاعة الطهطاوى وفريق من متخرجى البعثات ومدرسة الألسن ، وقد عهد إلى هذا القلم بترجمة كثير من الكتب العلمية .

وكان نتيجة هذه الحركة الماركة : نقل العلم إلى مصر ، وتسهيل سل التعليم ، وتنسيير الأخذ عن المدرسین الأجانب الذين ملأوا حينذاك فجاج المدارس في البلاد ، وكذلك ترجمة كثیر من كتب الطب والتشریح والطبسيطری والزراعة والصياغة والکیمیاء والفنون العسكرية والهندسية ; والقانون . وإنضمام الأسالیب العربية — ولو إلى حد — للتعمیر العلمي . وبعث بعض مفردات اللغة لتدیی جانبا من الحفائق .

وقد نوهنا في الباب السابق بعدد من المترجمين في هذه الفترة ، ومنهم : رفاعة الطهطاوى ، وإبراهيم النبراوى ، وأحمد حسن الرشیدى ، ومحمد الشافعى ، و محمد الشیاسی ... الخ؛ فراجعهم .

(ب) ثم فقر أمر الترجمة بعد محمد على ، حتى كان عصر إسماعيل ؛ فانتشر التعليم في عهده ، وفتحت المدارس وأرسلت البعوث وزادت الرحلة بين مصر وأوروبا ، فوجدت الترجمة في هذا كله ميدانا فسيحاً ومراماً واسعاً . واشتعل بالترجمة كثيرون ونقلوا كثيرون في القانون والاقتصاد والتاريخ وغيره .

ولبث أمر الترجمة بين كبوة ونهوض ، حتى اتسعت دائرةها اتساعاً محموداً بعد ثورة عام ٩١٩١ بحملة أسباب منها : انتشار المدارس المختلفة بين صناعية وتجارية وثانوية ، وكليات جامعية . وما تناول منهاجها من تهذيب . وتقدير مواد دراسية تحتاج إلى مراجعة الكتب العلمية الأجنبية . وعما عزز هذه الحركة : بعث البعوث إلى الخارج ، وانتشار السفارات بين مصر وسوها ، والإكثار من عقد المؤتمرات الدولية في القاهرة ، والإقبال على مفاوضة الدول

الخارجية في شتى الأمور المصرية من سياسية وغيرها ، مما يحتاج إلى وثائق ومكابدات ، تنقل وتترجم ، من العربية وإليها ، وانتشار الصحف وعناتها بنقل الأخبار الخارجية . ثم الرغبة في ملء الفراغ العلمي والأدبي الذي يرى في لغتنا ، وبخاصة في العلوم الحديثة ، وفي أنواع من الآداب مثل القصص والشعر والنقد .

وقد ترجمت عدة كتب في الفلسفة والتربية ، وفي التاريخ والتقويم والطب والهندسة والصناعات والكيمياء وعلوم الرياضة ، وعلوم الاجتماع والقوانين والدساتير ، والقصص التاريخية والمتاحف وغيرها ، وطرق البحث والنقد الأدبي وغير ذلك .

وكثير من الكتب التي ألفت في هذه العلوم ، هي - في الواقع - مترجمة ، عربها مؤلفوها وأدخلوا عليها ضرباً من التغيير .

ويبدو لنا - بعد إلقاء نظرة على الكتب المترجمة حديثاً ، وعلى ما أحجهته منها جلة «السجل الثقافي» - أن أكثر الكتب المترجمة في جيلنا الحاضر ، كتب مدرسية . وأن الترجمة لم تعم في كافة العلوم المختلفة ، وأن همة المترجمين منصرفة إلى تعريب الروايات أكثر من غيرها .

ونلاحظ على حركة الترجمة ما يأتي :

١ - أنها كانت حركة معنية بالعلوم أولاً ، ثم أخذت تعنى بالأداب ، أما في سوريا فعنيدت بالعلوم والأداب معاً .

٢ - وأنها كانت حركة حكومية بعيدة عن نشاط الأفراد الخاص ، ولكن بعد زمن طويل ، أخذ كثير من الأفراد يهونون الترجمة ، ويغامرون فيها بمواهبهم ، دون نظر إلى الحكومة أو تشجيعها .

ومن أبرز المترجمين : فتحى زغلول ، وله كتاب «روح الاجتماع» و «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» . ويعقوب صروف وله «سر النجاح» . وسلیمان البستاني ، وله «إليازة هوميروس» عربها شرعاً . وحافظ إبراهيم مغرب

« البوسام »، و « محمد السباعي » و « الأبطال »، و « رباعيات الخiam »، عربها شعراً و عبد العزيز محمد وله « التربية الإستقلالية »، لـ « الفونس اسكيروس ».

ومن الأحياء المعاصرين : طه حسين وله « قصص تمثيلية »، وأحمد لطفى السيد وله « الأخلاق »، لـ « رسطو »، وأحمد حسن الزيات وله « آلام فرتر »، و محمد فريد أبو حديد ، وله « فتح العرب لمصر »، عربه عن بتلر ، و عباس محمود العقاد ، وقد ترجم فضولاً أدبية وقصائد شعرية عدّة وغيرهم كثيرون — وقد سبق لنا التدوين بعضهم .

٣ — وأنها فردية ، ولم تجتمع لها جهود الجماعات إلا قليلاً : ومنهم « لجنته » الترجمة والتأليف والنشر، المنشأة سنة ١٩١٤ م ، ولها جهود موقعة في التعريف . ولجنته ترجمة « دائرة المعارف الإسلامية »، وتتكون من بعض الجامعين ، وقد صدر أول عدد لها سنة ١٩٢٣ م .

٤ — أن في بعض دور التعليم ، جعلت الترجمة مادة من مواد الدراسة . يعالجها الطلاب ، وبخاصة من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلى العربية ، وأن في كثير من دواوين الدولة ، قلياً خاصاً للترجمة ، للقيام بترجمة ما يحتاج إليه من مكتبات من العربية أو إليها .

٥ — وأن في بعض دور الصحف أقساماً خاصاً للترجمة ، فيها عدد من أفضل المترجمين إلى العربية ، يعربون الأخبار الخارجية والمذكرات والوثائق المكتوبة باللغات الأجنبية ، وما إلى ذلك ، وبهذه المناسبة نذكر ما يروى عن المغفور له إبراهيم عبد القادر المازني الكاتب الأديب الصحفي ، أنه كان يارعاً في اللغة الإنجليزية ، سريعاً في ترجمة مكتوباتها إلى العربية ، حتى إنه كان يعربها فور قرأتها عليه .

#### أثر الترجمة في الكتابة والشعر :

يضيق بنا مجال القول إذا رحنا نعد الآثار التي أحدثتها حركة الترجمة في كتابنا وشعرانا ، ولكننا نجملها فيما يأنى :

### ١ - سبق ارتفاع الشّر على الشّعر :

كانت الكتابة في أول العصر ، هي والشعر يتعرّان في أذىالضعف والركاكة والغثاثة ، ولكن حينما أخذت حركة الترجمة في النشاط والازدياد ، واطلع الأدباء والمنشئون على ضروب من الكلام ، وشنات من العلوم ، لاعهد لهم به ، كان ذلك حافزاً لهم على بحارة الأوروبين والتشبه بهم فيما يكتبون وما يصطنعون من فنون الإنسانية . وكان أثر ذلك باديأ في الشّر أو واضح منه في الشّعر ، لأن طبيعة الشّر مررت بتحريرها من القيود ، وفي مكنته التأثيرين أن يتريثوا به عنها . أما الشعر : فله من قيود الورن والقافية ما قد يعوقه عن سرعة الأمر . وليس هذا وحده كافيأ لها ، بل إن اتجاه المهمة في أول أمرها ، إلى الناحية العلمية دون الأدبية ، وإلى ترجمة الكتب الغلبة دون الأدبية ، وإلى ترجمة كتب التراث دون كتب الشعر ، أتاح للشّر فرصة الاقتداء والسير على الأثر .

### ٢ - اتساع آفاق القول ، والإقدام على التأليف :

باطلعاً الأدباء على ما عرب من الكتب والقصص والمقالات والبحوث ، وجدوا أنواعاً شتى من فنون القول ، وسعت أمامهم آفاقه ونبت خواطراً لهم إلى كثير من أغراضه ، بغير بوا أفلامهم في ميادينها بدافع من حب التهوض ، والرغبة في التقدم ، فقلدوا وتقروا وجرروا شوطاً في هذا المضمار ، حتى أخذوا يحاولون التأليف والتتجديد فيه ، والشّر نصيب من ذلك كبير ، إذ عانى النّازرون التصنيف في علوم كثيرة كالتأريخ والتقويم والرياضة والتربية والطبيعة والكيمياء ، محاولين أن يصدقوا مصنفاتهم بصدقهم ويطبّعواها بطبعتهم ، ويعبروا فيها بأسمائهم .

ويلاحظ أن التصنيف في العلوم الكونية الحديثة ، قد تقدم على التصنيف في العلوم العربية والدينية — وقد نوهنا بذلك — ثم دب النشاط في المعينين بأسر اللغة وفنونها ، فألفت كتب في التحوّل والصرف ومتان اللغة وفقها وبلاعها وأدبيها ، ولكن هذا لا يعد — في نظرنا — شيئاً مذكوراً بجانب مانزجوه وترقبه . أما علوم الدين فلا تزال تعاني كثيراً من عثارها ، ونحن في انتظار من يقبلها .

هذا في النثر . أما في الشعر : فقد ناله من اتساع فونه ، شيء محمود فسوغت أغراضه ، ومنها : الشعر الاجتماعي ، والنفسى ، والسياسى ، والتثليل . وتهذبت أساليبه واقتدرت عن التعمير عن كثير من المعانى الدقيقة المقدمة ، في يسر ووضوح ، كما اتسع معجم ألفاظه ، إلى غير ذلك ، مما سقط في بونها ذاجه في باب الشعر .

### ٣ — المصطلحات العلمية والأساليب الداخلية :

اصطدم الأدباء والمنشئون ، وبخاصة أهل الكتابة العلمية ، حين الترجمة والتعريب ، ومحاكاة ما يترجم ويعرب ، بصخرة صماء تحتاج إلى معاول حاده ، تصيرها فتاتا سهلا ، وتلك هي المصطلحات العلمية ، ولا سيما أسماء الآلات الحديثة وأجزائها ، ومعها كثير من الأساليب الفرنجية ، عجزوا عن العثور على مرادف لها في العربية ، وقد اسعانوا في تذليلها بمعجمات اللغة وكتب العلم العربية القدية ، يستخرجون من بطنها المفردات الصالحة لأن تحمل محل مرادفاتها الفرنجية ، ولكن هناك علوما ، أو فروع علوم ، لم يسبق للعرب الاشتغال بها على بسط من اشتغال الأوربيين ، كعلوم الرياضة والكيمياء والطبيعة والهندسة ، وهنا زادت مسألة المصطلحات تعقيدا ، ولاتزال حتى اليوم ، من أهم المشاكل التي يصطدم بها التأليف العلمي .

وليس معنى ذلك أن العلماء وقفوا إزاءها مكتوف الأيدي ، بل عمل كل من جانبه على تذليل ما يستطبع تذليله . هؤلاء المترجمون من السريان والمغاربة والأرمن الذين استخدمهم محمد على في مدرسة الطب ، وهؤلاء المصريون الذين اضططعوا بقلم الترجمة برئاسة رفاعة الطهطاوى ، وهؤلاء الذين زاولوا الترجمة والتأليم وهيمنوا على إصلاح الأسلوب الكتابي ، ومنهم على مبارك ، وعبد الله فكري ، نقول : هؤلاء وغيرهم أخلصوا للغة على قدر استطاعتهم ، وأجروا كثيراً من مفرداتها المهجورة ، ووضعوا — عن طريق المجاز والاشتقاق — مصطلحات جديدة ، وما زال العلماء والأدباء إلى يومنا هذا ، جادين في هذه السبيل ، لتنقية العربية من المصطلح الدخيل .

ومن المفردات الجديدة التي ذاعت واستقرت على معانها الحديثة : البرق ،

والسيارة ، والمسرة ، والمطاد ، والواحى أو المذيع ، والحاكي ، والدبابة ، والدراجة ، والأثير ... الخ .

ويبذل بعض المهندسين والأطباء والأدباء جهوداً مشكورة في الإكثار من هذه المرادفات العربية ، كأن المجتمع اللغوى معنى بوضعها . وبعض أهل الرأى يفضلون تعريب المصطلحات العلمية ، كاً هي في الفرنسية بعد صقلها صقلاماً بدلاً من هذه المجهودات الشاقة في سبيل وضع مصطلحات عربية مرادفة ، وهذا التعريب خطير — في نظرنا — على اللغة يبعدها عن أصولها الأولى .

ولا تزال العلوم تجع — حتى اليوم — بمصطلحاتها ، نتيجة الانكباب على ترجمتها عن الأجنبية ، وعجز المترجمين عن وضع المرادفات العربية ، ومثل ذلك : الأكسجين ، والإيدروجين ، والأزوت ، والكلور ، والفسفور .. الخ .

وقد كتب الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الاسكندرى — رحمه الله — رسالة تلaha في بعض المؤشرات العلمية وضع فيها عشرات من المفردات العربية الصالحة للحلول محل هذه الدخلية ، ومنها على التوالي للمفردات المذكورة : المصدى للأكسوجين . والميمية للأدروجين ، والمخضب للأزوت . الخ وكلها بصيغة اسم الفاعل .

هذا ومن الأساليب الدخلية ما يلى :

١ - الموضوع يعطينا فكرة أو نأخذ عنه فكرة « بمعنى يصور لنا أو يفكّرنا » .

٢ - محمد ، كدرس ، يفيد الطلاب ، وكتولم ، غير متوج « وهو استعملت كاف التشبيه وما دخلت عليه ، حالاً » .

٣ - رغب محمد في الاطلاع بعض الشيء « واستخدمت كلمة شيء مكان مصدر الفعل » .

وغير ذلك كثير . وقد يجد علماء النحو مخرجاً عربياً ، مثل تلك الأساليب . خطرها — في رأينا — غير ذي بال لا كالمصطلحات .

٤ - العزوف عن حاكاة القدماء :

كانت الكتب الأدبية القديمة من أمثال مقدمة ابن خلدون وكلية ودمنة

والبيان والتبيين ، وشعر القدامى أمثال : زهير والنابغة وحسان وأبي تمام  
النادج العليا لكتاب العصر وشعرائه . وقصارى جهودم أن يحاكموا هؤلاء  
الأدباء والنوابع .

ولكن ما عتموا بعد أن اطّلعوا على الأدب الأوروبي وما يكتبه كتابه ،  
وينظمه شعراً ، وبعد معاناة للترجمة عنه ، أن عدلوا عن الإغرار في التقليد ،  
وحاول كل منهم أن يكون له شخصية مستقلة .

وكان من مظاهر هذا العدول ، أن كلامهم لم يعد حكماً محشودة ، ولا أملا  
ملفقة ، ولا فقاراً متنافرة ، بل مقالات مسبوكة العبارة ، محبوكة الأطراف ،  
أو قصائد ، الصلة بين أبياتها وثيقة .

#### ٥ - طلاقة الأسلوب :

أصبح الأسلوب النثرى والشعرى سهلاً منطلقاً ، لا كلفة فيه ولا قيد من  
طباق أو جناس أو سبع ، أو تعمد استعارة أو تشبيه ، أو غير ذلك . إلا ما منع  
عرضًا ، واقتضاه سياق الحديث .

ولانتشار التعليم والثقافة ، وقراءة الأدب القديم ، أثر لا ينكر في هذه  
الحرية التي استردتها الأساليب . وللترجمة في ذلك مشاركة جليلة ، لأنها قدمت  
نماذج للأساليب الحرة ، فاقتدى بها الأدباء .

وقد عف الأدباء عن المقدمات المطولة ، وعافوا كثيراً من ألقاب التعظيم  
وألفاظ الدعاء ، وعبارات البدء والختام إلى غير ذلك؛ خنراً من التفو والخشوة .  
ولا بد من الإشارة إلى أننا لا نزال نرى بعض المعربيين يعتاص عليهم  
الأسلوب ، حينما يصورون معنى غريباً . أو يعالجون فكرة معقدة ، فيعجزون  
— بداع من ضعف ثقافتهم العربية — عن إبرازها في أسلوب قشيب سخيف ،  
لذلك تبدو الكلفة والتغير والغموض في عباراتهم .

#### ٦ - العناية بالمعنى قبل اللفظ :

وما للترجمة أثر باد فيه : اتجاه الأدباء إلى الاهتمام بالمعنى أولاً ، فيصرف  
إليه جل العناية ، ثم يؤدى بعبارات وألفاظ ، تفهم في يسر وسهولة وسرعة .  
يعيدة عن مبتذل العامة ، والخشوة والتطويل ، وقد حملت الترجمة إليهم طوفاناً

من المعانى والتصورات الجديدة ، خلبت ألباهيم وشغلت فراغ عقوبهم ، وأذهلت  
أقلامهم عن أدب الألفاظ ... وبذلك أصبح المعانى المنزلة الأولى .

#### ٧ - تحديد الموضوع وترتيب الفكرة :

ولم تقتصر العناية على تحديد المعنى وإبرازه في العبارة ، أو البيت ، بل امتدت  
إلى المقالة والقصيدة . فأعتبرت كل منها وحدة لاتجزأ ، يراعى في إبراد  
جزئياتها ، الترتيب والنظام ، وحسن المقدمة ودقة النتيجة ، وجمال العرض ،  
وقوة الربط ، وسوق الحجة والقياس ، وقد تأثر النثر بذلك أكثر من الشعر .

#### ٨ - اتساع ميدان الخيال :

ولقد أصبح لأدبنا مدللاً يتضبّ معه ، ولا تغيب عنه ، فيما يقدم إليهم  
من الأدب العرب ، وما يطلعون عليه من الآداب الأجنبية ، نقل إليهم كثيراً  
ما توحى به وتلهمه ، البيئة الأوروبية ، من صور رائعة وأخيلة بدعة ، لا عهد  
لأدباء العربية بها . خالوا أن يطبعوا أنفسهم على غراره ، ويلجوا طريقه ،  
وينهجوا نهجه . وبذلك اتسع أمامهم ميدان الخيال ، وفرهت دفة النصور ، وتلافع  
في أطواط فنونهم الخيال الفرنجى بالخيال العربى ، وموجبات البيئة الغربية  
بموجبات البيئة الشرقية : فأخذ يتولد في ضمائرهم نزعات أدبية جديدة تحتاج إلى  
مزيد من الضرج . وبدت مظاهرها في القصة والتثليل ، والنقد التحليلي ، والمقالات  
الوصفية ، وفي الشعر السياسي والاجتماعي والقصصي والتثليل والوصفي إلى غير  
ذلك . — وأخذنا نظر إلى الشعر نظرة جديدة باعتباره حاجة نفسية للآلة . غير  
أن هذه النظره لا تزال في دور الطفولة ...

ولعل السوريين أكثر تأثيراً بالخيال الأوروبي من المصريين . ذلك لقرب  
شبههم بالأوربيين في البيئة وجمال الطبيعة وختلف مناظرها ، وفي كثير من  
العادات ، إلى غير ذلك . وهذا ترى من بعضهم جوها في التصور ، وشروعداً في  
التعبير ، بدافع من تأثيره بالخيال الأوروبي ، أبعده عن التصور الشرقي والتعبير  
العربى السليم ، فاختلط أمره ، وربما تندو ق شعره أو ثراه ، على كثرين .

### الترجمة في بلاد الشام :

وبناءً على الحديث عن السورين نذكر أن مصر سبقت الشام في ميدان الترجمة، واشتغلت بها مبكرة. ولما أخذ رجال الجامعة الأمريكية وكلية الآباء اليسوعيين في تعليم تلاميذهم العلوم الأوربية الحديثة، باللغة العربية — تقدروا إلى العامة، ووسيلة لستر دعائهم — نشطت الترجمة في بلاد الشام نشاطاً محموداً، وأقبل رجال الكليتين وعدد من متخرجيها، على الترجمة، وأهم مترجموه : كتب دراسية تيسر العلم للتلמיד ، في الطب والطبيعتيات والرياضيات، والتاريخ والجغرافية والفلك . وبين المترجمين عدد من المبشرين الأجانب أقتفوا العربية بنزولهم في بلاد الشام وبصاحتهم لفصحاء أهلها . ومن المترجمين :

الدكتور كريستيانوس فانديك ١٨٩٥ م، ومن كتبه : كتاب في مبادئ الطب الشرى ، ورسالة في الجدرى ، وكتب في الهندسة والجبر والفلك وغير ذلك .  
والدكتور يوحنا وربات ١٩٠٨ م ، ومن كتبه : كتاب في أصول التشريح ، وله غيره .

والدكتور جرج بوسط ١٩٠٩ م ، ومن كتبه : المصبح الواضح في صاعة الجراح ، ومبادئ النبات . وغير ذلك .

وأول عناية بذلك لترجمة الأدب ، كانت مبنولة لترجمة التوراة . وقد بكر إلى ذلك ، الاستاذ في المستشرق الإنجليزي بمعاونة أحمد فارس الشدياق قرجمها وطبع ترجمتها سنة ١٨٥٧ م ، غير أنها لم تنشر . ثم سهر رجال الكليتين الأمريكية واليسوعية بيروت ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، إلى ترجمتها . فترجمها عن العبرية وغيرها ، للكلية الأمريكية أحد المبشرين الأمريكيين المستشرق الدكتور « عالي سميث » بمعاونته بطرس البستاني وناصيف اليازجي ، وغيرهما ثم أنها الدكتور فانديك السابق ذكره ، وعرفت هذه الترجمة « بالتوراة الأمريكية » . وترجمها عن العبرية واليونانية وغيرها ، للكلية اليسوعية عدد من آباء الكلية بمعونة الشيخ إبراهيم اليازجي ، وعرفت هذه الترجمة « بالتوراة اليسوعية » .

وإليك نماذج من النثر والشعر المترجمين :

١— كتب أحمد فتحي زغلول في كتابه « روح الاجتماع » المترجم عن « جوستاف لوبيون » فصلاً تحت عنوان : « ذمن الجموع » قال فيه : « يحال الناظر في أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التي تتقى قطور المدينة في الأمم ، مثل سقوط الدول الرومانية ، وقيام الدولة العربية ، ناشئة عن تطور سياسي عظيم ، كإغارة الأمم بعضها على بعض ، أو سقوط الأسر الحاكمة ، وهكذا .

لَكُنْ نَعْدُ إِنْعَامَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْحَوَادِثِ ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ وَرَاءَ أَسْبَابِهَا الظَّاهِرَةِ فِي الْغَالِبِ — سَبَباً حَقِيقِيًّا ، هُوَ التَّغَيِّرُ الْكَلِّيُّ فِي أَفْكَارِ تَلْكَ الْأَمْمَ ، فَلَيْسَ الْانْقْلَابُونَ السِّيَاسِيُّونَ الْحَقِيقِيُّونَ الْكَبِيرُونَ هُوَ الَّتِي تَدْهَشُ الْبَاحِثِينَ بِعَظَمَتِهَا وَعَنْفَهَا : وَإِنَّمَا الْانْقْلَابُ الصَّحِيحُ الْجَدِيرُ بِالاعتِبَارِ ، الَّذِي يُؤْدِي إِلَى تَغْيِيرِ حَالِ الْأَمْمِ الْمَدِينَةِ ، يَحْصُلُ فِي الْأَفْكَارِ وَالنَّصُورَاتِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ ، ... إِلَخُ .

٢— وكتب الدكتور منصور فهمي في رواية « هيرمان ، ودوروثيا » المترجمة عن « جوتفري » الشاعر الألماني ، في « التشيد الأول » ، من حديث رب البيت لزوجته ، يذكر لها حال مهاجرى الألمان من شاطئ الرين الغربى ، إلى شاطئه الشرقى ، فراراً من أعدائهم . قال :

« كلا ! ما عهدت السوق والشوارع ، كذلك خالية كأن المدينة قد هجرت ، أو قد قبرت ، وفي ظني ، لا يتجاوز من يق من سكانها ، الحسين عدا ، وما الذي لا يفعله حب الاستطلاع ؟ هكذا يسعى كل ويختف ، ليرى ما في هؤلاء المهاجرين المنكوبين ، من مشهد حزن ! ومع أن الوصول إلى الطريق الذى سيمررون بها ، يقتضى مسيرة نحو الساعة فالناس يهرعون فوق رماد الهجير المحرق . أهـ أنا ! فلن أُربح مكانى لأرى نكده هؤلاء المساكين ، الذين ينزلون إلينا على مضمض ! من الشاطئ الآخر الجميل لنهر الرين ، وقد أنقذوا معهم ما استطاعوا إبقاؤه ، ويسيرون خلال تلك البقاع السعيدة ، وفي حنايا واديـنا الخصيب . لك الحمد يا زوجى ؛ ولأنها لأماره واضحه من شمائـل طيبتك أن ترسلـي ولدـنا لكـي يوزـع على هؤـلاء المنـكـوبـين ، خـرقـنا الـقـديـمة ، والـأـطـعـمـة ، والـلـاـشـرـيـة ؛ وـكـانـ العـطـاءـ حـقاـ علىـ المـوسـرـينـ ، إـلـخـ .

٣ — وترجم الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « ساعات بين الكتب » قصيدة لتوomas هاردى الشاعر الإنجليزى ، يصف مناظر الطبيعة في الصباح الباكر ، فنها :

« وإذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصباحة ، جدولًا وحقلاً وقطيعاً وشجرًا وموشاً ، رأيت كأنما هي أطفال مكبوبة على مقاعد الدراسة ؛ تشخص إلى أوكانما قد طالت عليها نفحة الأستاذ في أساليبه فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السامة والحجر والإعياه ، وكأنما تهمس بسؤال كان مسموعاً ، ثم تحافت ، حتى تنبس به الشفاه ؛ عجباً لا انقضاء له أبد الزمان ، ما بالنا نحن قائمين حيث نقوم في هذا المكان ؟ ، الخ .

٤ — من شعر « إلإذة هو ميروس » التي ترجمها سليمان البستانى شعرأ عربياً ، قال في مفتتحها ، يذكر الخلاف الذي نشب بين « أخيل » و « أتريد » ، « أغامون » بطل الإغريق ، وقت حصارهم « طروادة » :

ربة الشعر عن « أخيل بن فيلا » نشدينا واروى احتماماً ويلا  
ذاك كيد عم « الأخاء » بلاء فكرام الفوس ألفت أفولا  
« لاذيس » أفقدن منحدرات وفرى الطير والكلاب القبولا  
ثم ماشاء « زفس » من يوم ثبت فته بالشقاق تنذر أولى  
بين « أتريد » سيد القوم ثارت بصلاتها والمجتبى « آخيلا » الخ ...

\* \* \*  
٥ — ومن رباعيات « الخيام » للشاعر الفارسي . التي ترجمها محمد السادس  
شعرأ عربياً . قال في مفتتح النشيد الأول :

غرد الطير فيه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس  
سل سيف الصبح من غمد الغلس وانبرى في الشرق رام أرسل  
أشهم الأنوار في هام القلاع  
صاحب في النوم طيف : هاتها ثلاثة الأكواب من ياقوتها  
قبلما تتضب في كاساتها خمرة الروح وترتدى إلى  
منبع بالغيب بمجهول البقاع

المشرقون

١ - الاستشراق هو انتصار بعض علماء الإفرنج إلى دراسة الشرق وأحوال الدوله و تاريخ شعوبه وأديان أمه و لغاتها، وما هذه الأذم من آداب وعلوم عادات وتقاليد في غابر أيامها وحاضرها.

٢ - وقد اتجهت عنابة الغربيين إلى هذه الدراسة منذ عصور بعيدة ، وبخاصة حينما كانت أوروبا تضرب في ظلام دامس جهل شعوبها واستبداد حكامها . وحينما رأى اليقظون من شبابها والأحرار من رجالها ، ازدهار الحياة ببلاد الأندلس بفضل دولة بنى أمية القرطية بها ، وقيامها بنشر حضارة العرب وآداب الإسلام بين ربوّعها ، وإثابة وسائل الثقافة لمن شاء من أبنائها والوافدين عليها . لهذا فصد بلاد الأندلس بعض الأوربيين ، قهلوا من مناهلها واستئنروا بأضوانها ، ثم عادوا إلى أنفسهم يوفظونها من غفلتها . ويمحون ظلام جهلها بما أفادوا من نور العلم والحضارة . وترجعوا إلى اللاتينية كثيراً من كتب العربية ، سواء منها ما ألفه العرب أو ترجموه عن اليونانية في الطب والهندسة والحساب والملك والكيمياء والمسقط والفلسفة وغيرها .

فكانت هذه الأهداف أولى الأسباب التي أدت إلى الاستنساق في ذلك الزمن المبكر، وكان العرب وآدابهم في طبعة الموضوعات التي عنى المستشرقون بدراستها والقل عنها.

٣ - واطردت هذه العناية ، واستمر هذا الإقبال من المستشرين ، حتى بعد زوال العرب بالأندلس ، وذلك بداعم اطراد يقظة الشعوب الأوروبية . ورغبة رواد الفكر من ينها في التزود من العلوم والآداب ، لما لذلك من أثر في تبيه أنفسهم وتبصيرها بالحياة الصحيحة ، تم بداعم الرغبة في التزوح إلى بلاد الشرق ، للرحلة والفرج أو البحث والدراسة ، أو للاتجار وتداول السلع . فكانت هذه الأمور في طليعة الأسباب التي أذكت رغبة المستشرين في الاستشراق والتخصص له ، ودفعت بعض الدول إلى فتح المعاهد الدراسية لتعليم الراغبين في دراسة الشرق وأحوال أمه وآدیانها ولغاتها وتاريخها وما إلى ذلك . كما أنشأت المطبع بالحروف العربية لمساعدة نشر الثقافة العربية القدمة .

ويبدو أن تأثير الشرق - قبل نهضته الأخيرة - أغرى أمم أوروبا بغزوه واستعماره واستغلال موارده ، وبالتبشير بال المسيحية بين ربوبيه . فكان هذان العاملان من أقوى الأسباب التي أدت إلى اشاط الاستشراق وتنظيمه . لما لدراسة الشرق من أثر في كشف تغراه ومواضع ضعفه ، مما يعين المستعمرين والمبشرين على بلوغ أهدافهم منه . ولا تنسى أن رجال الدين كانوا في مقدمة المبادرين إلى الاستشراق .

٤ — وممما يكن من شيء فقد فوى الاستشراق وتعدد وجهاته، وامتدت آفاقه، حتى لم تعد الدراسة فيه مقصورة على الأمة العربية وحدها، وإنكثراً مع ذلك ظلت أهم الأمم التي يعني المستشرقون بدراسة أحوالها. وقد أفاد العرب والمسلمون، بلا ريب، من وراء هذه العصبة فوائد لا تُحصى منها:

(١) أن المستشرقين نشروا أخبارهم وأحوال مدنיהם وعادات مجتمعاتهم وأنباء دينهم وآداب لغتهم واتجاهات ثقافتهم ، بين الأمم الأوربية ، كما ترجموا كثيرة من كتبهم إلى لغات شعوبهم ، وفي مقدمة هذه الكتب : القرآن الكريم وكت الحديث ، وكتب علوم الكلام والفقه .

ولاريب أن لذلك أثراً في تبنيه الرأى العام الأوروبي إلى حقيقة العرب ودينهم ومدنیتهم ، وتصحیح فکرة الشعوب الأوروبية عن العرب ، ويستتبع ذلك حسن تقديرهم .

(ح) ولم يقنن المستشرقون على الدراسة وطبع المخطوطات؛ بل ألغوا المؤلفات النافعة وسبلوا فيها ملاحظاتهم القيمة التي بذلت لهم أثناء الدراسة؛ خدموا

الشرق بذلك أجل الخدمات . وأنصفوا آدابه وأعلامه . ولا يعنينا هذا أن نذكر أن بعضهم أعماء التحصص وملكة الموى فأسماء إلى الشرقيين وأديانهم ولا سيما العرب والإسلام ، ونشر عنهم في مؤلفاته أباطيل هم منها براء ..

(د) هذا إلى أن البلاد العربية — ولا سيما مصر — رأت أن تستعين في نهضتها الحاضرة بكتاب المستشرقين ، فسارت منذ أمد ، على سياسة استقدامهم للاستفادة من علمهم وخبرتهم ، واستخدامهم في بعض كليات الجامعات المصرية وفي المجتمع اللغوي .

هـ — والآن نشير لك إلى بعض أعلام المستشرقين الذين كانت لهم يد طولى على العرب والمسلمين بنشر آدابهما فنون حسب وفياتهم :

(ا) سلفستر دي ساسي :

مستشرق فرنسي : تعلم العربية والفارسية ، ونشر كليلة ودمنة ، وألية ابن مالك ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ، وجملة من المت蚌بات العربية سماها « الأنثى المفید للطالب المستفيد » . وترجم كتاباً عربية إلى لغته ، غير بحوثه الكثيرة . وتوفي عام ١٨٣٨ م .

(ب) إتيان كترمير :

فرنسي أيضاً كان تلميذاً لدى ساسي وأتقن العربية وبعض اللغات الشرقية . ونشر مقدمة ابن خلدون ومت蚌بات من أمثال الميداني : وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين . وترجم إلى لغته أجزاء من سلوك المقرizi . هذا عدا بحوثه الكثيرة . وتوفي عام ١٨٥٧ م .

(ج) فرايتاج :

ألماني تلميذ لدى ساسي . ونشر كتاباً عربية عدة منها : حمامة أبي تمام مع شرح التبريزى ، وزودها بترجمة لها لاتينية . وفاكهه الخلافاء ، والمنتخب من تاريخ حلب . وأمثال الميداني . وألف معججاً بالعربية واللاتينية وكتب بحوثاً بالألمانية عن العرب ولغتهم ، وتوفي عام ١٨٦١ م .

(د) دوزى:

مستشرق هولندي ، نشر كتاباً عربية عدة . ووضع معجهاً عربياً يعتبر تذيلاً للمعجمات العربية إذ جمع فيه من الألفاظ العربية مالم يرد في معجماتها . وتوفي عام ١٨٨٣ م.

(ه) نلدى :

مستشرق ألماني : له بحوث في الشعر الجاهلي ، والمعتقدات المنس ، واللغات السامية . وألف تاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين و تاريخ القرآن . وتاريخ عروة بن الورد . وتوفي عام ١٩٣١ م.

(و) جلتزير :

مستشرق بجري . له مؤلفات كثيرة عن الإسلام واللغة العربية وضمهما باللغة الألمانية ، ومنها تاريخ التشريع الإسلامي . وبحث في الحديث النبوي . وبحث في أداب البحث والمناظرة عند الشيعة . وغير ذلك .

هذا وقد تعاون عدد من المستشرقين وأصدروا « دائرة المعارف الإسلامية » باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، ورتبوا معلوماتها ترتيباً هجائياً كترتيب المعجمات . وتحديثوا فيها عن تقويم البلدان الإسلامية وتاريخها ودينها وأدابها وأعلام رجالها ، ويقع ذلك في آلاف الصفحات .

وما يذكر أن المجمع اللغوي حينما أنشئ عام ١٩٣٢ م عين عدداً من أجياله المستشرقين أعضاء عاملين بين أعضائه ، ومنهم الأستاذ جب أستاذ الدراسات الشرقية بمدرسة لندن ، والدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليزج . الأستاذ نلينو بجامعة روما . والأستاذ ماسينيون بجامعة فرنسا والأستاذ ليهان تيتيجن بألمانيا . ومن يتصفح تاريخ المجمع منذ إنشائه حتى اليوم ، ويتصفح مجلته يرى جهوداً محمودة ومشاركة طيبة لمؤلفي المستشرقين الأعلام .

الله عز

۱۰۷

وَدَعَ الْعَصْرِ الْعُمَانِيِّ ، وَالشِّعْرُ لَمْ يَعْدْ فِيهِ إِلَّا رَمْقٌ يَسِيرٌ ، وَكَأْسَهُ خَاوِيَةٌ  
إِلَّا مِنْ نَمَالَةِ النَّمَالَةِ : وَلَمْ يَكُنْ لِجَبِيَّهُ الْحَمْلَةُ الْفَرْنَسِيَّةُ ، وَلَا لِقِيَامِ حَمْدٍ عَلَى بِالْأَمْرِ  
فِي الْمَلَادِ أَثْرٌ يُذَكَّرُ فِي تَقْدِيمِهِ وَإِشَاطِ أَهْلِهِ . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَمْلَةَ — فَضْلًا عَنْ  
أَنْهَا أَجْبِيَّةً — كَانَتْ عَسْكَرِيَّةً وَغَازِيَّةً وَلَا تَهْمَمُ بِالْأَدْبُرِ الْعَرَبِيِّ فِي كَثِيرٍ وَلَا قَلِيلٍ .  
وَكَانَ حَمْدٌ عَلَى تُرْكِيَا وَأَمْيَا ، لَا يَحْلُّ عَنْهُ الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ مَحْلُ الْقَبُولِ ، وَدُولَتُهُ فِي  
غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، بَلْ وَإِلَى الْأَدْبُرِ الْعَرَبِيِّ جَمِلَةً .

وكان من شعراء هذه الفترة ، السيد إسماعيل الحشاب « ١٨١٥ م » ، الذى كان يتكلّم بالشهادة أمام المحاكم . والشيخ حسن العطار « ١٨٣٤ م » ، أحد شيوخ الأزهر ، والسيد علي الدرويش « ١٨٥٣ م » ، تم الساعاتى المصرى « ١٨٨٠ م » .

ودار الشعر حول المدح والرثاء والوصف ، والغزل ووصف الخنز والتاريخ  
الشعري . وأكثره مصطنع غير صادر عن عاطفة ولا مزاولة . ومعانيه مسبوقة  
معادة ، وعبارته ركيكة قريبة من عبارات العامة .

三

## أسباب نشاط الشعر :

ومنذ عصر إسماعيل ، صادف الشعر — مع تتابع الأيام — جملة من الأسباب أخذت تفسح له سبيل اليقظة والنشاط والبعث والتجدد . نذكر منها ما يلي :

- ١ — انتشار التعليم ، وقد كان لذلك أفضل الأثر في تنشيه التفوس والخواطر وترقية العواطف والأحاسيس وإيقاظ الشاعرية ، وتوسيع المجال أمام الشاعر في اختيار أغراضه وتنويعها ، وتزويديه بطاائف حسنة من المعان .
  - ٢ — وأخص مانشير إليه من ألوان التعليم ومواده الدراسية ، دروس

الآداب وتاريخه ونقده ، وبخاصة ما يتصل من ذلك بالشعر ، قديمه وحديثه ، عرببه وأعمميه . وقد برزت الآداب العربية بين مواد الدراسة في الأزهر ودار العلوم منذ زمن بعيد ، ثم برزت في كليات الآداب بالجامعات المصرية ، تلك الكليات التي لها أفضل الأثر في تدريس الآداب الأوروبية شعرها ونثرها .

٣ — العناية بالترجمة ، وبخاصة ترجمة الآداب الأجنبية . وقد تحدثنا فيها سبق عن الأدوار التي مرت بها الترجمة ، وعن أثرها العظيم في الكتابة والشعر .

٤ — طبع دواوين الشعراء السابقين ، وبخاصة المجيدون منهم كالشنبى والحقى وآبى العلاء . ويعتبر هذا العمل في مقدمة الأساباب التي عاونت على نهضة الشعر . فما أطلع شعراً علينا على شعر أسلافهم حتى هبوا يقندون بهم ويحاكونهم ويتخذون منهم نماذج علماً يسعون إلى بلوغها . وانطبع ذوق كثير منهم بطابعهم حتى حاكواهم غير حساً وأسلوباً ومعنى . حتى أصبح بعضهم دواوين لا تقل جودة عن دواوين القدماء . . . .

وكذلك طبع كثير من كتب الآداب العربي القديم ، وكتب المقد والبلاغة . كالعقد الفريد والكامل للبرد ، والمستطرف . ومثل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والعمدة .

٥ — ظهور أفنادى من الشعراء كانوا بأنفسهم نماذج حية لمن يعاصرهم أو ينتلمذ لهم من الشعراء ، وأفضل مثل لذلك ، البارودى ، ومن بعده إسماعيل صبرى ، وفيه يقول أمير الشعراء شوقى في قصيدة رثائه يذكر أيامه :

أيام أمرح في غبارك ناهجا  
نهج المهاجر على غبار خصاف  
ويقول حافظ في نفس المعنى :  
فـكـنـاـ الجـداـولـ نـزوـيـ الـظـهـاءـ ظـاهـهـ العـقـولـ وـكـنـتـ التـهـرـ

٦ — انتعاش الروح الأدبية بداعٍ تشجيع بعض ولاة مصر للشعراء والأدباء . وهو تشجيع فردى ولم يكن سياسة مرسومة متشعة من شأنها أن تجذب بضمير الشعراء إلى مانزوجوه لهم من سمو وجودة وسعة إنتاج — ومن ذلك ما يروى عن الشيختين الشاعرين : السيد على أبي النصر ، وعلى الليث

من أئمها كان محبوبين أئمرين لدى الخديو إسماعيل وابنه توفيق ، حتى لقب الشيخ الليثي بشاعر الخديو أيام إسماعيل . وكذلك نشأ شوقى في بيت إسماعيل ووظف في ديوان توفيق ، ولقب بشاعر الأمير في عهد عباس الثاني وقال عن نفسه ففتخر :

### شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

٧ - الثورات الفكرية والسياسية ، وتفشى النزعات الوطنية الأصلية التي تتمسك بجذريه البلاد واستقلالها ، وطرد المستعمر وكراهيته . وكذلك الانقلابات الاجتماعية العنيفة التي شاهدتها البلاد وتشاهدها حتى اليوم ، والتي من غالياتها نشر العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، والتسوية بين الكافة ، ورفع منزلة الطبقات الدنيا ومنحها حقوقها الطبيعية ، إلى غير ذلك ، مما يولد في النفوس الشاعرة طاقات جديدة من الأغراض والأفكار والمعانى والتصورات .

وتتمثل هذه الثورات والانقلابات بل والخروب ، على التوالى ، في الثورة العرابية وفي قيام مصطفى كامل ومحمد فريد ورجال حزبها بمكافحة الاحتلال الأنجلوزى ، وهبوب الثورة المصرية عام ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول ، لنفس الغرض ، وقد تلا هذه الثورة ميلاد الحياة البناءة وتعدد الأحزاب . ثم الثورة المصرية الكبرى عام ١٩٥٢ م بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، وما أعمقها من القضاء على الملكية الفاسدة ، والإقطاع وألوان الاستغلال ، ومن طرد المستعمر والهيكل بسيادة البلاد ، ومن تأميم القناة وما أدى إليه من الدخوان الثلاثي .

هذه بعض الأسباب التي أدت إلى نهضة الشعر ويقظة الشعراء ، حتى أصبح بعضهم موافق وأبيات تم عن الشاعرية الفنية الصادقة التي ترناح إليها النفوس ، والتي تعبّر عن أحاسيس الجماهير المصرية وتسجل ومضامنها العاطفية ونبضاتها الوطنية ، ولو إلى حد - وترى بعض ذلك ماثلاً في حماسيات البارودى ونفسيات صبرى ، واجتماعيات حافظ عبد المطلب ، وسياسات شوفى وتمثيلياته ، وفي رمزيات على محمود طه ، وفي غزليات مطران القصصية ووصفياته التحليلية .

وستلمس فيما سنسوقه من المماذج ما يوضح لنا أن الشعراء مشوا شوطاً —  
إن لم يكن أشواطًا — في سبيل البعث والتجديد.

### معوقات نهوض الشعر:

غير أننا ، مع هذا ، نشير إلى أن الشعر لا يزال في خطوه متعرّاً ،  
أو على الأقل ، لا يزال أبطأ سيراً إلى الارتفاع والتقدم والتجدد ، بالنسبة  
إلى النثر الذي شاء وسبقه وأصبح أفضل منه قدرة ، وأجل خطأ في سبيل  
أداء عمله . ويحس بعض الشعراء بهذا التقدّم الوثيد ، وبقصور الشعر عن  
مسايرة النهضة العامة الحاضرة ورُكونه إلى القديم والتقليد ، ويقول حافظ إبراهيم  
من قصيّدته في تكريّم أمير الشعراء سوقي :

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوحة بند وعدد والرباب وبوزع  
وملت بنات الشعر منا موافقاً بسقوط اللوى والرقين ولعل  
تغيرت الدنسا وقد كان أهلها يرون متون العيس ألين مضجع  
وكان بريد العلم عيراً وأينقاً متى يعيها الإيجاف في البيد تطلع  
فأصبح لا يرضي البخار مطية ولا السالك في تياره المتدعّم  
ونحر كاغي الأوائل لم نزل نغنى بأرماح وبيض وأدرع  
عرفنا مدى الشيء القديم فهو مدّى لشه جديد حاضر الفعّ متع  
ويرجع بعض النقاد أسباب هذا البطء إلى أسباب منها ما يلي :

١ — ضعف ثقافة الشعراء وقلة مخصوصهم العلمي والأدبي . والحق أن  
كثيراً من ناشئة شعراءنا قليلو الحصول ، وبخاصة من الأدب العربي الصميم .  
أما خوفهم من أمثال البارودي وصبرى وحفي ناصف وشوقى وحافظ  
وعبد المطلب والجامِر وعلى محمود طه والعقاد ، فإن الطعن في ثقافتهم جرأة  
على الواقع .

٢ — جمودهم على القديم ، ومعنى ذلك أن شعراءنا لما اطلعوا على الشعر

القديم — بعد هذا الانقطاع الواسع المدى بين شعراء مصر وبينه — راعيهم يتعدد أغراضه وسمو معانيه وقوه أساليبه وجزالة تراكيبيه . ولم تكن لديهم من ذلك كله بضاعة ، ففكروا على حاكاة القديم وتقلیده ، وكانت قصارى مجدهم أن يعارض قصيدة ما من القصائد القديمة ، أو يصب شعره على قالبها ، فإذا وصل من ذلك إلى ما يبغى ، كان هذا هو غايتها وحماداه ، ورضيت به نفسه وقع خاطره . ولقد صار من السهل اليسير أن نشهي أحدهم بشاعر من القدامى ، لما بين الشاعرين من الشبه القوى في المنازع الشعرية وأساليبها . فالبارودى مثلاً يشبه أبا تمام ، وعبد المطلب يشبه حسانا ، وشوقى يشبه البحترى أو المتني وهكذا .

ولتأثير شعرانا بالقدامى كثرت معارضاتهم — كما أشرنا — بعض قصائهم ، وانتشر التنظير بينهم ، ويتبين ذلك في قصيدة «كشف الغمة» للبارودى و«نهج البردة» لأحمد شوقي ، يعارضان بها «بردة» البوصيري . وفي معارضه اسماعيل صبرى وولى الدين يكن ، وأحمد شوقي لقصيدة «باليل الصب متى غدده» للحضرى . وفي سينية شوقى الأندلسية فهو معارضة لسينية البحترى في وصف ليوبان كسرى . وفي نونية «شوقى التي أولها» : «يا ناجح الطالم آشباء عوادينا» . ففيها تنظير لقصيدة ابن زيدون «أضحى الثنائي بدليلاً من تدانيا» وهم جرا . ولاريب أن وقوف شعر اثناعند أمل التقليد يعوقهم عن التجديد ، أو على الأقل يعوقهم عن التجديد الكبير الممتع .

٣ — وقف الشعر على المناسبات ، ونعني بالمناسبات ما يخرج عن نطاق العاطق للشاعر . وقد جعل بعض الشعراء شعرهم شيئاً ما متزдан به الحفلات ، وصاروا ينظمونه متى طلب منهم ، في حفلة تكريم أو تأمين أو نحوهما . لا بداع فعلى ، ولا استحابة لوحى ضمير ، ولا أداء لرسالة وطنية تحفزهم إلى أدائهم حوادث بلادهم ، ولا إفصالاً عن نزعة عامة تسعى إلى تحقيق غایيات قومية نبيلة .

ولهذا السبب نصيب كبير من الوجاهة والصواب . ولكننا نعتقد أن

الشعراء أخذوا يتحللون منه ، ويخرجون عن نطاقه . وأصبحت المناسبات الوطنية العامة في مقدمة الحوافز إلى نظم الشعر . وتجلى ذلك بوضوح في حوادث فلسطين الدامية ، وفي حادث تأمين القناة والعدوان الثلاثي .

٤ — حاجة النهضة منذ مطالعها وفي أثناء خطوها ، إلى التشر — كتابة وخطابة — دون الشعر ، فالنهضة بدأت عليه ، فهي بذلك أشد احتياجاً إلى الكتابة دون الشعر ، والترجمة انصرفت أولاً إلى نقل الكتب الأوربية إلى العربية ، فاصطنعت الكتابة دون الشعر . والتقلبات الاجتماعية والثورات السياسية أشد احتياجاً إلى الخطابة والكتابية أكثر من الشعر .

(ز) فظروف النهوض العلمي والنضج السياسي أحيا موجات الخطابة والكتابة ، فصارتا مظاهر حيّة للعلم والأدب والفكر السياسي . أما الشعر فنصيه من ذلك قليل .

٥ — اضطرار الشاعر إلى الكدح في الحياة لكسب قوته وقوت أسرته ، عن طريق غير طريق الشعر . فيینا نجد الكاتب يستطيع الارتقاء بسل شئ مفتوحة الأبواب كالتأليف والإشتغال بالصحافة أو الدفاع عن حزب سياسي ، أو نحو ذلك مما قد يدفع به إلى كراسي النيابة أو الوزارة . وبينما نجد الخطيب يستطيع العيش بيساعته فيصيب من المجه والمنزلة ما يتمنى ، إذ نجد الشاعر لا يزال حتى اليوم لا يستطيع عيش الكفاف إذا اعتمد على شعره وحده . ولنست هناك جوائز سنوية رتيبة ترصدها الدولة أو تجود بها يدعى للمجددين من الشعراء تعينهم على التفرغ لصناعتهم وإتقانها وتتكلف لهم ما يحتاجون إليه .

وجميع شعرانا في العصر الحديث كانوا — ولا يزالون — من أرباب الوظائف أو الأعمال الحرة . فالبارودي وزير . وإسماعيل صبرى وكيل للحقانية . وحفنى ناصف مقتش لغة العربية بوزارة المعارف . ومحمد عبدالمطلب مدرس ، وحافظ إبراهيم وكيل دار الكتب ، حتى شوقى كان محراً في ديوان الخديو . ومطران مدير دار الأوبرا ، والمازنى والعقاد صحفيان . ومحمد الأسى

أمين بالمكتبة الأزهرية . وهكذا تستطيع أن تقول عن كثير من أحياء الشعراء ومنهم محمود غنيم و محمود حسن اسماعيل والعوضى الوكيل ومحمد عبد الغنى حسن ، وغيرهم .

وبدهى أن سعى الشاعر في سبيل رزقه يصرفه صرفاً كبيراً جداً عن الاهتمام بشعره وتجويده . ونحن لا ندعو إلى التكسب بالشعر ، وإنما ندعو إلى تقدير الشعراء تقديرآ يعصمهم من الحاجة ، ويدفع جميع طفافاتهم إلى المشاركة الكاملة في الحياة الحاضرة ، وفي إنهاض الأمة في شتى مرافقها .

٦ - عقم التشجيع . وحقاً نال بعض الشعراء شيئاً من التشجيع والتقدير المادى أو الأدبى . ولكن أغلب الظن أن ذلك ليس موجهاً إلى الشعر وحده دون نظر إلى عامل آخر كعامل الصدافة أو الاشتراك في الرأى السياسى . — هذا إلى ضعف استجابة الجماهير للشعراء ولو أحبوا بهم .

على أنا نرجو أن يجد الشعر في ظل الجمهورية التشجيع والتقدير المناسبين له باعتباره أحد المخواذ المهمة التي تدفع الأمة نحو أهدافها ، بل وتجدد لها هذه الأهداف وترسم لها الطريق إليها .

ونحب أن نسجل أن هذا اللون من التشجيع قد أخذ طريقه نحو الظهور ورصدت وزارة المعارف وبجمعها اللغوى جوائز الشعر . ونال الأستاذ محمود غنيم إحداها ولأمر ما سمى ديوانه « صرخة في واد » .

٧ - القيود الاجتماعية : والشاعر في حاجة ماسة إلى جو مليء بالحرية التامة ، لا يستجيب فيه إلا لوحى شاعريته . والمجتمع المصرى حرم منذ زمن بعيد ، الحرية الواسعة التي تعانى العاطفة الجياشة على الانطلاق . كما حرم أيضاً تقديم الغذاء الروحى السليم الذى يعاون على سلامة الخيال الأدبى وسعنته . وذلك لتابع الدول الأجنبية الحاكمة عليها ، واستبدادها واستغلالها موارد الشعب وأرضه ، وحرمانه حكم نفسه بنفسه ، حتى خيم اليأس على العواطف

فكبتها ، وعلى الأذهان خبسها . ولهذا عقمت البيئة المصرية عن أن تلد الشاعر العقري المكتمل — والشعر وليد البيئة ومؤثراتها — .

على أن القوى تضاد وتنافر على إلصاق الروح المعاوية الصحيحة وتفويت الحياة الروحية للأمة، وهذا مما يبشر بقرب الظفر بهذا الشاعر المنتظر.

ولابد لنا من القول بمناسبة ذكر القيود الاجتماعية، أن الجاهير المصرية اليوم تتأبى على سماع أنواع عدّة من الشعر، كان لها صولة في بعض العصور الماضية، ومن هذه الأنواع: الغزل والمدح والمحاجة والفخر بالنفس. فلا نكاد نجد شاعرًا معاصرًا تنشر له الصحف شعرًا في هذه الأنواع، مراعاة لأذواق الجاهير، وهذا ضرب من القيود الاجتماعية فرض على الشعراه. — والغريب أن هذه الأذواق لا تتأبى على سماع هذه الأنواع إذا كانت أغاني أو أناشيد.

على أنتا تعرف كثيراً من الشعراء يجيدون هذه الفنون ويتبادلونها فيما بينهم دعابة ومجانة وتسلية ، ولكنهم لا ينشرونها إلا نادراً.

أغراض الشعر

تنوعت أغراض الشعر في العصر الحديث بتعدد الظروف والملابسات في كل مرحلة من مراحل هذا العصر وإليكها بالتتابع مع نماذجها:

أيام الحلة الفرنسية :

١ - كانت أغراض الشعر تدور في أول العصر حول الإخوانيات مثل مدح صديق أورثاء فقيه ، وكذلك حول الغزل التلكل ، ووصف الخمر وصفاً تقليدياً . ويتمثل شعر هذه الفترة في نظم الحشاب . وقد قال مدح الشيخ الأمير وفه خمر يات وغزل :

أدر لى في الزبا القدحا وكن العذل مطرا  
ونبه صاح ساقها فضوه الصبع قد وضحا

وَنَفَرَ الدَّهْرُ مِبْسَمٌ وَشَادِيَ الْوَرْقَ قَدْ صَدَحَا  
وَخَذَهَا مِنْ يَدِي رَشَأْ مَلِيجٌ قَدْ حَوَى مَلِحَا  
غَزَالٌ إِنْ يَلْعَبُ الْبَدْرُ أَوْ غَصَنَ النَّقا افْتَضَحا  
وَأَطْرَبَ سَمِيعِكَ بَاهْ بَهْ أَسْتَاذَنَا امْبَدَحَا  
مُحَمَّدُ الْأَمِيرُ الْمَرْ تَجْهِي كَمْ آسِلَا مَنْحَا

٢ - ثم تأثر الشعر تأثراً يسيراً بالحركة العلية - في عهد محمد على وبعده بقليل - فازدادت أغراضه وتناولت مدح الأمراء ووصف بعض المحسوسات مثل وصف بركة الأزبكية للشيخ العطار . والعتاب والشكراً والغزل ، وتسجيل المحوادث والتاريخ الشعري .

ويتمثل شعر هذه الفترة في نظم الشيخ حسن العطار ، وعلى الدرويش وشهاب الدين المكي ومحمود صفوت الساعاتي .

وعا قاله السيد على الدرويش مدح محمد على ويورخ بجيء الجراد في عام ١٢٥٩ وبه مات بقر كثير :

يَا صَاحِحَ مَا هَذَا الْخَبَرِ قَالَ : الْجَرَادُ هَنَا ظَهَرَ  
قَلَتْ : الْجَرَادُ ؟ فَقَالَ إِيْ تَدْرِي الْجَرَادَ إِذَا ابْتَدَرَ  
قَلَتْ : أَسْتَعْذُ بِاللَّهِ قَا لَ وَهُلْ مِنْ الْمُقْضِي مُفْرَّجَ  
مَا كَانَ قَطْ بِخَاطِرِ فِي خَاطِرِي هَذَا الْخَبَرِ  
جَاءَ الْجَرَادُ كَاهِنَ يَتَلَوُ عَلَى الْبَقَرِ السُّورَ

وَمِنْهَا فِي الْمَدْحِ :

هَلْ لِلْخَدِيُوِيِّ مُشْبِهٌ فِي هَمَةٍ أَوْ فِي سِيرِ  
هَلْ قَبْلَهُ رَدَ الْجَرَا دَسْوَاهُ فِيهَا قَدْ غَبَرَ  
وَمِنْهَا يَوْرَخُ الْحَادِثُ :

أَرْخَتَهُ وَصَلَ الْجَرَا دَلْصُرْ فِي عَامِ الْبَقَرِ

١٢٥٩ = ٣٣٣ ١١١ ٩٠ ٣٦٠ ٢٢٩ ١٢٦

٣ - م التجهم النهضة نحو الأدب منذ عصر إسماعيل وتوفيق ، فهذب المدح واتسع أفقه ، وكذلك الغزل والإخوانيات وارتقي الوصف الحسي ، مع عنایة بتسجيل الحوادث . ويتمثل شعر هذه الفترة في نظم السيد على أبي النصر وعبد الله فكري وعلى الليث ومصطفى نجيب ، والسيد عبد الله النديم .  
وما كتبه على السيد أبوالنصر إلى بعض أصحابه في العتاب :

حرروف ودى وسائل والدمع جار وسائل  
ولوعى وشجون تضيق عنها الرسائل  
لى في هواكم غرام طول المدى غير زائل  
لما هجرتم وبانت صباتي للعوازل  
دخلت دار اصطبارى خرجت من غير طائل  
فقلت للعين جودى بالمرسلات المواصل  
وقد أمرت يراعى خط ما أنا قائل  
وجحكم في ضميرى سواه زور وباطل  
ومدحكم كل وقت فرائض لانوافل

وما كتبه الشيخ على الليث وقد زارتة سائحة أمريكية وهو في ضيوفه في الصف . قال مسجلها غزل ولوحة :

وزائره زارت على غير موعد غريبة دار تتحى كل مورد  
تبدى لنا وقت الظاهيرة نورها  
ونحن على روض زها بالتوريد  
من اللاه لم يدخلن مصر حاجة  
سوى رؤية الآثار في كل مشهد  
لها في أميريكا انتساب ودارها  
«بيستان» إذ تعزى لمسقط مولد  
لنا فأذتنا نحظى بروضكم الندى  
فحيت وقالت — والمترجم يبتنا —  
على الربح والإقبال مشكورة اليد  
فقلنا ونور البشر أزهر يبتنا  
ودارت أحاديث التساؤل يبتنا  
ومنها :

بما نانا عند الوداع المهد  
فقمنا وودعنا القلوب فهل درت  
وهذا الذي أبقى تمام التجدد  
ولولا اللقاء في مصر ما انطفأ الجوى

٤ - ثم ظهر البارودي في وسط هذه الحلبة السابقة ، فكان وحيداً يهدا  
معدوم القراء ، وغموضاً حياً رائعاً للناشئة . وما أفردناه بالذكر إلا لأن  
ظهوره كان طفراً في تاريخ الشعر العربي ، ولأن مؤثرات بيته لم تكن لتكون  
شاعرًا على غراره ، لولا عقربيته .

وقد أجاد البارودي في جملة أغراض من أهم أغراض الشعر ولدتها ظروفه  
العامة والخاصة معاً ، ومنها الحماسة والفخر ، ووصف الحروب . ووصف  
الصيد . والرثاء والحنين إلى الديار ، والنسيب والمثل والحكمة والمديح النبوى .  
وبذلك رد على الشعر العربي كثيراً من أغراضه الهامة ، كما رد عليه ديباجته  
القوية وتراسيمه الجزلة ، ونذر المتنزه لدى العامة ، بل والفصح الفريب  
من المتنزه . ومن شعر البارودي يصف البين :

سَا بَيْنَ مَا أَبْقَتِ عَيْنَ الْمَهَا مِنْ  
عَنَاءٍ وَيَأْسٍ وَاشْتِيَاقٍ وَغَرْبَةٍ  
أَلَا شَدَّ مَا أَلْقَاهُ فِي الدَّهْرِ مِنْ غَيْنِ  
إِنْ أَكَ فَارَقَتِ الْدِيَارَ فَلِي بَهَا  
فَوَادَ أَضْلَلَهُ عَيْنَ الْمَهَا عَنِ  
بَعْثَتْ بِهِ يَوْمُ النَّوْى إِذْ لَحَظَهُ  
غَهْرٌ مِنْ قَتَى فِي الدَّهْرِ يَجْمِعُ بَيْنَنَا  
وَلَا وَقْبَنَا لِلِّوْدَاعِ وَأَسْلَبَتْ  
أَهْبَتْ بِصَبْرِي أَنْ يَعُودْ فَعْزِنِي  
غَيْرِ لَوْمٍ، وَقَالَ مَنْ قَصِيدَةٌ يَنْشُوقُ إِلَى مَصْرَ :

رَدُوا عَلَى الصَّبَا مِنْ عَصْرِي الْخَالِي  
وَهُلْ يَعُودْ سَوَادُ اللَّهِ الْبَالِ  
مَاضٌ مِنْ الْعِيشِ مَا لَاحَتْ مَحَايِلَهُ  
فِي صَفَحةِ الْفَكْرِ إِلَّا هَاجَ بِلَبَالِي  
أَنِي بَنَارَ الْأَسَى مِنْ هَجَرَهُ صَالِي  
لَمْ يَلْدُ مِنْ بَاتْ مَسْرُوراً بِلَذَتِهِ  
يَا غَاضِبِيْنَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عَدَةٍ  
بِالْوَصْلِ يَوْمَ أَنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي  
غَيْتُمْ فَأَظْلَمْ يَوْمِي بَعْدَ فَرْقَتِكُمْ  
وَسَاهَ صَنْعُ الْيَالِي بَعْدَ إِجْمَالِي

وقال بعد عودته من منفاه بجزيرة سيلان ، وفد من بقصر اسماعيل

بالجزيرة ، يرثى أيامه الزائلة :

هل بالحى عن سرير الملك من يزع  
هذا الجزيرة فاظظر هل ترى أحدا  
يأتى به الخوف أو يدنو به الطمع  
أضحت حلاه وكان قبل منزلة  
لملك منها لوفد العز مرتبع  
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع  
٥ - ومنذ عهد البارودى حتى اليوم تزاحمت أسباب ارتقاء الشعر  
ونشاطه ، التي أشرنا إليها فيما سلف . فبدا النضج الذهنى والروحى الصحيح ،  
وظهر بعد البارودى أفراداً من خول الشعر كانت لهم جهود موفقة في سبيل  
اتساع أغراض الشعر ، وتجاوبياً مع الحوادث العامة ، ولو إلى حد . ومنهم  
حنفى ناصف ١٩١٩ م ، واسماعيل صبرى ١٩٣٣ م ، ومحمد عبد المطلب  
١٩٣١ م ، وحافظ ابراهيم ١٩٢٢ م ، وأمير شعراء عصره أحمد شوقى  
١٩٣٢ م ، وغيرهم كثيرون أمثال خليل مطران وولى الدين يكن ومصطفى  
صادق الرافعى وعبد الحليم المصرى ومحمد المهاوى وأحمد نسيم وأحمد حرم  
وعلى الجارم والمازنى وأحمد الزين وعلى محمود طه و محمد الأسى . عدا الأحياء  
المعاصرين . ومن غير المصريين معروف الرصانى ، وجليل صدق الزهاوى ، وشبل  
ملاط وغيرهم .

إليك أهم هذه الأغراض :

(١) المدح : وتصل به التهنئة في مناسباته ، وكذلك الاعتذار  
والاستعطاف . وفارس المدح هو أحمد شوقى ، وله في ولادة أسرة  
محمد على — مدائح جيدة تذكرنا بمدائح الشعراء في الدولة العباسية وما تفرع  
منها . وكثيراً ما نظم في مدح أصدقائه عظيماء مصر وزعنافتها . ولغيره مدائح  
أخرى على نمطه . ومن قول شوقى يمدح الملك فؤادا .

ياه الملوك بهذا الساج إن له في جوهر الشمس لافي الماس منتسبا

وته عليهم بعرش غير ذى لدة من عهد خوف على الماء استوى عجبا  
لو استعطا لزدنا فيه قائمة ولا تخذنا له ألم السها عتبنا

(ب) الوصف : وقد تناول أموراً كثيرة ، وبخاصة مظاهر الطبيعة وألوان  
الحضارة والمخترعات الحديثة ، والأثار القديمة ومخاطبتها ، وال المجالس والحفلات ،  
وواقع الحياة . وحوادث الأيام ، ومرأى المدينة والريف ، والحيوان والنبات  
والأدوات كالقلم والدواة ، ووصف الشيب والزمان وأخلاق الناس وغير  
ذلك ، وهذا الباب من أروج أبواب الشعر وأكثرها ناجاً .

وكثيراً ما مزج الشعراء فيه الأوصاف الحسية بالنفسية ، وخلطوا بين  
المريئات والوحدانات ، أو استخرجوا الحكمة والثل ، ويذكر هذا في وصف  
الأثار أو الحوادث المروعة — ومن الوصف قصائد شوق في أبي الهول  
وعلكة التحل ونهر النيل وآثار توت عنخ آمون وقبر نابليون والربيع . ومنه وصف  
القلم بعد المطلب ، والقطار الحديدى وزلزال مسيينا وحريق ميت غمر لحافظ  
إبراهيم ، ووصف أخلاق الناس ، والدواة والساقة لإسماعيل صبرى .

ومنه قول إسماعيل صبرى يصف أخلاق الناس في زمانه ، وهو وصف  
ساخر مجاشي :

غاض ماء الحياة من كل وجه فغدا كل الجوانب قفرا  
وتفسى العقوق في الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا  
أوجه مثلما ثرت على الأجداث ورداً إن هن أبدين بشرا  
وشفاه يقلن أهلا ولو أديس ما في الشحالما قلن خيرا  
عمرك الله هل سلام وداد ذاك ألم حاول المسلم أمرا  
عميت عن طريقها ألم تعامت أمم في مقاوز المجهل حيرى  
غرها سعدها ومن حادة الس مدبوطي يوماً وينخذل دهرها

ومنه قول محمد عبد المطلب في وصف القلم :

إذا اهتز في طرسه معجباً أذل شعوباً وأعلى شعوباً  
فيسعد قوم به تارة وقوم به يصطلون الخطوباً  
وطوراً تراه يغض الجموع وطوراً تراه يثير الحروب  
وطوراً تراه امراً زاهياً وطوراً تراه حزيناً كثيماً  
وطوراً ينادي الورى سائلاً وطوراً يرد عليهم مجيناً  
تسير الملوك على أمره ولو لا ما كان ملك مهيناً  
وتجرى العلوم على سنه فيمل على كل قلب نصيناً

ومنه قصيدة حافظ إبراهيم في وصف زلزال مسيتنا الذي وقع عام ١٩٠٨ م  
وما جر من نكبات ، قال :

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض ض ينادي أمي أبي أدركاني  
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر تعانى من حره ما تعانى  
واب ذاهل إلى النار يمشى مستحضاً تهند منه اليدان  
باحث عن بناه وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان  
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وان  
خست الأرض أتخم البحر بما طوياه من هذه الأبدان

(ح) الشعر السياسي والوطني : وهو وليس التزاعات الوطنية والاتجاهات السياسية والحزبية بالبلاد وهذه التزاعات — عل ما عرفت — قد بدت بدورها بارزةً في مصر في العصر الحديث ، ولازمتها من مطالعه ودرجت معه ، وتبجلت هذه الثورة العرابية حتى الثورة الأخيرة ، حتى اليوم . وأكثر حوادث التي صاحبتها وتولدت عنها كانت حوادث جماعية عامة نابعة من أعماق الشعب ومن قلبه ، فلا غرابة إن وجدنا صداتها في نقوس الشعراء وأقلامهم ، وهم من أبناء الشعب ومن صنيمه ، وهذا هتفوا هتافه وسحلوا حوادنه والتاعوا لوعته

وأبرزوا فكرته وأشعلوا جذوه . وغابت عليهم الترفة الوطنية أكثر من العصبية الخزالية ، على الرغم من أنه كانت بالبلاد أحزاب سياسية واسعة السلطان متطاحنة على الحكم والجاه حكمتها نحو ثلاثين عاماً. أما الشعراء — في جملتهم — فقد تعالوا عن حزبهم وسوا إلى أفق الوطنية الواسع ، فكانوا أقرب إلى التعبير عن أحاسيس الشعب وخواطره ، وإلى الإصلاح عن غواصه .

ونلحظ أن هذا اللون الشعري قد صهرته حوادث البلاد الأخيرة منذ ثبور ثورة عام ١٩٥٢م وما قامت به من مكافحة الملكية الفاسدة والقضاء على ذيولها ، وعلى الأحزاب السياسية المتهالكة والإقطاع المستغل ، ثم ما تلاها من جلاء المستعمروالمتكتفين لسياده المصرية والكرامة المصرية في الداخل والخارج ، وما جرى من تأمين القناه وحوادث بور سعيد — نقول قد صهرته هذه الحوادث فتوهنج ورمى بأوشابه جانيا ، وأصبح خالصاً لوجه البلاد ولو وجه الوطنية الصادقة ، وامتزج إلى حد كبير بالفخر والحماسة ، وذكر الحرية والسيادة والتسليك باهدابها والدعوة إلى التضحية والفداء والحملة على الاستعمار وتسييفه المستعمرات إلى غير ذلك عاتراه مائلاً . وقد عاونت هذه الروح وهذا الإيمان بالوطن على توليد المعانى والتصورات الغريبة المبتكرة في هذا الباب ، مما لم يلاحظ في الشعر العربي كله ، على طول عصوره .

وكما امتزج بالفخر والحماسة امتزج بمحب رجال الوطن الذى وهبوا نفوسهم لخدمته وتحقيق آماله ، وذكر حوادثهم وملابساتهم ، وكذلك برئاه المستشهدين من أبطاله في ميادين الدفاع والشرف .

ومن رجال هذا اللون أمير الشعراء شوقى ولا سيما بعد عودته من منفاه ، وحافظ إبراهيم وأحمد محى الدين الكاشف ومحمد الأسرى وكثير من ناشئه الشاب .

ومن قصيدة أشوقى يحيى بها الزعيم سعد زغلول بنجاته من محاولة اغتياله ، ويذكر قناة السويس وصلة مصر بالسودان :

ويا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت سك أيمانها  
ولن ترتضى أن تقد القناة وبيتر من مصر سودانها  
وحجتنا فيما كالصبح وليس بعيك تييانها  
فصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها  
وما هو ماه ولكنه وريد الحياة وشريانها  
تمم مصر ينابيعه كما تم العين إنسانها  
وأهلوه منذ جرى عذبه عشرية مصر وجيرانها ... الخ  
ومن قصيدة طلية للشاعر المعاصر محمد الجيار بعنوان «مهرجان الضياء»  
بمناسبة قرب انتهاء انسحاب الأعداء الثلاثة من بور سعيد إثر المدوان ، قال :

زغردي بالضياء يا شعل النصر فهذا المساء عيد الشعوب  
رددى رددى هتاف الملايين ولكن بنبضك المشبوب  
عدت يانور تكشف القمم الشماء في مشرق انتصار عجيب  
يوم حار الطغاة أني يفرو ن وقد لفهم ذراع اللهيب  
إنما الموت نوبة المستدين إذا دنسوا الشرى بالذنب  
عدت يانور تكشف الأعين اليقظى طوت بالضياء أخفى الدروب  
عدت يانور مثلما انبثق الإشعاع من أول الزمان الريب  
فيك سر الميلاد للشمس لما نورت كوننا بسر اللهيب  
فبك دقات معبد غامض الأجراس تأى من خلف أفق رهيب  
فك إيماءة العيون إلى الله وضوء ابتسامة في القلوب ... الخ

ومن قصيدة لمحمد الأسمري بعنوان «إليهم وإلينا» يخاطب المستعمرين :

خذلوا بالمساواة التي قلت بها فذلك أولى بالكريم المسلم  
وليس عظيم الناس آكل غيره على رسركم هذا عظيم الضراغم  
ولكن عظيم الناس من عاش صادقاً برىء سنان الرع عف الصوارم

مضت حقبة والشرق يحمل عبئكم فلا تجعلوه دائماً للغارم  
 ولا يجعلوا بعض الآلام مطية لأنغراصكم فالناس غير الباهائم  
 وما شاب نار البعض والمحرب ينتنا سوى ظهر مظلوم ومهماز ظالم  
 شددتم بكاف الشرق في الحرب كفكم فلا يجعلوها بعدها كف لا طم  
 دعوه يصارحكم بمكتوم صدره فثار بركان ولا صدر كاتم... الخ

(د) الشعر الاجتماعي : وهو الذي يعرض لوصف حالة عامة في المجتمع ويبيّن أدوامها ويدعو إلى إصلاحها ، فهو شقيق النثر الاجتماعي . وقد راج هذا اللون الشعري أيضاً ، في العصر الحديث ، تحت تأثير تقشّي الحضارة الأوروبية والمدنية الحديثة بالبلاد المصرية وغيرها من بلاد الشرق ، وما في هذه الحضارة والمدنية من تناقض مع عادات المجتمع الشرقي وتقاليده ، وانقسام الرأى تبعاً لهذا بين المجددين والمقلدين . ولذلك تناول هذا الغرض : تعلم البنات والسفور والمحجب ، ومشاكل التعليم ، وحركات العمال ، ويتصل به وصف الحوادث الاجتماعية الهامة والظاهرات الجديدة في المجتمع المصري . ومثال ذلك : انتحار الطلبة إثر ظهور نتائج الامتحانات . ووصف المعلم وما يعنيه في أداء عمله من المشقات وتفاهاه ما يناله من الجزاء ، والموازنات بين حياة الريف والحاضرة . ووصف الفتنة بين الأقباط والمسلين . ووصف المؤسسات النافعة الحديثة كصرف مصر ، أو الصحف . وغير ذلك .

ومنه قول محمد عبد المطلب يصف حال المعلم في مصر من قصيدة :

بني مصر ما بال المعلم كاسفاً يرى الناس فيها يكبرون ويصغر  
 سبيل النبيين الكرام سبيله يعم به الدنيا صلاحاً فقمر  
 سلوا عنه جنح الليل كم بات متعباً تمام حواليه النجوم ويسهر  
 سلوا عنه عيناً قرخ السهد جفناً يخط عليها في الظلام ويسيطر

سلا عنـه جسـمـاـتـ بالـسـقـمـ نـاحـلـاـ  
فـلـ البرـ مـأـمـولـ وـلـاـ هوـ يـعـنـرـ  
سـلـواـ عنـهـ أـسـفـارـ أـقـضـيـ اللـيلـ بـيـنـهاـ  
غـرـبـيـاـ عـنـ الدـنـيـاـ وـأـهـلـهـ حـضـرـ  
سـلـواـ عنـهـ قـلـبـاـ بـاتـ يـخـفـقـ رـحـةـ  
عـلـىـ فـتـيـةـ مـنـ حـوـلـهـ تـضـورـ  
يـرـوـعـهـ صـرـفـ الـلـيـالـيـ عـلـيـهـمـ يـزـأـرـ  
وعـاتـ حـوـالـيـمـ مـنـ التـؤـسـ يـزـأـرـ

ومنه قول شوقى من قصيدة بعنوان « انتحار الطلبة » :

ناـشـيـهـ فـيـ الـوـرـدـ مـنـ أـيـامـهـ حـسـبـهـ اللـهـ أـبـالـوـرـدـ عـثـرـ  
سـدـدـ السـهـمـ إـلـىـ صـدـرـ الصـباـ  
وـرـمـاهـ فـيـ حـوـاشـيـهـ الغـرـ  
صـلـحـتـ إـلـاـ لـتـهـوـ بـالـأـكـرـ  
يـدـ لـاـ تـعـرـفـ الشـرـ وـلـاـ  
بـسـطـتـ لـلـكـأسـ يـوـمـاـ وـالـوـرـ  
غـفـرـ اللـهـ لـهـ مـاـ ضـرـهـ  
لـمـ يـمـتـعـ مـنـ صـبـاـ أـيـامـهـ  
وـلـيـالـيـهـ أـصـيلـ وـسـرـ  
بـحـجـابـ السـمـعـ أـوـ نـورـ الـبـصـرـ  
يـتـمـنـيـ الشـيـخـ مـنـهـ سـاعـةـ  
خـفـةـ فـيـ الـظـلـ أـوـ طـيـبـ قـصـرـ  
لـيـسـ فـيـ الـجـنـةـ مـاـ يـشـهـدـهـ  
فـصـبـاـ الـخـلـدـ كـثـيرـ دـائـمـ وـصـبـاـ الـدـنـيـاـ عـزـيزـ مـخـتـصـرـ

(هـ) الرثاء : وقد نشط هذا الغرض الشعرى نشاطاً ملحوظاً ، في العصر الحديث . وهو وإن كان غرضاً شخصياً أو إخوانياً فيه التفجع واللوامة ، زراه قد خرج عن نطاق الإخوانيات ، فقد دعت إليه دواع أخرى كأن يكون الفقيد أدبياً بارعاً أو عالماً فذاً أو مواطناً مقداماً أو زعيماً مضجعاً أو فدائياً مستشهدًا أو نحو ذلك . وكثيراً ما تقام من أجل سماع قصائد الرثاء وكلماته حفلات التأبين والذكرى فينشر الشعراء منافب المتوفى في شعرهم . وكثيراً ما يتمزج بشعر الوطنية أو الشعر الحماسى أو الحكم والأمثال . ومن حفلات التأبين التي شاهدناها حفلات تأبين مصطفى كامل السنوية ، وحفلات تأبين سعد زغلول . والشاعر الكبير

إسماعيل صبرى عام ١٩٢٣ م وقد تبارى في رثائه كل من شوقى وحافظ و محمد عبد المطلب وعلى الحارم وخليل مطران وغيرهم .

ومن قاله شوقى في إسماعيل صبرى :

أجل وإن طال الزمان موافى أخلى يديك من الخبل الواقى  
داع إلى حق أهاب بجاشع لبس النذير على هدى وعفاف  
جلل من الأرزاء في أمثاله همم العزا . قليلة الإسعاف  
خفت له العبرات وهي أية في حادثات الدهر غير خفاف  
ولكل ما أختلفت من مستكرم إلا مسودات الرجال تلافى  
ما أنت يادنيا أرؤيا نائم : أم ليل عرس أم بساط سلاف  
نعماؤك الريحان إلا أنه مست حواشيه نقيع زعاف  
وأله الاستاذ محمود غنيم قصيدة جيدة في ذكرى محمد فريد ، ومن أبياتها :

- بالله : فتش بين أطاق الثرى وانظر هنالك صارما مغمودا  
صاغته مصر فلم تصغه معدنا  
بل كان من أمرامها مقدودا  
رفع النساء . فأسمع الجلوودا  
يطوى به بحرا ويقطع يدا  
الهاتف الصداح باسم يلاده  
نشر القضية وهي سر غامض  
والحرب قائمة على سيقانها يجري الصعيد بها دماً وحديدا

(و) الشعر القصصي : ونقصد به شعر القصة سواء أكانت تاريخية واقعية ،  
أم من صنع الخيال . وقد نضج هذا الفن الشعري في العصر الحديث نضجاً  
لا يأس به ، ونظم منه شوقى قصيده رائعة الطويلة (كار الحوادث ) ، ادى  
النيل ، أجمل فيها تاريخ مصر قديمه وحديثه . ونظم حافظ إبراهيم « العمريه » في  
تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ونظم محمد عبد المطلب « العلوية » في  
تاريخ علي بن أبي طالب رضى الله عنه . ونظم أحد محرم ملحنته في تاريخ  
الرسول عليه السلام ، وهي من نوع آخر غير المدح النبوى .

ومن عمرية حافظ قوله يذكر مقتل سيدنا عمر :

مولى المغيرة لا جادتك غادية من رحمة الله ما جادت غواضها  
 مزقت منه أديما حشو همم في ذمة الله عاليها وماضيها  
 طعنت خاصرة الفاروق متقدما من الحيفة في أعلى مجالها  
 فأصبحت دولة الإسلام حاثة تشكو الوجيعة لامات آسيها  
 ومن علوية عبد المطلب - وتقع في نحو ثلاثة بيت - يذكر استخلافه  
 ليلة الهجرة :

فلن ينسى النبي له صنيعا عشية ودع البيت الخrama  
 عشية سامه في الله نفسا لغير الله تكبر أن تساما  
 فأرخصها فدى لأخيه لما تسجي في حظيرته وناما  
 وأقبلت الصوارم والمنايا لحرب الله تنتحم انتقاما  
 فلم يأبه لها أنفأ على ولم تقلق بجنبه مناما

(ز) الشعر التثليل : وهو قصصي حواري تتحدث أبطاله بعضهم إلى البعض . وقد يبنا ذلك أن هذا اللون طاف بأدهان شعراء العربية منذ أمد ، ورأيت كيف برب في تمثيلية « طيف الخيال » لابن دانيال في عصر المأمون . ولكنه لم ترق سوقه ولم تسم عباراته وتجزأ أساليبه وتتنوع موضوعاته إلا في العصر الحديث . وفارسه الجلي هو أحمد شوقي . وقد سقه رجالان هما : خليل اليازجي في رواية « المروءة والوفاء » ، والشيخ محمد عبد المطلب في رواية « أمرؤ القيس » ولكن شوقي شاهما سعة وتفصيلا وتنويعا . ورواياته التثليلية أشهر من أن تعرف ومنها : مصرع كليوبترا ومجنون ليلي وعنترة وفيبر وعلى بك الكبير ، وقد دقق على آثاره بعض الشعراء وفي مقدمتهم عز الدين أبا ظاهر فنظم قيس ولينه والعباسة عبد الرحمن الناصر . ولكاتب هذه السطور تميلitan وجيز تان في وصف الربيع .

ومن أبيات تمثيلية « مصرع كليوبترا » ما جاء في مفتاحها . والمنظر : مكتبة قصر كليوبترا وفيها حاجي وديون وليس بسياسات جالسون إلى عملهم . فيسمعون ( ١٤ — الأدب العربي )

جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا الشيد ، يمجدون به أسم مصر وانتصاراته .

يوليانا في أكتيوما ذكره في الأرض سار  
اسألاً أسطول روما هل أذفناه الدمار

أحرز الأسطول نصراً هزّ أعطاف الديار  
شرقاً أسطول مصر حزت غابات المخارق

صارت الإسكندرية هي في البحر المار  
وطأ تاج البرية ولها عرش العمار

فیقول حانی .

فیقول دیون:

حاجي سمعت كا سمعت وراغي  
هتفوا بن شرب الطلاق في تاجهم  
ومشى على تاريختهم مستهزئاً  
أن الرميّة تتحقق بالرأي  
وأصار عرشهم فراش غرام  
ولو استطاع مشي على الأهرام .

(ح) الأغان والآناشيد: وهي التي تعد للتغنى بها والترنم في الاحفال أو في المذيع أو نحو ذلك بمناسبة من المناسبات العامة، وأهمها المناسبة الوطنية، وفيها تكثر الآناشيد الحماسية.

والأناشيد والأغاني وسيلة ناجحة لنشر العربية الفصحى — متى أردنا لها ذلك — لقربها من العامة وسرعة إيقاعهم عليها ومحظتهم لها وترديهم لها . وهي أعلق بالسنة الصغار والناشئة والفتيات في المدارس وغيرها . وقد أزدحم ديوان الأغانى والأناشيد في السنتين الأخيرتين ، بمناسبة النشاط السياسي والوطني ومكافحة الاستعمار والتكمين للسيادة الوطنية، وبرزت جلية في حوادث فلسطين وبور سعيد الأخيرة ، ولا يزال المذيع يردد كل يوم منها عدداً . ومن الأناشيد : نشيد « بنى مصر مكانكم تهيا » ، و« يافاتة ارفع العلم » ، وكلاهما لشوقى . ونشيد « بلادى بلادى » لعمود صادق ، ونشيد « اسللى يا مصر » لمصطفى صادق الراغبى . ونشيد « مصر التي في خاطرى وفي فى » لـ أحمد رami .

ومن نشيد مصطفى صادق الراغبى :

اسلى يا مصر انتي الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا  
أبداً لن تستكيني أبداً انتي أرجو مع اليوم غدا  
ومعى قلبي وعزى للجهاد ولقلبي أنت بعد الدين دين  
لنك يا مصر السلامه وسلاماً يا بلادى  
إن رمى الدهر سهامه أتقها بفؤادي  
واسللى في كل حين

(ط) وهناك أغراض كثيرة لا مجال في هذه الوجازات إلى توفيتها حقها من الحديث والتثليل ومنها : الشكوى والعتاب والتهانى والغزل والحكمة والمثل والحماسة والفخر والهجاء ، ووصف الخنزير ، وغير ذلك . ونكتفى بما مر .

### الآفاظ الشعر وأساليبه

من المذاجر التي سجلناها في أغراض الشعر يتبعنا لنا خصائص الشعر الحديث في آلفاظه وأساليبه ، ونحن نحملها فيما يلى :

١ — أن عبارة الشعر في أول هذا العصر كانت سهلة معنٰة في السهولة ،

حتى بعديت عن الجزاولة والروعة بعدهاً كبيراً . وبها لوثة من العامية ، وغشاوة من التعقيد ، وطوفة من البدع .

٢ — ولما اشتعل الناس بالترجمة فالعلم بالأدب ، وطبعت دواوين الشعراء الأقدمين ، وكتب الأدب القديم وقرأ الناس أساييسها ، كان لذلك أثره في عبارات الشعراء ، فقويت واتجهت نحو الجزاولة وبقي لها بعض البدع :

٣ — وحيثند ظهر البارودي وكان يحفظ كثيراً من الشعر القديم ، كما كان يؤثر اللفظ على المعنى ، وله ذوق في تخيير الألفاظ القرية الجرس ، فأشرقت ديباجته وأحكم نسجها ، وساق فيها ألواناً من البدع متأثراً في ذلك بأساليب بشار ومسلم بن الوليد وغيرهما من شعراء البدع ، ولكنه لم يتكللها ، بل صقلها بذوقه بحثت مقبولة في جملتها ،

٤ — ثم تجددت ديباجة الشعر بظهور حفي ناصف و محمد عبد المطلب وهما لغويان ، وكان ثانهما شديد التصub للشعر القديم وتراكييه الفحلاة المأثورة ، فأنطبع على غراره . وأخذ الشعراء يتتجاهون عن البدع مع التأنيق في تخيير ألفاظ الشعر واجتباء أساييسه وصدق عباراته وعرضها على الأذواق والآسماع للصدق . واشتهر حافظ لبراهيم بأنه كان يتغنى بشعره قبل إنشاده في الحفل العدله ، ويعرضه بذلك على إخوانه ويتنقل نقادتهم عليه . وعن شوق عناية كبرى بتراكييib شعره وعباراته التي تتجلّى فيها الوجازة واكتثار المعانى ولطف الإشارات . وكان إسماعيل صبرى جائحاً نحو السهولة الممتعة مع قليل من البدع الذى لا تتجاهى عنه الآسماع . أما العقاد فلعله أبرزهم في إثارة المعنى على اللفظ ، ولذلك كثرت المعانى الجديدة في شعره ، ولم يشرق لفظه إشرافاً كاملاً .

وهكذا أخذ كل شاعر يبرز « شخصيته » ويجلى « خصائصه » في أسلوبه . فاختلقو في ذلك واتجهوا اتجاهات شتى كارأيت ، وذلك لاختلاف المؤثرات البيئية التي كان لها دخل في تكوين هذه الشخصيات .

٥ — وبعد أن خلا ميدان الشعر من فوله وجياده السابقة إلا قليلاً ، أخذت ناشئة الشباب تميل ميلاً واضحأ نحو شعبية الأسلوب ، بمعنى أنهم يبحثون

نحو السهل الذي يؤدى المعنى ، ولو كان مبتدلاً بكثره استعماله عند العامة ، ونوعوا في القافية واعتقادنا أنهم يفعلون ذلك لضعف ثقافتهم وقلة مخصوص لهم من الأدب العربي ، وأنهم سيتجهون نحو الجراة وسمو العبارة والقافية الواحدة في مستقبلهم .

٦ — وما يؤخذ على بعض الشعراء إدخال بعض الكلمات الداخلية أو العامة في شعره . ومنه قول شوقي :

هو في الملك بدره المتجلل حف بالهالتين من برلمانه

وقول حافظ :

تلقاء في المجد كما تبتغى ونارة تلقاء في الملمس

سركيس إن راقيك ما قلته في معرض المزبل فقل مرسى

٧ — ومنه أيضاً وقوعهم في الانخطاء اللغوية أو التحويية أو شبهها تحت ضغط الوزن أو الضرورة الشعرية ، ومنه قول حافظ :

أيها الرافلون في حلل الوشى يحررون للذيول افتحارا

٨ — ومنه أيضاً استخدام الألفاظ والأساليب القديمة ذات المعانى البدوية ، التي هجرها حتى شعراء العباسين ، ومن ذلك قول شوقي في استقبال

أم الخديو عباس :

وقف المودج فيما ساعة نقتبس من نور أم الحسنين

واتركى فضل زماميه لنا تناوب نحن والروح الأمين

ومنه قول عبد المطلب :

ومما عاقنى حتى تأخرت عنهم بطاط ركاب أو عباء جمال

## معانى الشعر وأخيته

من الغمط لشعراتنا أن نقول إنهم لم يجددوا إلا في الأغراض دون المعانى ، ولم يتذكروا الأخيلة أو يتندعوا التصورات — وحقاً إنهم استعاروا كثيراً جداً من معانى الأقدمين ، فلا يزال : السحاب يسكي ، والبرق يضحك وطيف الحبيب بخييل ، والعيون كالنرجس ، وال الكريم كالبحر وهلم جرا . ولكن في الحق أن من شعراتنا المجدد المتذكر أيضاً ، والذى لم يسبقنه في تجديده شاعر آخر ، مع وضوح معانيه وترتيبها ودقة تصويرها وحسن عرضها . وتلك إحدى ضرورات العصر الحاضر الراهن بضروب المعانى الجديدة التى لا قبل للشاعر بدفعها عن ذهنه وإحساسه . فهذه طيارات العصر ونفائاته ، وقطره وبواخره ، وبرقه ومسرته ومذيعاه ، بل هذه صواريخه وأفكاره الصناعية أخيراً ...

وذلك الحياة الحضارية التى نقتبسها عن الأوربيين فى شتى مرافقنا ، وهى جديدة فى معانيها . وتلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية الملتبة بالأمال والمبادئ . لا شك أن شعراتنا تأثروا بكل أولئك وقبسو منه واقتسوا فيه الخيال الجديد . ولا يبالغ إذا قلنا أن بعضهم حام فى بعض قصائده حول معانى ما كان لها أن تخطر فى نفوس القدامى . ويتجلى ذلك فى وصف أبي المول ، وفي وصف مملكة النحل لشوقى ، وفي وصف المعلم محمد عبد المطلب ، ووصف الحريق لحافظ ، ووصف المرأة أو تمثال الجمال لإسماعيل صبرى .

ومن تصويرات شوقى البارعة قوله فى مطلع رثائه لسعد زغلول :

شيعوا الشمس وما لوا بضمها وانحنى الشرق عليها فبكاما

ليتى فى الركب لما أفلت يوشع همت فنادى فثاما

ويقول فى تصوير الجهل الخادع :

والجهل لا يلد الحياة مواته إلا كا تلد الرمام الدودا

لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاء عنصرها فلات وليدا

ويقول إسماعيل صبرى مصوراً خيانة الصديق والعفو عنه :  
إذا خاتنى خل قديم وعفى فوقت يوما في مقاتله سهمى  
تعرض طيف الود بينه وبينه فكسر سهمى واثنتي ولم أرم

ويقول شوقى فى رثاء المنفلوطى وقد مات يوم حاولة اغتيال سعد زغلول ،  
فترى الشاعر يصور الوفاة وظروف الحادث وأثره بالبلاد ، ثم يتزعز منها  
الحكمة الجديدة رائعة ، قال :

اخترت يوم المول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى  
من مات فى فرع القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفافة ساع  
وزار العقاد بلاد السودان فصورهم بقوله :

لا يقيم الظل فى أرضهم وم ظل عليها قائم  
ومع دقة التصوير فى هذا البيت ترى تورى رائعة فى شطره الثانى .  
وغير ذلك كثير .

ملحوظة : قد أوردنا فى سياق الحديث عن الشعر أكثر أسماء الشعراء  
اللامعين من أول العصر إلى اليوم ، ونوهنا بجهود كثير منهم . وبذلك نكتفى ،  
والله أعلم ۹

# مُهَرَّس

صفحة	الموضوع	صفحة
٩١	النفري يصر المأكول	٨
٩١	بين شداد والماهرة	١٤
٩١	المنايمون وفتح مصر	٢١
٩١	حالة مصر في عهد العثمانيين	٢١
٩٢	الحالة العلمية	٢٢
٩٣	حالة اللغة والأدب	٢٥
٩٥	غاذج من الكتابة والشعر	٢٧
٩٧	النصر الحديث	٢٨
٩٧	الحملة الفرسية	٣٠
٩٨	محمد على	٣٠
١٠١	النهاية بعد محمد على	٣٠
١٠٢	يجل أسباب النهاية	٣٠
١٠٣	إحياء دور التعليم	٣١
١٠٩	البعوث العالمية	٣١
١١١	المطاع	٣١
١١٤	الصحف	٣٢
١١٧	النهاية في بلاد القام	٣٣
١٢٣	الترز	٣٣
١٢٣	المجادلة	٣٥
١٢٦	المطاعة	٣٧
١٢٧	المطاعة الدينية	٣٨
١٣٠	المطاعة السياسية	٣٩
١٣٥	المطاعة العلمية	٤٠
١٤٠	الكتاب وأشهر الكتاب	٤٧
١٤٥	الترز الأدبي	٥٣
١٤٥	أغراصه وغاذجه	٥٣
١٦٠	الترز السعدي	٥٤
١٦٠	الثرالطلي وحركة المأليف والترجمة	٥٤
١٧٣	كلمة ختامية في الترز	٥٥
١٧٥	الترجمة وأشهر المترجمين	٥٦
١٧٧	أثر الترجمة في الكتابة والشعر	٥٧
١٨٣	الترجمة في بلاد الشام	٥٩
١٨٤	غاذج من الترجمة والشعر المترجمين	٦٠
١٨٦	السترنفون	٦٢
١٩٠	الشعر — تمهيد	٦٦
١٩٠	أسباب نشاط الشعر	٧٧
١٩٣	مواقف نهوض الشعر	٨٤
١٩٧	أغراض الشعر	٨٦
٢١١	الناظ الشعر وأساليبه	٨٧
٢١٤	معانى الشعر وأجياله	٨٧

يطلب من  
أحمد نجيب الرافعي  
صاحب مكتبة الجامعة المؤزرية  
بميدان الأزهر الشريف  
טלפון ٤٠٧٨٧



طبع  
دار الكتاب العربي مصر